

أوناسيو 2 وان نكوفي



تصميم: مروة سلامة

.. رواية ..

محمد أبو المعارف

أوناسيو ٢ (وان تكوفي)	عنوان الكتاب
محمد أبو المعارف	الكاتب
رواية	نوع العمل
محمد فتحي	تدقيق لغوي
مروة سلامة	تصميم الغلاف
كيرلس نادي	تنسيق داخلي

حقوق الطبع محفوظة للناشر

وأى اقتباس أو تقليد أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب لا غير.

الإهداء

إلى التي كنت أجلس بجانبها ذات يوم وقد اشتد عليها المرض
فرفعت يديّ إلى الله متضرعًا ودعوته قائلاً: اللهم خذ من عمري وبثه
في عمر أُمِّي.

فارتعدت فرائصها وأمسكت بيديّ وأنزلتهما وقالت لي بقلق
شديد: بعد الشر عنك يا ولدي، الله يعطيك فوق عمري عمريين
وفوق صحتي ألف صحة.

وهأنذا الآن أكتب هذا الإهداء بدموع من دم بعدما وضعت
جسد أُمِّي في القبر بالأمس، فاللهم اغفر لها وارحمها وأدخلها جنتك
التي وعدت.

يؤلمهم نجاحك أكثر مما يؤلمهم فشلهم،
ويسخرون من تعثرك أكثر مما يسخرون من
أنفسهم إذا سقطوا!

فامضِ إلى نجاحك ولا تلتفت إليهم، فإن
التفاتك إليهم هو أول خطوات الفشل.

مقدمة

ويحدث أن تنطفئ تجاه كل شيء، لم تعد ترغب في أي شيء سوى العزلة، تركز إلى غرفتك وتنزوي فيها لا يراك راءٍ ولا يسمعك مستمع ولا يحدثك متحدث، تبهت كل الأشياء في نظرك وتفقد بريقها، لم تعد تغريك نفس الأشياء التي كانت تفعل من قبل، لا تكثر لبقاء أحد أو لرحيل أحد، تفتح باب حياتك على مصراعيه لمن شاء منهم في أي وقت أن يرحل، وتغلق باب مستقبلك بإحكام كي لا يدخل منه بعد اليوم إلا من يستحقك، تعيش يومك ولا تفكر في مستقبلك وتلعن ماضيك بكل ما فيه.

تعيش في بيئة لا تناسبك ولا تليق بك، فلا أنت تستطيع الخروج منها ولا أنت تملك حق البقاء!

تعيش غريبًا في وطنك، منبوذًا من الناس ومنبوذًا حتى من نفسك التي بين جنبيك!

تضحك رغم تعاستك، وبيتسم ثغرك وفي القلب جرح مقيم.
يراك الرائي ودودًا وحميمًا، وإن اعتزلت الناس ذرفت الدمع
الغزير في الليل المهيم.

«عودة الأحلام»

في ليلة معتمة حالكة الظلام، لا يُنيرها سوى ضوء بعض النجوم اللامعة وبعض الكواكب البديعة، استيقظت من نومي فوجدت نفسي أسفل جبل كبير يطغى عليه اللون الأزرق، كانت بأعلى الجبل قلعة صغيرة بأسوار عالية ومزخرفة، كنت أقف أمام الجبل بالأسفل وأنا أنظر عاليًا لتلك القلعة بذهول وتعجب شديدين، كان المكان من حولي هادئًا وساكنًا، لا يفسد هدوءه سوى صوت أمواج البحر وهي تضطرب ببعضها البعض وتتواثب على الصخور القريبة من الشاطئ وتضطرم بها بكل قوة، ولكن أكثر ما لفت انتباهي هي تلك القلعة القابعة أعلى الجبل، كان يخرج منها خيط رفيع من الضوء ويتصل بنجمة زرقاء اللون كانت تلمع وتبرق بالسماء وهي تتوارى خلف ندف السُحب كل فينة وأخرى، لقد كان منظر النجمة الزرقاء واتصال ضوءها بتلك القلعة منظرًا بديعًا يسر الناظر والمتأمل، وما أن يراها الرائي حتى يهيم بها ويسجره منظرها، فجأة، وجدت نسرًا يستقر على أحد أسوار القلعة ويحدثني!

أجفلت حين سمعت صوته، عقدت حاجبي متعجبًا وقلت في سريرة نفسي: إن هذا الصوت قد سمعته من قبل!

كان النسريحدثني بصوتٍ قد مر على مسامعي من قبل ولكني لا أتذكر صاحبه، خاطبني النسرقائلًا: لقد آن الأوان لتعود، لقد

احترق كتبهم وصاروا مجردين من قوتهم وأنت الآن لا تملك حق
الدخول إلا بواسطة الرمز، والرمز لا يملكه أحد سوى «إيزادورا»!

غضنت حاجبي متعجبًا حين سمعت الاسم!

تساءلت في سريرة نفسي قائلاً:

- من هي إيزادورا تلك؟

فجأة وجدت نمراً يهبط من أعلى قمة الجبل بأقصى سرعته
قاصداً مهاجمتي، دب الرعب في نفسي فشعرت بالذعر حيال ذلك
وركضت هارباً منه، ولكنه استطاع الظفربي وبدأ يغرز أنيابه الحادة
في كل بقعة بجسدي، سألت الدماء من جسدي فصرت أصرخ بأعلى
صوتي، فجأة سمعت صوت أختي إيمان وهي توقظني.

استيقظت من نومي وضربات قلبي تتوالب وشعرت بأن قلبي
سيخرج من بين أضلعي، نظرت إليّ إيمان نظرة شفقة وقالت لي
بصوت هامس:

- هل عادت لك الأحلام يا فارس؟

هززت لها رأسي برفق فتابعت قائلة:

- إداً فلقد بدأ العد التنازلي لدخولنا أوناسيو، ستلازمك
الأحلام في كل ليلة، وكل حلم تراه هو حقيقة، فأحلام أصحاب الدم
النبيل لا تكذبهم وليس بأحلام عبثية أو خيالية، لقد مرّت ستة
أشهر منذ عودتنا، وربما الأحلام قد عادت إليك لأن ثمة شيئاً ما قد
حدث هناك.

استعدت رباطة جأشي وازدردت ربقي وهدأت ضربات قلبي وأنا
أمسك بيد إيمان، شعرت حينها أنني أمسك بيد أمي، كانت إيمان
تنظر إليّ نظرات هادئة لتطمئنني، قالت لي مبتسمة:

- والآن بعدما هدأت، قص لي ما رأيته.

أطلقت تنهيدة كبيرة فأنشأت أقول:

- حين استيقظت وجدت نفسي في مكان بدا لي وكأنه جزيرة
قفراء يحدها البحر من كل الاتجاهات، لم أرَ بيوتًا أو حيوانات أو
طيورًا أو أي شيء يوحي بوجود حياة داخل تلك الجزيرة وكأنها جزيرة
مهجورة لا خافق فيها ولا بارق، ولكن لفت نظري جبل كبير وقد كان
مكتسبًا باللون الأزرق الملفت والبديع وتوجد على قمته قلعة صغيرة
بأسوار عالية ومزخرفة، وكان ينبعث ضوء أزرق من نجمة زرقاء
اللون كانت تزين سماء الجزيرة وتتصل بتلك القلعة، بعدها سمعت
أصوات سيوف تصطك ببعضها البعض بصوت عالٍ وحماسي، حينها
كنت أقف مكاني حائرًا ملتاغًا لا أعرف أين أنا ولا أجد تفسيرًا لما
يحدث من حولي، فجأة ظهر أمامي نسرٌ كان يقف على أحد أسوار
القلعة فخطبني قائلاً:

لقد آن الأوان لتعود، لقد احترق كتابهم وصاروا مجردين من
قوتهم وأنت الآن لا تملك حق الدخول إلا بواسطة الرمز، والرمز لا
يملكه أحد سوى «إيزادورا»!

عقدت إيمان حاجبها في حيرة وتعجب شديدين فسألتنني

بدهشة:

نسر يتحدث؟

- الصورة التي كانت أمامي هي نسر يحدثني، لكن الصوت نفسه أشعر وكأنني قد سمعته من قبل، لقد مرّ على مسامعي من قبل ولكني لا أتذكر صاحبه.

- أليس صوت سراج أو أبريس أو أبيدوس أو الحكيم أتوم أو صوت راع وموراس ابني ناتون؟

- ليس صوت أحد منهم، أنا أتذكر أصوات هؤلاء جيدًا.

ران علينا بعد ذلك صمت مطبق وكلانا مستقل بنفسه يفكر، بعد هنيئة من الوقت سألتني إيمان قائلة:

والمكان يا فارس؟ ألم تره من قبل في أوناسيو؟ أقصد ربما يكون وادي الرذاذ الذي حكيت لي قصته أو ربما يكون في جبال الأخاضر أو مملكة الغوائل؟

- أنا أتذكر تلك الأماكن جيدًا يا إيمان، ليس مكانًا منهم، وأيضًا المكان كان عبارة عن جزيرة يحتاط بها البحر من كل الاتجاهات.

نظرت إليّ إيمان نظرة غريبة لم أعهد لها منها من قبل، فعقدت حاجبي متعجبًا وقلت لها:

- قولي ما تودين قوله، فأنا أعرف نظراتك جيدًا يا إيمان، ولكن تلك النظرة حديثة عليّ ولم أعهد لها منك قبل اليوم، وكأنها نظرة انكسار!

- لقد تعلمت منك ألا أنكسريا فارس، ولكن، تتظاهر بالانكسار
لتحقق مرادك.

- لا أفهم مقصدك؟

لقد مرت ستة أشهر منذ عودتنا للأرض، فماذا فعلنا؟ انظر
لحالنا يا فارس وكيف نعيش، نمتلك منزلًا بقرية بني حميل وهو ملك
لنا، وما نحن ذا نقطن في قرية المنشاة بمحافظة سوهاج، ونتخذ
أسفل شجرة النبق هذه بيتًا لنا! لا تظن أن الناس هنا ستقابلنا
بالترحاب والتهليل، فنحن غريبان عنهم وربما يشكون في أمرنا.

صمتت إيمان هنيهة فتمهدت وأردفت قائلة:

- أنت تريد أن ندخل أوناسيو، فهل تظن أن الكتاب سيأتيك
بنفسه وأنت لم تبرح مكانك؟ ولو بحثت عنه بنفسك ووجدته هل
ستضمن أنك ستفك طلاسمه وتعرف مدخل أوناسيو بسهولة؟

- وما عساي أن أفعل؟ أنا أترقب حلم كل ليلة ليساعدني في
إيجاد الكتاب والمدخل، ولكن الأحلام أشبه بالألغاز، لا أفهم منها
شيئًا البتة.

- الأحلام وحدها لن تساعدك، تحرك نحو أهدافك لتصل إليها.

- وهل تريدني مني أن أجوب معابد ومتاحف مصر كلها لأبحث
عن كتاب فرعوني مجهول؟

- لا تذهب للمعابد ولا المتاحف.

- فأين أذهب إذًا؟

ران عليها صمت قصير ثم تنهدت وقالت:

- اذهب لعدوك.

عقدت حاجبي متعجبًا فهزت رأسها بهدوء وتابعت قائلة:

- نعم، هو ما تفكر فيه أنت الآن، اذهب للسيد ناصر والسيد سليمان ليساعدك على العودة.

- هل جُننتِ يا إيمان؟ أهذا الذي تقولينه هل تقولينه وأنتِ بكامل وعيك؟

- نعم، أقوله وأنا بكامل وعيي، لا أحد يمكنه مساعدتنا الآن سوى السيد ناصر، هو يمتلك المعلومات الكافية لمداخل أوناسيو، افعل معه كما فعل أبي من قبل، أوهمه بأنك ستعمل معه وستساعده في جمع المعلومات عن ذلك الكوكب ليساعدك هو في الدخول ثم افعل بعد ذلك ما تشاء.

- هذان اللذان تقصديهما يا إيمان كانا شركاء ناتون في قتل أبي، ذهابي إليهما سيكون من أجل الثأر لا العمل.

- انقذ سكان أوناسيو أولًا يا فارس ثم عد إليهما وكافئهما على مساعدتهما لك، ولكن كافئهما بطريقتك الخاصة.....

«قرية بني حميل»

أطلق القطار صافراته على المحط ليعلن تحركه من محطة المنشأة بمحافظة سوهاج متجهًا إلى قرية بني حميل جنوب مصر، كنت ألبس جلبابًا صعيديًا واستعنت بلحية مستعارة طويلة وكذلك الشارب، أردت دخول قرية بني حميل بصورة تنكيرية لئلا يتعرف عليّ أحد من سكان القرية، كنت قلقًا بشأن إيمان، وددت لو أنها وافقت على القدوم معي، ولكنها رفضت بحجة أنني يسهل عليّ التنكر أما هي فسيصعب عليها التنكر مثلي، لم يستغرق القطار وقتًا طويلًا حتى وصل لمحطة بني حميل بسبب قرب المسافة بينهما، كنت أسير في شوارع القرية وقلبي يخفق خفقانًا شديدًا، شعرت وكأنه سيخرج من بين أضلعي من شدة التوتر والقلق، كنت أشعر وكأن كل الأعين تراقبني وكأنه سينكشف أمري في أية لحظة، مررت من أمام بيتنا فنظرت بطرف عيني على النافذة فوجدتها مفتوحة على مصراعها وثمة أصوات تصدر من داخل غرفتي، تملكني الغيظ حينها وكدت أنسى مهمتي، انتابني ضيق شديد بسبب تلك الأصوات التي تصدر من غرفتي الخاصة، كنت أحدث نفسي في سريرة نفسي وأقول بغضب شديد: من ذا الذي يعبث بغرفتي الخاصة؟ من ذا الذي يتخذ من غرفتي مأوىً له؟ والله، لولا مهمتي السرية لاقتحمت الغرفة ولضربته حتى أوجعته، استطعت السيطرة على غضبي الشديد ومررت من أمام البيت دون أن يحدث شيءٌ ودون أن ينتبه لمروري أحد، أنهيت

الشارع فنظرت عن يميني وعن شمالي فلم أرَ أحدًا من حولي فاستدرت وعدت من حيث أتيت، ظللت أكرر الأمر المرة تلو المرة وأنا أروح وأجئ من أمام البيت، ولطالما لا يقابلني أحد فلا ضير إن تأنيت واتخذت الوقت الملائم لأطرق الباب، توقفت أخيرًا عن المرور من أمام البيت واقتربت لباب البيت فطرقتة، فتح لي الباب فتى غريب لا أعرفه ولم أره من قبل، حين رأيتَه غضنت حاجبي متعجبًا ووقفت مذهولًا ومشدوهًا ولم أنبس ببنت شفة، قطع الفتى صمتي وباغتني متسائلًا:

- من أنت، وماذا تريد.

- أنا صديق للسيد سليمان، فهل أخبرته بذلك لأحدثه؟

- السيد سليمان والسيد ناصر غادرا القرية منذ أكثر من أربعة أشهر، وقد ابتاع أبي منهما هذا البيت.

- وأين ذهباً؟

- لا أعلم، ولا أحد بالقرية كلها يعلم.

غادرت وأنا في حيرة من أمري، كنت أحدث نفسي قائلاً: أين ذهب هذان الأحمقان؟ وأيضاً البيت كان ملكاً لأبي، فكيف يبيعانه؟

خرجت من القرية وأنا في أشد ضيق، فحتى العدو قد غادر، فكيف السبيل إذًا نحو أوناسيو؟

فجأة وجدت يدًا تربت على كتفي من الخلف، التفتُّ لأعرف صاحب اليد فوجدته مرادًا!

لم أشعره بأني قد تفاجأت به، بينما في داخلي كان قلبي ينبض بشدة وتتسارع نبضاته، نظرت له نظرة هادئة وقلت له بصوت هامس وقد حاولت تغيير نبرة صوتي:

- هل يمكنني مساعدتك يا صاح؟

لاحظت على شفتيه ابتسامة عابرة وقال ساخراً: أظننت أن لن أعرفك يا أوناسيو؟

حينها لم أستطع تمالك نفسي، وجدتني أعانقه عناقاً شديداً، كان يحمل في يده حقيبة سفر جلدية، نظرت للحقيبة في يده فعدت حاجبي متعجباً وسألته بفضول شديد:

- أكنت على سفري يا مراد؟

- كنت أنظر من نافذة غرفتي صدفه فوجدتك تروح وتجيء من أمام البيت فعرفتك، فبقيت أراقبك خفية حتى طرقت باب بيتكم فعرفت أنك ستسأل عن السيد سليمان وحين تعرف أنه قد باع البيت ستغادر، فقامت بجمع أغراضي في تلك الحقيبة لألحق بك وأرافقك.

- إلى أين ترافقني؟

- إلى حيث تذهب.

- أنت تعرف جيداً يا مراد إلى أين مسيري وذهابي، فلا أريد أن أحملك ما لا طاقة لك به، عد لأملك يا مراد ولأخيك فهما بحاجة لك.

أطلق مراد تهيدة كبيرة ثم قال بحزن شديد:

- لقد ماتت أمي يا فارس، وسافر أخي مازن لإحدى الدول الأوربية وبقيت هنا وحيداً.

وضعت يدي على كتفه وقلت له بتأثر:

- أحسن الله عزاءك في أمك يا مراد، وأعاد الله لك أخاك سالمًا غانمًا، ولكن، تلك المرة تختلف عن المرة السابقة، تلك المرة سنعود من أجل الثأر يا مراد لا من أجل إنقاذ أختي.

- أنا معك أينما ذهبت يا فارس، فتأرك ثأري ومصيرك مصيري وعاقبتك عاقبتي، ما فائدة بقائي هنا وقد خلت القرية من أمي وأخي.

- وبيتك؟ ألا تخشى أن يعتدي عليه أحد مثلما حدث ببيتنا؟

نظر للحقيبة التي يحملها في يده فابتسم وقال:

- لقد جمعت كل الأوراق التي تُثبت أن البيت ملكي وأحضرتها في تلك الحقيبة.

- والسيد سليمان والسيد ناصر؟ أين ذهبا؟

- لنخرج من هنا أولاً يا فارس لئلا ينتبه لنا أحد، وبعدها سأقص عليك كل شيء.

سرنا مبتعدين عن القرية، ركبنا القطار المتجه شمالاً إلى قرية المنشأة، بدأ القطار في التحرك من محطة بني حميل وهو يسير ببطء شديد أو هكذا هُيئ لي، كنت أنظر من نافذة القطار للبيوت وللناس

وللأراضي الزراعية، احتبست الدموع في عينيّ وهي تتبادر للسقوط،
أطلقت تهيدة كبيرة وقلت في سريرة نفسي:
- وداعًا يا بني حميل، وداعًا لا لقاء بعده؛ أوريما يجمعنا لقاء
قريب.

«قريّة المنشاة»

توقف القطار في محطة المنشاة، نزلنا منه وسرنا في شوارع القرية متجهين نحو إيمان، حين وصلنا عندها من مسافة قريبة توقّف مراد عن السير فجأة وكأنه قد تفاجأ بشيء ما، كان ينظر للمشهد الحاصل أمامه بتعجب وذهول شديدين، كان يقلب طرفيه في منزلنا المتواضع الذي اتخذناه أسفل الشجرة على ضفاف نهر النيل، فتارة ينظر لملابسنا المعلقة على جذوع شجرة النبق، وتارة ينظر للأواني المعدنية التي كنا نحتفظ فيها بطعامنا، وتارة ينظر لإيمان التي كانت تجلس أسفل الشجرة وهي متكورة في جلستها وتضع رأسها على ركبتيها وتحوط رأسها بذراعيها بلا حركة أو نأمة، قطع صمته المهيب وقال بنبرة حزينة: ألا وجدتما بيتًا يأويكما؟

تهددت وأجبتة:

- هنا الأمور تختلف عن العاصمة يا مراد، هنا لن تجد شققًا لتستأجرها، هنا البيوت للبيع فقط، فمن منا يمتلك المبلغ الكافي لشراء بيت كامل؟

لاحظت إيمان وجودنا فنهضت من مكانها وأسرعت إلينا فسألتنني بشغف:

-هل وجدت السيد سليمان والسيد ناصر؟ هل تحدثت معهما؟

ثم نظرت لمراد وللحقيبة التي يحملها في يده فعدت حاجبها وقالت متسائلة:

- ماذا يعني هذا؟ ألا يخبرني أحدكما بما حدث؟

رد عليها مراد قائلاً:

- بعدما عدت من أوناسيو للقرية وسلمت الفتاة لعائلتها تجمّع حوالي جُل أهل القرية يسألونني عما يكمن داخل الكهف، فأخبرتهم بأن الكهف يوصلنا لعالم سفلي تحكمه قبيلة من الجن، وقد كنت والفتاة الصغيرة محبوسين في سجن هناك وقام أحدهم بتهريبنا وقام بتفجير الجبل لئلا يصل إلينا أحد، فهلل كل سكان القرية فرحين بعودتنا وبانتهاء لعنة الجبل والكهف وتوقف عمليات الاختطاف للأبد وصدقوا قصتنا إلا السيد سليمان والسيد ناصرًا، كانا يراقبانني من مسافة قريبة، وبعدها عدت للبيت وعرفت من بعض الجيران خبر وفاة أمي حزنًا على فراقني وبعد موتها قدّم أخي طلبًا للهجرة لإحدى الدول الأوروبية وتم قبول طلبه وسافر، وفي صباح اليوم التالي طُرق باب البيت وحين فتحت الباب وجدت السيد سليمان والسيد ناصرًا يطلبان الجلوس معي، فأدخلتهما البيت وأجلستهما وقدمت لهما الشراب فبدأ بتوجيه الأسئلة لي السؤال تلو السؤال وأنا أجيبهم في كل مرة بمكرودهاء وكأني كنت والفتاة الصغيرة محبوسين في أحد السجون المظلمة ولم نرَ أو نستوعب شيئًا مما كان يحدث خارج السجن، كان السيد سليمان يجلس هادئًا وقد أجزمت أنه لا يصدق ما أقوله ولكنه قد علم أنني لن أبوح لهما بشيء ولو كان موتي ولذلك

توقف عن توجيه الأسئلة لي، بينما السيد ناصر كان فاقداً لأعصابه وكان يصرخ كلما أجبتة على سؤال وجهه لي، كان كلما سألتني يقول لي: هل رأيت فارساً؟ هل رأيت إيمان؟ هل رأيت شعوباً غريبة هناك أو نجومًا أو كواكبَ عملاقة أو مجرات أو ما شابه؟

فكنت أعقد حاجي متعجبًا وأقول له: فارس وإيمان؟ وما دخلهما بالجبل والكهف؟ وكيف أراهما هناك وهما لم يبرحا مكانهما هنا؟ وكيف أرى نجومًا وكواكب ومجرات وشعوب غريبة؟ لقد دخلت لكهف ولم أدخل للفضاء!

وبعدما يأسا مني غادرا وهما في حالة كبيرة من الغيظ والغضب، وفي صباح اليوم التالي تفاجأت بأن السيد ناصرًا قد باع بيتكما وغادر القرية هو والسيد سليمان ولم يُستدل على مكانهما حتى تلك اللحظة.

سألته إيمان بفضول شديد:

- والفتاة الصغيرة؟ ألا نخشى أن ينطلق لسانها فتنتطق وتبوح بسرنا وسر الكوكب؟

أجابها مراد قائلاً:

- لقد عرفت من عائلتها أنها ولدت هكذا خرساء.

مشيت نحو الشجرة فجلست أسفلها واستندت بظهري على جذعها ووضعت يدي أسفل ذقني في حيرة ويأس شديدين، كنت أتهد

بعمق وأهز رأسي يائسًا فاقترب إليّ مراد ووقف قبالي فعقد حاجبيه بتعجب وقال:

- ما تلك الحال التي أراك عليها؟

- ألا ترى ما نحن فيه يا مراد؟ لا نستطيع البقاء هنا ولا العودة لأوناسيو!

- وما يمنعك من العودة إلى أوناسيو؟

- يمنعني أنني لا أعرف طريق الدخول.

- هل تمزح يا فارس؟ أنسيت مَنْ أنت؟ أنسيت أنك تمتلك الدم النبيل وبمقدورك الدخول لأوناسيو في أي وقت، أنسيت أنك أوناسيو وأن الإشارات قد تأتيتك من جبال الكوكب أو بحاره أو طيوره أو وحوشه أو أي شخص من سكان الكوكب؟

نهضت من مكاني بسرعة شديدة فسألته بشغف:

- ماذا تقصد بالإشارات؟

- الأحلام، كل حلم يأتيتك هو إشارة لك لشيء حقيقي يحدث بالكوكب، هذا ما قاله لي الحكيم أتوم.

غضبت حاجبي متعجبًا وسرحت بمخيلتي أفكر في الحلم الذي رأيته فقطع صمتي وباغتني متسائلًا:

- هل حلمت بشيء يا فارس؟

ردت عليه إيمان بنبرة متسرفة:

- نعم، لقد حلم بجزيرة يحدها البحر من كل الاتجاهات وبها جبل كبير وبأعلى الجبل قلعة صغيرة بأسوار عالية وسمع بها صوت اصطكاك السيوف ببعضها البعض وثمة نسر يحدثه كان يستقر على أحد أسوار تلك القلعة.

اتسعت حدقة عين مراد وسألها بفضول شديد:

- نسر يحدثه؟ ماذا قال له؟

حاولت إيمان تذكر ما قاله لي النسر ولكنها لم تستطع تذكر ما قلته لها فنظرت إليّ على أن أتحدث فأطلقت تهيدة طويلة وقلت:

- لقد آن الأوان لتعود، لقد احترق كتبهم وصاروا مجردين من قوتهم وأنت الآن لا تملك حق الدخول إلا بواسطة الرمز، والرمز لا يملكه أحد سوى «إيزادورا» هذا ما قاله لي.

عقد مراد حاجبيه متعجباً وقال متسائلاً: ماذا يعني أن كتبهم قد احترق؟

هزرت كتفي في حيرة ولم أنبس بكلمة.

وضع يده على لحيته الشقراء وصار يداعيها بأصابعه وهو يحرك مقلتيه يميناً ويساراً ودخل في صمت مطبق وهو يفكر، نطق أخيراً وقال:

- حين دخلت أنت الكوكب احترق كتاب ناتون تلقائياً لأن ثمة قوة أعظم منه قد حضرت، فهل احتراق كتبهم دليل على أن ثمة قوة أعظم منه قد دخلت الكوكب؟

- أي قوة تكون تلك؟

- لا أدري، ربما شخص، ربما كتاب، ربما شيء آخر.

- أو ربما هو مجرد حلم فحسب، والشخص الذي يحدثني ما هو إلا أضغاث أحلام.

- هذا بالنسبة لنا نحن، أما أنت فلا، أنت تمتلك الدم النبيل وتمتلك العلامة، كل حلم تراه هو حقيقة، حتى الأشخاص الذين تراه هم حقيقيون.

- ولكن الشخص الذي حدثني لا أذكر أي أعرفه، صوته ليس بغريب على مسامعي، أشعر وكأنني سمعته من قبل ولكنني لا أتذكر أين ومتى.

- هو حقيقي يا فارس، كل شيء تراه في أحلامك هو حقيقي.

- والجزيرة؟

- كل شيء حقيقي وموجود.

- وإيزادورا؟ من هي؟

- لقد مر عليّ ذكر هذا الاسم من قبل، وهو ليس حديثاً على مسامعي، أعتقد أنني سمعت به من قبل أو قرأت عنه.

ركض مراد نحو حقيبة سفره ففتحها وأخرج منها كتاباً عتيقاً، حين قرأت العنوان المكتوب على غلافه فغرت فهي مذهولاً وقلت له متعجباً:

- كتاب «ترجمة الهيروغليفية»؟ أليس هذا الكتاب هو نفسه الذي كان بحوزة الشيخ مسعود؟
- بلى، هو نفسه، لقد استعترته منه.
- إن من آداب استعارة الكتب إرجاعها يا صديقي.
- سأعيده إليه يومًا ما، فالقارئ لا يسرق يا صاح.
- نعم، هو لا يسرق، ولكنه يُخادِع، فتجده يستعير الكتب ولا يعيدها لمصاحبها إلا بعد أن تُبلى.

لاحت على وجه مراد ابتسامة لطيفة فقال:

- لقد ذهبت إليه لأُرد له كتابه ولكنني لم أجده، وحين سألت عنه ابنه سالم قال لي إنه سافر لإحدى الدول العربية ولا يعرف موعد عودته.

فتح مراد الكتاب وبدأ في البحث عن الاسم، ساعده في ذلك أن الكتاب كان مرتبًا حسب الترتيب الأبجدي وهذا ما يميز ذلك الكتاب فلم يلبث كثيرًا حتى وجد الاسم وأشار للاسم بسبابته مبتسمًا فقرأ ما كان مكتوبًا بجانب الاسم بصوت جهوري وقال: إيزادورا، شهيدة الحب في مصر القديمة، فتاة مصرية من جذور إغريقية، كان والدها حاكم الإقليم حين وقعت في حب ضابط حراسة مصري يُدعى «حابي» حيث التقت به في إحدى الاحتفالات الخاصة بتحتوي رمز الحكمة والقلم في مصر القديمة، فكانا يتقابلان على ضفاف نهر النيل لمدة ثلاثة أعوام، وحين عرف والدها بحبهما رفض ذلك الحب

رفضًا قاطعًا كون ابنته من علية القوم وابنة الحاكم بينما كان الضابط المصري «حابي» من عامة الشعب ومن أسرة فقيرة، فأمر الحراس بمراقبة ابنته وتضييق الخناق عليها لئلا تلتقي بحبيبها، واستطاع الحراس تنفيذ مهمتهم ومنعوها من مقابلته، فالتقت به اللقاء الأخير ولم تخبره بخطتها المستقبلية، وفي طريق عودتها ألقَت بنفسها في نهر النيل وماتت رافضة بأن تحيا دون حبيبها، فحزن والدها عليها كثيرًا فقام بتحنيطها وقام ببناء مقبرة جميلة، بينما حبيبها كان مخلصًا ووفيًا لها ولم يتزوج طيلة حياته، وكان يذهب لمقبرتها في كل ليلة ليشعل لها الشموع كي لا تبقى روحها وحيدة، وتلك كانت من أشهر قصص الحب في مصر القديمة.

أغلق مراد الكتاب وأعادته للحقيبة كما كان ثم ابتسم وقال:

- ألم أقل لك يا فارس بأن أحلامك ليست عبثية؟

- وماذا سنفعل الآن؟

- لا نريد إضاعة الوقت، سنبيت تلك الليلة هنا ثم نستيقظ صباحًا ونلملم أغراضنا ونذهب لمقبرة إيزادورا في قرية تونا الجبل بمحافظة المنيا، فربما نجد الرمز الذي أخبرك به حلمك في مكان ما بالمقبرة، وربما لا نعود هنا مرة أخرى.

«تونا الجبل»

شاب غراب الليل وطار نسر الصباح وخرجت علينا الشمس من خلف حجابها بوجه فاتن وأنيق بعدما أيقظنا صوت الطيور وهي تغرد غادية ورائحة في سعادة وانتشاء شديدين ترحيبًا بشروق الشمس وترحيبًا برائحة نسيم الصباح النقي الذي يعبق به نهر النيل، حملنا حقائبنا وسرنا نحو موقف السيارات، ركبنا السيارة المتجهة لمحافظة المنيا من على الطريق الصحراوي، أخبرنا مراد بأننا سنذهب لقرية تونا الجبل بواسطة سيارة أجرة تلك المرة، أخبرنا أنه ربما محطات القطار ستكون مراقبة بواسطة السيد ناصر ورجاله، نحن نعلم يقينًا بأنه لن يتركنا وشأننا بتلك السهولة، لقد أنفق أموالًا طائلة من أجل اكتشاف هذا الكوكب المجهول، وربما هو يبحث عنّا الآن في كل أرجاء مصر، بعد حوالي ثلاث ساعات وصلنا لمركز «ملوي» بمحافظة المنيا، نزلنا وسرنا نحو موقف السيارات، أوقفنا رجلًا نسأله عن كيفية الذهاب لوجهتنا نحو قرية تونا الجبل، فجأة ظهر أمامنا رجل يلبس جلبابًا صعيديًا فحشر نفسه بيننا وسأل الشخص الذي كنا نسأله فأخبره أننا نود الذهاب لقرية تونا الجبل، فجأة انتزع الحقيبة من يد مراد ومن يد إيمان بطريقة غريبة ومريبة وحصل على حقيبتي هي الأخرى ووضعهم في مؤخرة سيارته التي كانت تقف قريبًا منّا، لاحت على وجهه ابتسامة كبيرة وأشار لنا بيده نحو الغرب وقال مبتسمًا: إنها بعيدة، بعيدة جدًا وتحتاج لسيارة خاصة، ركبنا معه السيارة ولم ننس بكلمة، كان السائق يعاملنا معاملة

الأجانب ويحدثنا باللغة الإنجليزية، لقد خُدِعَ بهيئة مراد وشكله، فقد كان مراد يمتلك شعراً أشقر وعينين خضراوين وكذلك كانت عينا إيمان، فقد ظن أننا غير مصريين، فاجأه مراد حين سأله قائلاً:

- هل المسافة إلى تونا الجبل قريبة أم بعيدة؟

عقد السائق حاجبيه وسأله بنبرة يشوبها تعجب وذهول شديدين:

- هل تتحدث العربية؟

لاحت على شفتيّ مراد ابتسامة لطيفة وأجابه قائلاً:

- نحن مصريون فمن الطبيعي أن نتحدث العربية.

استحالت نظرات السائق الباسمة لنظرات عابسة وتغيرت ملامح وجهه فهز رأسه وقال بازدراء:

- المسافة ليست بعيدة.

ران عليه صمت خفيف ثم تابع قائلاً:

- وليست قريبة أيضاً.

فعاد لوجهه عبسه ونظر للطريق أمامه وظل جالساً كتمثال في كرسيه لا يتحرك، بالكاد هو حزين حيال الصفقة التي فشلت للتو، فقد كان يمني النفس بأن نكون من الأجانب ليحصل على مقابل توصيلته لنا تلك بالعملة الأجنبية.

لم نلبث طويلاً حتى توقفت السيارة وأخبرنا أننا قد وصلنا، نظرنا حولنا بحثاً عن جبانة تونا الجبل فلم نجد شيئاً يوحي لنا بأننا في المكان المطلوب، ما نراه حولنا هي منطقة صحراوية، أخبرنا أنه يُمنع دخول السيارات أكثر من ذلك، رضينا بالأمر ورضينا بتوصيلته تلك رغبة منا في ألا ندخل معه في أية مناوشات قد تُسلط الأعين علينا، رغم أننا كنا نشاهد السيارات تدخل لأقرب نقطة من الجبانة بعدما انتبهنا لوجودها وقد كانت على مرأى البصر، أخرجت من جيبى ورقة نقدية من فئة مئة جنيه مصري فأخذها مني وصاريلثما بفمه مرة ويضعها على جيبينه أخرى وظل يكرر الأمر عدة مرات، بالكاد أنا كنت أنتظره ليعيد لي من المئة جنيه شيئاً، ولكنني استسلمت للأمر ولجشع السائق ولم أطلب منه شيئاً، حين هم بالمغادرة أوقفته إيمان بنبرة حازمة وقالت له:

- أنت، أظننا بلهى سنتركك تخدمنا وترحل؟

تفاجأ السائق بتعنيفها له وجرأتها على التحدث معه بتلك الطريقة، كان يزدرد ريقه وكأنه يحاول النطق ولا يستطيع، فأردفت إيمان بنفس نبرتها الحازمة:

- لم نمكث في سيارتك هذه سوى دقائق قليلة وقد خدعتنا في بادئ الأمر بأن المسافة تحتاج لسيارة خاصة، سأكون كريمة معك إلى حد كبير وسأعطيك خمسين جنيهًا هي ترضينا وأنا أعلم أنها سترضيك أيضاً.

وضع السائق يده في جيبه وأخرج من جيبه ورقة نقدية فئة خمسين جنمًا ومدّها إلها ولم ينبس بأية كلمة، التقطتها منه إيمان وصارت تُلثمها بقمها مرة وتضعها على جبينها أخرى وكررت الأمر عدة مرات وفعلت مثلما فعل هو سابقًا كإشارة منها لاستفزازة.

أصبنا بعدها بنوبة ضحك هستيرية، كان مراد يضحك ملء شذقيه وكاد يسقط على الأرض من شدة الضحك، توقف عن الضحك وقال لها:

- لو دخلنا كوكب أوناسيو اليوم فلسنا بحاجة لتلك الخمسين جنمًا، ألا كنت تركتها له لينتفع بها؟

رفعت إيمان حاجبها الأيسر وقالت بنبرة ساخرة:

- لتأكلها طيور الأبيس في أوناسيو خير من أن يأخذها مخادع وجشع مثله.

سرنا نحو مقابر تونا الجبل، كان المكان مليئًا بالسِّيَّاح القادمين من بعض الدول الأجنبية، كنت أطوف بعيني في المكان بحثًا عن جبل أو صخرة كبيرة يقبع أسفلها كهف ما يكون هو بوابتنا للدخول إلى أوناسيو، لم أجد جبالًا بالمكان، المكان هو منطقة صحراوية في غرب مدينة «مَلُوي»، لا جبال هنا، ولا كهوف، قلت في سريرة نفسي: ربما الرمز سنجده هنا والدخول لأوناسيو سيكون من مكان آخر، أول ما قابلناه هنا كان مقبرة إيزادورا، كانت المقبرة مكونة من طابق واحد، مبنية من الطوب اللبن المحروق والمطلي باللون الأبيض، وكانت عبارة عن حجرتين، داخلهما مومياء الأميرة إيزادورا على سرير جنائزي فاخر

عبارة عن بناء مرتفع من الطوب اللبن ويعلوه نموذج على شكل قوقعة مغطاة بالجبس، ويوجد أمام المقبرة مذبح يعلوه تاج هرمي عند الأركان الأربعة، دخلنا المقبرة فترأى لنا مومياء إيزادورا وهي ممددة داخل صندوق زجاجي، كانت المقبرة مليئة بالسياح، ثمة مصورون وخبراء ومرشدون سياحيون كانوا يملؤون المقبرة من الداخل وقد اكتظت الغرفة بنا، نظرت للمومياء حتى أتتني ملامح تلك الأميرة الجميلة التي يتحاكى الناس عن جمالها البديع والأسير، فوجدت وجهًا غريبًا وباليًا قد أحدث به التحنيط ومرور مئات السنوات ما أحدثاه بها، فجأة وجدت جسدها يتحرك، اقشعر جسدي وشعرت بقشعريرة مهيبة تملأ من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي من هول ما رأيت، نظرت للناس من حولي كي أرى ردة فعلهم عمًا حدث للتوفلم أجد منهم أية ردة فعل وكأنه لم يحدث شيء البتة، أطلقت تنهيدة طويلة واستعدت رباطة جأثي وقلت في سريرة نفسي: ربما ما حدث للتو كان هَيِّئًا لي، فجأة وجدت المومياء قد عادت للتحرك من جديد، صرت أغصص بحلقي حتى أجد بلة أحرك بها لساني من هول ما أرى، ازدردت ريتي بصعوبة بالغة وقلت بصوت جهوري موجهاً كلامي لمراد:

- المومياء تتحرك يا مراد.

فتسلطت أنظار الناس عليّ ما بين متعجب وساخر وضاحك، وما بين أجنبي لم يفهم لغتي، همس إليّ مراد قائلاً:

- اخفض صوتك يا فارس، لا تجعلنا عرضة للشك ولا تسلط الأنظار علينا هنا.

همست إليه قائلاً:

- أقسم لك يا مراد بأنني قد رأيت المومياء تتحرك.

- أنا أصدقك يا فارس، وهذا ليس غريباً، ستحدث معك أشياء لا تحدث مع غيرك، وسترى أشياء لن يراها غيرك، ما يهم هو الرمزي فارس، نريد الرمز لنعرف المدخل.

هزرت له رأسي بهدوء وعدت لأنظر لمومياء إيزادورا، فجأة وجدتها تعتدل من تمددها وتجلس وقد اخترق رأسها الزجاج الذي يغطيها ولم ينكسر أو يحدث به شيء، نظرت للناس من حولي مرة أخرى لأعلم هل يرون ما أراه أم أن ما يحدث الآن هو شيء خاص بي ولا يراه أحداً سواي، كان الناس يقفون هادئون في أماكنهم وساكنون بلا أية ردة فعل فأدركت أن هذا الأمر هو أمر استثنائي خاص بي فقط، عدت ونظرت للمومياء الجالسة فوجدتها تُشير لي بسبابتها نحو الغرب، نظرت إلى ما تُشير إليه فلم أجد سوى جدار المقبرة، فجأة تراءى إلى نظري مجموعة رموز كانت منقوشة على ذراعها الذي كانت تشير لي به، مجموعة رموز طويلة تشبه الرسومات التي نراها في المعابد الفرعونية، بسرعة شديدة أخرجت قلمًا وورقة وبدأت أرسم الرموز كما كانت مكتوبة على ذراع مومياء إيزادورا، بعدما انتهيت من الكتابة نظرت لمراد فوجدته يتسم لي فرحاً وعلامات السعادة تملأ وجهه وكذلك كانت تفعل إيمان، عادت المومياء لتمدها داخل

الصندوق الزجاجي، خرجنا من مقبرة إيزادورا فطلب مني مراد الحصول على الورقة التي كتبت فيها الرموز، سألتني إيمان عما رأيته وعن تلك الكتابة التي كنت أكتبها، فأخبرتها عن إشارة إيزادورا لي بسبابتها نحو جدار المقبرة جهة الغرب وأن الرموز وجدتها منقوشة على ذراع المومياء، فعقدت إيمان جبينها ونظرت ناحية المقبرة وصارت تقلب النظر في جدرانها، بينما كان مراد منشغلاً بقراءة الرموز والتفكير فيها، كان صامتاً يفكر بعمق، ثنى الورقة وردها إليّ فتنهد وقال:

- أنا أتذكر رمزاً واحداً فقط من تلك الرموز التي كتبها، لقد اطلعت على حروف اللغة المصرية القديمة من قبل وما يقابلها في حروفنا العربية، لكنني لا أتذكرهم كلهم، لا أتذكر الآن سوى هذا الرمز والذي يرمز لحرف الألف بلغتنا، وأشار إلى الرمز الثاني التي رسمته من حروف اللغة المصرية القديمة وقد كان رمز (العقاب).

نظر مراد للمقبرة وبدأ يتفحص جدرانها من أعلى إلى أسفل، عاد فنظر إليّ فسألني بفضول شديد:

- هل كانت إيزادورا تُشير لك بسبابتها إلى أعلى أم إلى أسفل؟

- إلى أسفل، ناحية الغرب.

هرول مراد مسرعاً ودخل لمقبرة إيزادورا، بعد هنيهة من الوقت خرج مراد بوجه عبوس مليء بالحيرة والتساؤلات، زفر فقال بيأس:

- لا يوجد شيء بالداخل، لا رسومات على الجدار الذي كانت تشير إليه، ولا توجد غرف أسفله، وأرضية المقبرة صلبة جدًا.

صار مراد يدور حول نفسه حائرًا ملتاعًا، عاد فنظر إليّ نظرة تشي بالكثير من التساؤل، كان ينظر إليّ وهو يعقد حاجبيه، نطق أخيرًا وسألني بشغف شديد:

- فارس، أمتأكد أنها كانت تُشير ناحية الغرب؟

- نعم، أنا متأكد من ذلك.

صار مراد ينظر في وجوه المارين أمامه من الناس بتمعن، أوقف رجلًا كان يلبس جلبابًا صعيديًا ويحمل على كتفه بندقية حراسة، سأله مراد قائلاً:

- إذا سمحت يا سيدي، نحن غريبون عن هذا المكان، ولا نملك المال لنطلب مرافقة أحد المرشدين السياحيين هنا، فهل أخبرتنا يا سيدي ماذا يوجد في تلك الجهة؟ فأشار حينها مراد بسبابته نحو الغرب وهو لا يعلم إلى ماذا يشير، ولكنه تعمد فعل هذا ليخرج الرجل كل ما بجعبته.

هز الرجل رأسه وقال مبتسمًا:

- سراديب الجبل، أنا أعمل حارسًا عليها.

فغرنا أفواهنا جميعًا حين سمعنا ما قاله، فنحن لم نكن نعلم بوجود سراديب هنا، تابع الرجل كلامه قائلاً:

- هي سراديب اللانهاية، لا تعرف آخرها، مليئة بالمتاهات والشوارع أسفل الأرض، ومن يدخلها ويتمادى في المشي داخلها فهو الدخول بلا عودة.

وقفنا مشدوهين ومذهولين من هول ما سمعناه من ذلك الرجل، فلأول مرة نسمع عن تلك السراديب، عاد مراد فسأله مجدداً:

- ألم يُستدل على نهاية لتلك السراديب وإلى مصيرها في النهاية؟
- قلت لك هي سراديب اللانهاية، ولكن بعض الأقاويل تقول إنها توصل لكل منطقة أثرية في مصر، كالأهرامات وغيرها من المناطق الأثرية، وأقاويل أخرى تقول إنها توصلنا لدول أخرى.

- من اكتشف تلك السراديب؟

- اكتشفها الدكتور سامي جبرة.

- وإذا أردنا دخول تلك السراديب؟

- لا يمكنكم الدخول إلا بواسطة مُرافق لئلا تعبثوا بشيء أو يُفقد أثركم داخل السراديب.

- أنا أقصد أن ندخلها لنكتشف نهايتها.

- بإمكانكم فعل ذلك ولكن هناك شرط وحيد.

عقد مراد حاجبيه فسأله بشغف:

- وما هذا الشرط؟

- أن تكتبوا وصيتكم قبل دخولكم، فكما قلت لك، هو الدخول بلا عودة.

اقترب إليه مراد وهمس إليه قائلاً:

- نحن ندرس في كلية الآثار، وكما أخبرتك منذ قليل، نحن لا نملك المال لندفعه لمرافق، فهل أخبرتنا بطريقة ندخل بواسطتها لتلك السرايب دون حاجتنا لمرافق؟

ساد الصمت على وجه الرجل ثم زم شفتيه وقال:

- أنا أعمل حارساً هنا، وقد انتهيت للتو من وردية الحراسة الخاصة بي وقمت بتسليم مكاني لصديق لي، من المعتاد أننا لا نلقى زحاماً هنا، ولكن لسوء حظكم اليوم جاءنا فوجان سياحيان من ألمانيا وفرنسا، ولذلك تلاحظون ذلك الزحام الحاصل اليوم.

ران عليه صمت خفيف ثم تابع قائلاً:

- تبدأ فترة حراستي للسرايب هنا من العاشرة مساءً وحتى العاشرة صباحاً، لو جئتموني في صباح الغد قبل الساعة العاشرة صباحاً سأساعدكم.

لاحت على وجه مراد ابتسامة لطيفة، قام بشكر الحارس وتوديعه، كنت وإيمان ننظر لمراد نظرات تعجب، لاحظ مراد نظراتنا فسألنا مستفسراً:

- ما الأمر؟

أجابته إيمان بصوت هامس:

- ما هي خطتك يا مراد؟

عقد مراد جبينه فأجابها:

- خطتي هي الدخول لأوناسيو.

- وهل تظن أن الأمر بتلك السهولة؟

- أعلم أن الأمر ليس سهلاً، ولكننا لا نريد إضاعة الوقت،

الوقت يداهمنا وشعب أوناسيو في خطر، إشارة إيزادورا قد أثبتت لنا أن الدخول لأوناسيو سيكون عبر تلك السرايب.

- أية سرايب يا مراد؟ إنها تحتوي على أكثر من ألف شارع

ومتاهة بالأسفل!

لاحت على وجه مراد ابتسامة لطيفة فقال مبتسماً:

- لقد صار بحوزتنا الآن كنز يا إيمان، ذلك الكنز لولا امتلاك

فارس للدم النبيل ما كنا لنحصل عليه.

عقدت إيمان حاجبها متعجبة فأشار مراد نحو الورقة التي ما

زلت أمسكها بيدي فأردف قائلاً:

- هذا هو الكنز يا إيمان، الرمز الذي نُقش على ذراع الأميرة

إيزادورا سيساعدنا لمعرفة طريقنا، ولو أخطأنا في ممر أو متاهة سنُوجّه.

كنت أنظر لمراد وإيمان ولم أنبس بأية كلمة، صرت أتمهد وأنظر
باتجاه السراذيب ودخلت في صمت مطبق.

نظر إليّ مراد فقال:

- ثق بي يا فارس.

قطعت صمتي فقلت له:

- أنا أثق بك يا مراد، ولكننا لم نستطع فك الرمز ومعرفة معنى
الكلمة بعد، فربما بعد فك طلاسّم تلك الرموز نُوجّه لمكان آخر.

- سنذهب الآن لاستئجار شقة في أي فندق من الفنادق
المجاورة لبنيت فيها تلك الليلة، وهناك سأخرج كتاب «ترجمة
الهيروغليفية» الذي بحوزتي وسنعرف معنى تلك الرموز.

استطعنا الحصول على شقة متواضعة مكونة من غرفتين
وصالة بمبلغ زهيد في أحد الفنادق القريبة من مقابر تونا الجبل،
كانت الشقة ضيقة نوعًا، ولكن ما يميزها هو أن الغرفة التي اخترناها
أنا ومراد للمبيت فيها كانت تطل على مقابر تونا الجبل مباشرةً، أخرج
مراد الكتاب ففتحه وبدأ يبحث عن الحروف التي رسمتها في الورقة،
كانت إيمان منشغلة في المطبخ لتعد لنا وجبة الغداء، كنت أجلس
بجوار مراد وأبحث معه عن الرمز الأول وكنت قد جهزت ورقة وقلماً
لأكتب النتائج، لم يمضِ وقت طويل حتى وجدنا أول رمز، كان الرمز
الأول لفرخ سمان أو كتكوت وهو يعادل حرف الواو بلغتنا، أما الرمز
الثاني فكما قال مراد، رمز (العُقَاب) وهو يعادل حرف الألف بلغتنا،

والرمز الثالث كان رمز موجة ماء وهو يعادل حرف النون، والرمز الرابع كان لرغيف خبز وهو يعادل حرف التاء، والرمز الخامس كان رمزاً لسلة ذات مقبض وهو يعادل حرف الكاف، ثم الرمز السادس كان مجدداً لفرخ سمان وهو يعادل حرف الواو، والرمز السابع كان لأفعى وهو يعادل حرف الفاء، أما الرمز الأخير فقد كان رمزاً لخطين مائلين وهو يعادل حرف الياء في لغتنا، بعدما انتهينا أغلق مراد الكتاب وصرنا ننظر سويًا للحروف التي كتبها داخل الورقة بالترتيب وحاولنا تجميع كلمة، كانت الحروف هي «وان تك و ف ي».

كنا نردد الأحرف ببلاهة، كالطفل الذي بدأ للتو تعلم اللغة، حاولنا استنتاج كلمة أو عبارة مفهومة من تلك الحروف ولكننا فشلنا، دلفت إلينا إيمان بعدما استمعت لأصواتنا الغريبة من المطبخ، أمسكت الورقة وحاولت فك طلاسم الحروف، أخذت وقتاً طويلاً وهي تقطّب وجهها وتمعن النظر للحروف، نطقت إيمان قائلة:

- يبدو أن الرمز نصفه عربي ونصفه إنجليزي؟

عقدت حاجبي مستفسراً وكذلك فعل مراد فتابعت قائلة:

- ربما الحروف تنقسم لكلمتان، الكلمة الأولى تكون عربية وهي (وان ت) والكلمة الثانية إنجليزية وهي (ك و ف ي)

لاحت على وجه مراد ابتسامة ساخرة فقال:

- تقصدين «وأنت كوفي»!

ثم نظر إليّ وقال ساخراً:

- هل أنت قهوة يا فارس؟

فأجبتَه ضاحكًا:

- لا، أنا زنجبيل.

دخلت أنا ومراد في نوبة ضحك هستيرية ودمعت عينانا من شدة الضحك، زفرت إيمان وقالت بغضب:

- أنا مُخطئة لأنني حاولت مساعدتكما، أكملًا معًا تلك الترانيم التي كنتما ترددانها كالبلهى.

كتمنا الضحك داخلنا لئلا نستفزها أكثر من ذلك، عادت للمطبخ وهي تتأفف وتزفر بغضب، خشينا أن يُفسد غضبها حياتنا أو طعامنا، فالمرأة حين تغضب من زوجها تُفسد له شيئين، إما حياته أو طعامه.

أطلقت تهيدة طويلة وقلت لمراد يائسًا:

- وماذا بعد يا صديقي؟

أطبق مراد شفتيه ثم تنهد بعمق وقال:

- لا أدري يا فارس، أنا أشعر أن تلك السرايب هي بوابة دخولنا لأوناسيو، ولكن الشعور وحده لا يكفي، نحتاج لأدلة كافية لاتخاذ قرار صعب كهذا.

- والرمز أيضًا لم يساعدنا

- مَنْ قال لك ذلك؟ كل شيء يحدث معك يا فارس له قيمة وحقيقي، إن لم يكن الآن فمستقبلاً.

- لن أستطيع الدخول لتلك السرايب المجهولة يا مراد، ليس خوفاً على حياتي، بل خوفاً على إيمان، لا أتحمل عاقبة خسارتها، لن أسامح نفسي لو أصابها شيء وخسرتها.

أطلق مراد تهيدة طويلة وقال بصوت خافت:

- وكذلك أنا يا فارس، لن نخاطر، نحتاج لأدلة كافية بأن تلك السرايب ستوصلنا لأوناسيو، لنجعل دخولنا للسرايب في الغد وكأنها مهمة استكشافية، فربما الأدلة نجدها داخل تلك السرايب.
أحضرت لنا إيمان الغداء فبدأت بتذوق الأكل فابتسمت، لاحظت إيمان ابتسامتي فغضنت جبينها وهزت رأسها مستفسرة فقلت لها مبتسماً:

- ظننت أن غضبك سيُفسد الطعام.

لاحظت على شفيتها ابتسامة ساخرة وقالت:

ليس الطعام، ربما سيُفسد غضبي حياتك أيها الساذج، لتتعلم ألا تسخر مني مرة أخرى.....

أسدل الليل عباءته السوداء على المكان، صوت نعيق الغربان كان يصدر من كل مكان، تزينت صفحة السماء بنجومها وكواكبها وقمرها المكتمل، كنت أطل من الشرفة وأستمع بقطع السُحب التي تتراقص وتتمر من أمام القمر وتحت أنظاره في مشهد بديع وساحر وقد كان القمر في أبهى صورهِ، كان مراد غارقاً في النوم، أما أنا فقد عجز الكرى على أن يلم بجفوني، كنت أذود النوم من عيني ذوداً ولا أجده، سحابة من الحيرة ارتسمت على جبيني، كنت أردد في قرارة نفسي قائلاً: نيقيا! كيف السبيل إليك؟ أوناسيو! ألا تشتاق إليّ مثلما أشتاق إليك؟ أه يا نيقيا لو تعلمين وجدي واشتياقي! ولو كانت القلوب تنطق لأبكت كل مستمع.

كنت أنظر لصفحة السماء وأمعن النظر لتلك النجمة الزرقاء التي تتلألأ وتبرق في مشهد يسر الناظر والمتأمل والعاشق، شعرت وكأنها تتراقص وتبختر أمام ناظري وتستعرض جمالها وسحرها الفتان، فجأة انبثق منها ضوء ساطع اتصل بالسرديب في منظر غريب ومحير، اتسعت حدقتا عينيّ ذهولاً من المشهد الحاصل أمامي، أسرعرت فأيقظت مراداً وطلبت منه الخروج معي للشرفة لأمر جلل، كان مراد يفتح عينيه بصعوبة بالغة وينظر لأسفل بحذر ليرى طريقه نحو الشرفة جيداً، بعدما خرجنا للشرفة أشرت إلى تلك النجمة الزرقاء وأريته إيّاها وذلك الضوء الساطع الذي ينبعث منها، ضيق مراد عينيه فتناوب وقال بخمول:

- لا أرى شيئًا يا فارس.

صحت فيه غاضبًا:

- تلك النجمة الزرقاء يا مراد، ها هي ذي بالأعلى، وها هو ذا ضوءها ينبعث منها إلى سراديب الجبل.

صمت مراد هنيئة ثم قال بنبرة هادئة:

- قد قلت لك من قبل يا فارس، ستري أشياء لا يراها أحد سواك، هيا يا صديقي نذهب للنوم وفي الصباح نتحدث في هذا الأمر.

سرنا نحو السرير، وضع مراد رأسه على وسادته ولم يلبث طويلاً حتى أدرسته أول سنة من النوم فنام، تعجبت من أمره وممن هم على شاكلته، فكيف يضع الشخص رأسه على الوسادة وينام بتلك السرعة؟ أنا لا أستطيع فعل ذلك، لا يمكنني النوم إلا حين أبدأ بتأليف قصة من مخيلتي وأنها ثم أشرع للنوم، صرت أتقلب على جنبي وأفكر في أمر تلك النجمة وذاك الضوء الذي كان ينبعث منها باتجاه السراديب، وأفكر أيضاً في الحلم السابق الذي رأيت فيه نفس النجمة ونفس الضوء ولكنه كان ينبعث منها باتجاه قلعة ما كانت تقع فوق قمة جبل أزرق اللون، صرت أحدث نفسي في سريرة نفسي قائلاً: هل تلك إشارة يا فارس؟ ربما هي إشارة، إيزادورا كانت تشير لي باتجاه السراديب، والآن تلك النجمة تشير لي باتجاه السراديب أيضاً، سأدخل، نعم سأدخل؛ لنرى ما يؤول إليه مصيرنا، وأثناء ذلك غلبني النعاس فنمت.....

«سراديب تونا الجبل»

أيقظني مراد في الصباح وأخبرني أن الساعة قد صارت السابعة صباحًا، اعتدلت من نومتي وجلست على السرير بينما واصل هو ارتداء ملابسه، كنت أجلس كالمثال بلا حركة أو نأمة، لاحظ مراد شرودي فهدر قائلاً:

- لقد جهزت إيمان وجبة الفطور، هيا انهض يا صديقي ولا تتكاسل، لا نريد التأخر لوقت انتهاء حراسة ذلك الحارس وتفويت الفرصة التي سُنحت لنا لدخول تلك السرايب دون مضايقات من المرافقين، نريد استكشاف السرايب والمتاهات التي بداخلها.

رمقني مراد بنظرات تعجب، ظل ناظرًا إليّ هنيئة من الوقت ثم عاد وواصل استكمال لبس ثيابه، تنهد مراد وتابع قائلاً:

- لقد حضر صاحب الشقة منذ قليل وطلب منّا تسليم الشقة الآن وإلا ندفع له أجره يوم آخر، فدفعت له أجره أمس واليوم بمبيت تلك الليلة، سنترك حقائبنا هنا.

قطعت صمتي فأطلقت تهيدة كبيرة وقلت بصوت خافت:

- قريبًا ستبدأ المهمات، كُلّ منّا في مهمة.

عقد مراد حاجبيه متعجبًا فقال متسائلًا:

- ماذا قلت؟ أية مهمات تلك؟ هل أنت مستيقظ يا فارس أم ما زلت نائمًا؟

- أنا في كامل يقظتي يا مراد، لقد جاءتني إيزادورا في حلم الليلة الماضية وأخبرتني بأن المهمات ستبدأ قريبًا.

- أية مهمات؟

- لا أدري.

- تعني أنا وأنت وإيمان؟

أطرقت رأسي إطرًا خفيًا ثم رفعت رأسي وقلت له:

- أنا وأنت وإيمان... وشخص رابع معنا.

عقد مراد حاجبيه فشهب وقال بفضول شديد:

- مَنْ هذا الشخص؟ هل تعرفه؟ هل رأيتَه من قبل؟ هل هو من سكان الأرض أم من سكان أوناسيو؟

- لا أعرفه، ولم أره من قبل، هو من سكان الأرض، تراءت إلي صورته في حُلبي، ولكنني لا أعرف هل سنلتقي به هنا أم في أوناسيو.

- وما مضمون تلك المهمات؟ وما الهدف منها؟

- لا أعرف يا مراد، حقيقة لا أعرف، كل ما أعرفه هو أنها ستكون مهمات استغاثة.

ران علينا بعدها صمت مطبق، فقطع مراد صمتنا وتساءل:

- قل لي، ما سر تلك النجمة التي أيقظتني من أجلها مساء أمس؟

- كانت نجمة زرقاء اللون تتلألأ وتبرق في السماء ثم انبعث منها فجأة ضوء ساطع فاتصل بسراديبي الجبل.

- ماذا يعني هذا؟

- يعني أننا لا بد أن نتجهز الآن ونُجهز حقائبنا ونرحل.

- إلى أين؟

- سندخل السراديب اليوم نحو أوناسيو.

كانت إيمان تجلس على المائدة بالخارج وتنتظر قدومنا وقد استمعت لحديثنا كله، دخلت غرفتها وقامت بتغيير ملابسها وجهزت حقيبتها ووضعت داخلها بعض الملابس وبعض الطعام وقوارير مياه ومجموعة كبيرة من المصابيح، خرجت من الغرفة فوجدتها قد تجهزت، أدركت حينها أنها استمعت للحديث الذي دار بيني وبين مراد، قمت بتبديل ملابسها وتجهزت سريعاً وأكلنا بعضاً من الطعام الذي أعدته إيمان وغادرنا سائرين نحو مقابر تونا الجبل، أوقفنا مراد في منتصف الطريق فدخل أحد المحال التجارية فقام بشراء كثير من المياه والطعام وبعض المصابيح فوضعهم داخل حقيبته حتى اكتظت، أخذت ما تبقى منه ووضعتة داخل حقيبتي، نحن لا نعلم كم سنمكث داخل تلك السراديب، ولو دخلنا أوناسيو فنحن أيضاً لا نعلم مصائرنا هناك.....

كانت الساعة تُشير إلى التاسعة صباحًا حين وصلنا لجبانة تونا الجبل، كانت إيمان تحمل حقيبتها الجلدية خلف ظهرها وتمسك بمصباح في يدها وهي مستعدة ومتأهبة وفي كامل تركيزها، كانت متحمسة للغاية وتنتظر دخولنا للسراديب وانتقالنا لأوناسيو بشغف، كنت أنظر إليها كل فينة وأخرى بعين الشفقة، كنت أشعر بغصة تكاد تفتك بقلبي كلما تذكرت تلك المهمات، ليس خوفًا على نفسي، بل ضنًا على إيمان من أن تكون مهمتها عبئًا ثقيلًا على كاهلها، فهي رقيقة وحنون وتلك المهمة ستكون هي أول شيء تفعله في حياتها من لقاء نفسها وستكون في تلك المهمة هي سيدة قرارها، لم تسألني إيمان عن تلك المهمات التي كُلفنا بها، فهي تعلم يقينًا أن كل حُلم لي له تفسير، وإن كنا لا نعلمه اليوم فغداً سنعلم وستتضح الحقائق، كانت الأفكار تدور في رأسي وأنا في حيرة من أمري، كنت أحدث نفسي مرارًا وأتساءل: تُرى ما تلك المهمات؟ وما فائدتها؟ تُرى لماذا احترق الكتاب الذي بحوزة راع وموراس؟ حين دخلت أنا في المرة السابقة احترق كتاب ناتون من تلقاء نفسه لأنه تيقن بأن ثمة قوة أعظم منه قد دخلت الكوكب، ولكن كتابهما لمَ احترق تلك المرة؟ هل هناك شخص يعادلني في القوة أو ربما يفوقني فيها قد دخل الكوكب؟ أم أن ثمة كتابًا آخر قد دخل هناك؟ وإن كان كذلك، فَمَن أدخله؟ هل السيد ناصر؟ هل السيد سليمان؟

كثير من التساؤلات كانت تدور في رأسي وازدحمت بداخله، كان مراد وإيمان ينظران إليّ ونحن نقف قريبًا من السراديب، كانا ينتظران إشارتي لتتحرك باتجاه السراديب وقد كان يقف بالخارج

ذاك الحارس الذي التقينا به يوم أمس، بقيت واقفًا أراقب الساعة وقبل أن تصل إلى الساعة العاشرة بعشر دقائق أشرت إليهما بالتحرك والذهاب نحو السراييب، حمل كل منا حقيبته خلف ظهره وبدأنا في التحرك، كان مراد يقطب وجهه متعجبًا عن سبب تأخري كل هذا الوقت، ابتسمت له ابتسامة هادئة وقلت له بصوت خافت:

- ستعرف كل شيء في وقته.

وصلنا عند باب السراييب الخارجي فقابلنا الحارس بالترحاب وصافحنا جميعًا، لقد تذكرنا منذ أول وهلة، نظر لساعته فغضن جبينه ونظر لمراد متعجبًا وسأله:

- لماذا تأخرتم كل هذا؟ ألا ترون الهدوء يخيم على المكان هنا في هذا الوقت من الصباح؟ لقد تبقى من حراستي مدة عشر دقائق فقط، بالكاد هي لن تكفينا لننزل السراييب.

صمت مراد وبدا عليه التوتر الشديد، فنطقت وقلت موجّهًا كلامي للحارس:

- لقد تمادينا في النوم كثيرًا بسبب الإرهاق الشديد الذي شعرنا به فتأخرنا في المجيء إليك رغماً عنا، ونريد العودة اليوم لديارنا، ولكننا لا نريد العودة قبل أن نتفقد تلك السراييب، سينفعنا ذلك في دراستنا في كلية الآثار.

صمت الحارس هنيهة من الوقت ثم تهاد وقال:

- سأساعدكم من أجل دراستكم ومن أجل قلة المال معكم.

ران عليه صمت خفيف ثم نظر لساعته وتابع قائلاً:

- يتبقى خمس دقائق فقط قبل أن أسلم مهام حراستي لصديقي، ستدخلون السرايب دوني، ولكن، لا تتمادوا داخلها أكثر من اللازم، إنها تمتد لثلاثة كيلو مترات أو أكثر بكثير، وهي بمثابة مدينة كاملة تحت الأرض، وبعدها تنتهون من جولتكم تخرجون دون أن تذكروا اسمي للحارس الآخر حتى لا تسببوا لي المشكلات.

هزنا رؤوسنا موافقين، بدأنا في النزول للسرايب، نزلنا عبر سلم صخري كان دائرياً وطويلاً نوعاً ما، بعدما أنهينا السلم وقفنا أمام ثلاثة أبواب وكانت هي السرايب المقصودة، السرداب الأول كان على يميننا والثاني كان في المنتصف والسرداب الثالث كان على يسارنا، وقفنا ننظر للسرايب الثلاثة ونحن في حيرة من أمرنا، لا ندري أي سرداب نسلك، دقت الساعة العاشرة وسمعنا صوت الحارس وهو يتحدث مع شخص ما وهو يرفع صوته، أدركنا حينها أنه تعمد رفع صوته ليخبرنا بتسليم ودية حراسته ورحيله، وقفنا في أماكننا كالتماثيل دون حراك، نظر لي مراد وهو يفرغ فاهُ وأشار لي برأسه نحو السرداب الثالث، ذهبت بعيني حيث يشير فوجدت الرمز الذي رأيته على ذراع إيزادورا منقوشاً أعلى باب السرداب، نظرت لمراد مبتسماً فهزنت له رأسي وأشرت لهما بالمسير نحو السرداب والدخول فيه، بعدما دخلنا السرداب فاجأنا خُفاش كان معلقاً بسقف السرداب فطار أعلى رؤوسنا، صرخت إيمان صرخة مدوية، سمعنا صوت أقدام الحارس وهو ينزل السلم بأقصى سرعته،

التصقنا بجدار السرداب وحبسنا أنفاسنا لئلا ينكشف أمرنا، اقترب الحارس نحو السرايب الثلاثة وقال بصوت صاخر:

- هل يوجد أحد هنا؟

تسارعت ضربات قلوبنا وشعرنا بأنها ستخرج من بين ضلوعنا من شدة الخوف والتوتر، كرر الحارس نداءه عدة مرات، بعد يأس منه خرج عائداً لمكانه، استعدنا رباطة جأشنا وصرنا نتنفس بعمق وأريحية، نظرت لإيمان وقلت لها هامساً:

- سنقابلهم كثيرًا يا إيمان داخل السرداب، عليك أن تعتادي عليهم، فالخفافيش تحتل السرايب كثيرًا لأنها تكره الضوء.

هزت لي رأسها بهدوء مع ابتسامة خفيفة، سرنا داخل السرداب ببطء، كانت المتاهات والشوارع فيه كثيرة، كانت موميאות طيور الأبيس والصقور والنسور وقرد البابون كثيرة جدًا، تونا الجبل، هي مقبرة جماعية للطيور والحيوانات، كنا نهتدي في طريقنا بالرمز، كان منقوشًا في طريقنا بكثرة، بعد حوالي خمس ساعات من السير المتواصل وصلنا لطريق مغلق، وقفنا مذهولين ومشدوهين من هول ما رأينا، فقد كان سقف السرداب في هذا المكان أعلى بكثير من الأماكن الأخرى، وثمة باب خشبي كبير منقوش عليه كثير من الرسومات الفرعونية، كان الباب مغلقًا بإحكام شديد، كانت تبرز فيه قطعة معدنية دائرية الشكل كلما وجهنا أضواء مصابيحنا إليها، كانت باللون الفضي وكأنها مصنوعة من الفضة، اقترب مراد نحو الباب وصار يوجه ضوء مصباحه لتلك الرسومات المنقوشة عليه

فلربما وجد رمزًا أو تعويذة يمكنانه من فتحه، فتح حقيبته وأخرج كتاب ترجمة الهيروغليفية وصار يبحث فيه عن الحروف والرموز المنقوشة على الباب، بعد بحث طويل يئس مراد فجلس على الأرض مُحَبِّطًا، تسلمت إيمان مكانه وصارت هي الأخرى توجه ضوء مصباحها للرسوم المنقوشة على الباب، سلطت ضوء المصباح أعلى الباب فطار نحوها خفاش وفر من أمامها كالبرق، صرخت إيمان وقالت بحق:

- يبدو أن تلك الخفافيش اللعينة لا ترى أحدًا سواي هنا.

كان مراد يجلس ويمسك في يده قارورة مياه، سقطت من يده قارورة المياه من شدة الضحك، ضحكت أنا كذلك حين قالت إيمان كلماتها تلك، اقتربت للباب وأمعنت النظر للرسومات وللقطعة الفضية التي كانت مثبتة في منتصفه، وضعت يدي عليها فصرخت صرخة عالية ووضعت يدي على بطني من شدة الألم، اقتربت إليّ إيمان وسألتنى بقلق:

- ما الأمر يا فارس؟

أطبقت شفتيّ متألماً وقلت لها بصوت متحشرج:

- الشامة.

رفعت حاجبها بتعجب فسألتنى بشغف:

- الشامة تؤلمك؟

هزرت لها رأسي فاقتربت إليّ مراد وقال:

- لعل الباب يُفتح بواسطتها يا فارس.

عقدت حاجبي فتذكرت باب السرداب الذي فُتح بواسطة شامتي في وادي الرذاذ، نزعت الحقيبة من خلف ظهري ثم نزعت ملابسي وصرت عاري الصدر، اقتربت للباب فوضعت كف يدي اليمنى على القطعة المعدنية فشعرت حينها بألم شديد أصاب الشامة، فجأة صدر صوت صرير الباب وهو يُفتح، بعد لحظات فُتح الباب فباغتتنا الخفافيش وهي تُمطر علينا من خلف الباب، وضعنا أيادينا على وجوهنا وجثونا على الأرض من هول الموقف الحاصل ومن كثرة الخفافيش التي كانت تصطدم بنا من كل صوب، بعد لحظات توقفت الخفافيش عن المرور من الباب فهرعنا مسرعين ومررنا من الباب ثم عاد الباب وأُغلق كما كان، كان سقف السرداب بعد مرورنا أعلى من ذي قبل وأكثر اتساعًا، وكان أيضًا شديد الظلام، لا متاهات، لا شوارع جانبية، الطريق أمامنا شبه مستقيم، ولكنه مُظلم وموحش، كنا نسير يوميًا مدة عشر ساعات متواصلة دون توقف.

«إيزادورا»

لولا عناء المسافات ما كنا لنشعر بلذة الوصول، ولولا الظلام ما كنا نجتهد لنبصر النور.....

ظلام دامس، ورؤية شبه معدومة لولا تلك المصابيح التي كانت بحوزتنا، ولولا الساعات التي كنا نلبسها ما كنا لنعرف الليل من النهار، وما كنا لنعرف في أي وقت نحن من اليوم، وما كنا لنعرف أنه قد مر على مسيرنا حتى اليوم داخل ذلك السرداب مدة خمسة عشر يومًا، ما يميز ذلك السرداب هو أنه تم بناؤه بأيادٍ خبيرة، لم نجد مشكلة في التنفس داخله، بدا وكأنه مصمم بفتحات تهوية خفية وغير مرئية، بدأ التعب والنصب يأخذان مأخذهما مِنَّا، وأوشكت أحذيتنا على أن تُبلى، خمسة عشر يومًا من المشي داخل سرداب لا نهاية له، شعرنا باليأس الشديد وخيبة الأمل، كانت ساعاتنا تشير إلى الثامنة مساءً، توقفنا عن السير وأخرج كل منا طعامه وماءه، وما هي إلا لحظات حتى أدركتنا أول سنة من النوم فنمنا وتمددت أجسادنا المتضعضة على الأرض وكأننا لم نذق النوم منذ سنوات بسبب التعب الشديد الذي كنا نشعر به، كانت أجسادنا تؤلمنا بشدة وكذلك أقدامنا، تمددنا على أرضية السرداب مستسلمين للنوم كجثث هامة دون حركة أو نأمة....

وجه جميل رقيق السميت، عينان ساحرتان وكأنّ قمرين قد احتلاه، ابتسامة لطيفة ويدّ ناعمة لامست يدي، شعرت وكأنّ القمر قد دخل للسرداب، لم أرَ جمالاً كهذا من قبل، لا أدري هل كنت نائماً أم مستيقظاً، كانت فتاة جميلة جداً حد الجنون، أمسكت بيدي وساعدتني على النهوض، سرنا سوياً لغرفة قريبة من مكان نومي داخل السرداب، كانت الغرفة صغيرة ولها باب صخري صغير، وضعت يدها على باهما الصغير ففتّح، برق داخل الغرفة قناعٌ ذهبيٌّ بديع الشكل، حملته بيديها وقدمته لي وهي تجثو على ركبتيها وأطرقت رأسها إلى الأرض إطرأً خفيماً، وقفت أنظر إليها تارة وإلى القناع في يدها تارة أخرى ولا أفعل شيئاً، رفعت رأسها نحوي فابتسمت ابتسامة هادئة فنطقت قائلة:

- هذه هدية إيزادورا، هذا القناع من أجل المهمات.

أخذت منها القناع وأخذت أقلب النظر فيه وإلى جمال هيئته، اقتربت به نحو وجهي لألبسه فأشارت إليّ بيدها بالأفعل، غضنت حاجبي متعجباً فهزت لي رأسها وتابعت:

- هذا من أجل المهمات فقط، لا تُفرط فيه.....

أيقظتنا إيمان في السادسة صباحاً، قامت بتثبيت بعض المصابيح على جدران السرداب وأعدت لنا الطعام، تذكرت الحلم الذي رأيته، كنت أتساءل في سريرة نفسي قائلاً: من تلك الفتاة يا تُرى؟ وما هذا القناع؟ تذكرت الغرفة الصغيرة التي اصطحبتني إليها، فهضت من مكاني مسرعاً وأنا أحمل المصباح وأنوي الذهاب للمكان

الذي رأته في حلمي، فتناهى إلى مسامعي صوت شيء ما يرتطم بأرضية السرداب الصخرية، كان مراد يجلس بجانبى فسلط ضوء مصباحه سريعاً نحو هذا الشيء وكذلك فعلت أنا، اقتربت إليه فحملته من على الأرض فشردت هنيئة ثم ابتسمت، اقتربت إلي إيمان فسألني قائلة:

- ما هذا القناع يا فارس؟ وكيف جاء إليك؟

نظرت لإيمان ومراد ثم قلت:

- لقد جاءتني إيزادورا في حلمي وأعطتني هذا القناع وأخبرتني أن هذا القناع من أجل المهمات، يبدو أننا قد اقتربنا يا رفاق.....

«وان تكوفي»

لقد طال المسير، وطال العذاب والتعب، تقطعت أحذيتنا من تأثير أرضية السرداب الصلبة، جروح كثيرة في أقدامنا، ذبلت ملامحنا وتوشك أجسادنا هي الأخرى أن تذبل، مرت تسعة وعشرون يومًا ونحن نسير في ذلك السرداب الموحش، لا شيء فيه يبعث إلينا الأمل، صخور ثم صخور وظلام ثم ظلام ولا شيء يتغير، كنت أنظر لإيمان بعين الشفقة، لقد نال منها الجهد ما ناله، كانت قوية صامدة لا تشكو حزنًا أو كمدًا، لكنها أختي، أعرفها أكثر مما أعرف نفسي وأشعر بها أكثر مما أشعر بنفسي، كنت أحفزهما في كل يوم لثلاثيأسًا، أما اليوم فقد يئست كما يئس، وتعبت كما تعب، وفقدت الأمل كما فقده، جثوت على ركبتي يائسًا ورفعت يديّ إلى أعلى وصرخت بأعلى صوتي قائلاً:

- ما هذا العذاب؟ لماذا لم يكن الدخول سلسًا مثل دخولي الأول؟ لماذا نسير كل تلك المدة بكل هذا التعب؟

اقترب إليّ مراد فجلس بجانبني وأمسكني من يدي فضغط عليهما بقوة وقال بنبرة حازمة:

- لا ينبغي أن يكون اليأس من شيمتك يا فارس، إن ما تلقاه هنا في هذا السرداب الموحش لا يساوي شيئًا مما ستلقاه في أوناسيو، ولربما هذا اختبار لك، لتعرف أن المهمة القادمة لن تكون سهلة.

احتبست الدموع في عيني وهي تتبادر إلى السقوط، نظرت نحو
إيمان ثم عدت ونظرت إليه وقلت بصوت خفيض:

- أنا لا أخشى نفسي يا مراد، انظر لإيمان وإلى حال قدميها،
يسيل الدم منهما كالنهر، أنسيت أننا نحن البشرين نتنفس في
أوناسيو بواسطة دماننا؟
صمتُ هنيئة فأردفت:

- وانظر إلى قدميك، وإلى قدمي أيضًا، سنختنق ونموت قبل
تبدأ مهمتنا، ولو فكرنا في العودة من حيث أتينا سنموت أيضًا قبل
أن نعود، فأني مصير هذا الذي لا نهنا فيه بمسير أو بتوقف؟ نقف في
المنتصف حائرين ملتاعين، لا يسرنا الذهاب ولا تسرنا العودة ولا
ينقذنا التوقف.

أغمض مراد عينيه فتهد وقال:

- لا نعود يا فارس، لو دخلنا أوناسيو بحالنا هذه واختنقنا
فلقد فعلنا ما بوسعنا، أما العودة فهي الجبن، وكأنه الفرار من
العدو، فليكن موتنا يا فارس ولا يقال إننا فررنا كالجبناء.

نهض مراد فأمسك بيدي وساعدني على النهوض وعدنا
لمواصلة سيرنا....

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً حين توقفنا وقمنا
بتجهيز مبيتنا، قمنا بتثبيت بعض المصابيح على الجدران وجلسنا
نأكل ونتسامر ونقص على بعضنا القصص لننسى آلام أجسادنا

ولننسى همومنا، تناهى إلى أسمعنا صوت شيء يرتطم بأرضية السرداب بقوة شديدة، صرنا ننظر لبعضنا البعض بتعجب وذهول شديدين، سمعنا صوتًا لشخص يتأوه ويئن من شدة الألم، كان الصوت قريبًا مِنَّا، حمل كل منا مصباحه وصرنا بخطوات مختلصة نحو مصدر الصوت، حين وصلنا عنده قمنا بتسليط المصابيح إليه فأوجس مِنَّا خيفة، كان يستعيز بالله من الشيطان في قرارة نفسه حين رأنا، وكذلك كنا نفعل نحن في سريرة أنفسنا، كان فتى في الرابعة والعشرين من عمره، طويل القامة قوي البنيان وأسمر البشرة بشعرٍ أسود متوسط الطول، أصيب بجرح غائر في ساقه من تأثير السقوط، كان يضع يده على جرحه ويئن من شدة الألم، اقترب إليه مراد بحذروسأله بفضول شديد:

- مَنْ أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟

كان مراد يقلب طرفيه في سقف السرداب في كل مكان، عاد فنظر إليه وسأله مستفسرًا:

- من أين سقطت أنت؟

- كان الفتى يعرض على شفتيه من شدة الألم، نظر إلى مراد وقال له بصوت واهن:

- ثمة سرداب هنا يُفتح مرة واحدة في كل شهر حين يكتمل القمر، كنت أراقبه منذ سنوات، لا أحد يعرفه غيري.

- ولماذا دخلته اليوم؟

- حين فُتح الليلة اقتربت إليه كعادتي في كل شهر، ولكن اليوم سقط مني شيء ثمين بالنسبة لي داخل السرداب، فقفزت خلفه لأستعيده ولكنني فوجئت بأن السرداب قد أُغلق.

- وما هذا الشيء الذي تخاطر بحياتك من أجله؟

رفع الفتى يده اليمنى من على الأرض ثم فتح كف يده فظهرت قلادة زرقاء اللون ودائرية الشكل ومرصعة بالأحجار الكريمة والنادرة، اقترب بها نحو فمه فلثمها وذهب بها نحو صدره فوضعها على قلبه ثم ترقرقت الدموع في عينيه وقال بنبرة يشوبها حزن شديد:

- تلك قلادة أمي، لقد فقدت أبي وأمي في ليلة واحدة، اختفيا فجأة ولم يستدل عليهما حتى يومنا هذا، كان عمري حينها ثلاث سنوات، هكذا أخبرتني السيدة سمية التي تكفلت برعايتي من بعدهما، وأخبرتني أن تلك القلادة قد تركتها لي أمي قبل رحيلها.

غضن مراد جبينه فسأله:

أين اختفيا؟

- لا أعرف، لا أحد يعرف على الإطلاق.

اقتربت إيمان إليه وصارت تضمد جرحه ثم قامت بربطه بواسطة قطعة من القماش ومراد ما زال يجلس بجانبه، نظر إليّ مراد نظرات تعجب لأنني كنت لا أزال واقفًا في مكاني ولم أقرب لذلك الفتى ولم أحدثه، عقد مراد حاجبيه فهزلي رأسه مستفسرًا فقلت له بصوت خافت:

- ألا ترافقني يا مراد لأجلب شيئاً من حقيقتي؟
- نظرت إليّ إيمان بذهول شديد، فتلك أول مرة أطلب فيها من أحد أن يرافقني، بينما فطن مراد لخطتي فنهض وسار معي بعيداً عنهما، لم ينتظرني مراد لأتحدث، سألني بفضول شديد:
- ما الأمر يا فارس؟
- أتعلم من هذا يا مراد؟
- عقد مراد حاجبيه متعجباً فأردفت قائلاً:
- هو الحلقة المفقودة، هو رابعنا.
- تعني أن ذلك الشخص ستكون له مهمة مثلنا؟
- هزرت له رأسي فتابع متسائلاً:
- ولكن، لماذا هو؟ ما علاقته بنا وبأوناسيو؟
- لا أدري، ولكنني قد رأيتَه في حلبي.
- اقتربت بفضي إلى أذنه وهمست إليه قائلاً:
- اسمه مختار.
- حين عدنا إليهما اقترب مراد إليه وسأله قائلاً:
- ما اسمك يا صديقي؟
- فأجابه الفتى قائلاً:
- اسمي مختار.

اتسعت حدقة عينيّ مراد فعاد وسأله مجددًا:

- من أي البلاد أنت؟

قطّب الفتى جبينه متعجبًا فأجاب قائلاً:

- أنا من تلك البلد التي نحن فيها الآن، أُلستم منها؟

اخترقت حديثهما حين رأيت علامات التوتر والتردد على وجه مراد، ابتسمت له ابتسامة لطيفة وقلت:

- نعم نحن من هنا، صديقي يمزح فحسب، يظنك أجنبيًا من خارج البلاد.

ضحك مختار بسخرية فقال:

- لقد وصل بنا الأمر أن نطلق على أنفسنا نحن العرب كلمة أجنبي، نتحدث بلسان واحد وديننا واحد وعاداتنا وتقاليدينا تكاد تكون متشابهة، ثم نطلق على إخوتنا الذين تمنعهم عنا حدود لعينة لقب أجنبي.

ران عليه صمت خفيف ثم نظر إليّ وسألني:

- وأنتم، ما سبب دخولكم ذلك السرداب؟

- نحن ندرس في كلية الآثار، ودخلنا هنا في مهمة استكشافية.

هز رأسه برفق ثم سألني مجددًا:

من أي المدن أنتم بليبيا؟

اتسعت حدقة عيني ذهوياً فنظرت لإيمان ولمراد فوجدتهما
يفغران فاههما دهشة وذهوياً.

سيطر الصمت على وجوهنا، كنت أبتلع ريتي بصعوبة شديدة
من هول ما سمعت، استعدت رباطة جأشي وقلت له بنبرة يشوبها
تعجب شديد:

- لييبيا؟ أتقول لييبيا؟

ابتسم ابتسامة هادئة فقال:

- إذًا فقد صح ظني، لقد ظننت منذ الوهلة الأولى أنكم لستم
من بلدي.

- لقد صح ظنك، نحن من مصر، وقد جئنا لنكتشف هذا
السرداب.

- هل تعرفون مخرجاً لنا؟

- نعم، هناك مخرج لنا جهة الغرب، علينا بالمسير باتجاهه قبل
أن يختفي القمر.

قمنا بمساعدته على النهوض فأتكأ على مراد وبدأنا بالسير نحو
الغرب، كانت إيمان تستند عليّ وتقاوم جراح قدميها بصعوبة، فجأة
وجدنا مصابيحنا قد انطفأت! انتابنا قلق شديد حينها فرجعنا
للخلف خطوة واحدة فعادت المصابيح لتضيء مرة أخرى، تقدمت
خطوة للأمام فانطفأ المصباح الذي أحمله، عدت للخلف مرة أخرى
فأضاء، غضن مختار حاجبيه فقال متعجباً:

- ماذا يعني هذا؟

ابتسمت وقلت:

- هذا يعني أننا قد دخلنا حدود أوناسيو، التكنولوجيا داخله لا تعمل، لا مصابيح ولا هواتف ولا ساعات، لا شيء حديث يعمل بداخله.

رفع حاجبيه بازدياء وقال:

- ما هو أوناسيو؟

زمت شفتيّ وقلت:

- هو اسم السرداب الذي سنخرج منه.

قمت بفتح حقيبتي فأخرجت منها كل المصابيح التي أحملها بداخلها وطلبت من إيمان ومراد أن يفعلوا نفس الأمر، فلسنا بحاجة لتلك المصابيح، ستكون عبئاً علينا فقط، فتح كل منا حقيبته وبدأنا بالتخلص من المصابيح وبعض الأشياء الثقيلة وغير المهمة التي كنا نحملها ونستخدمها في السرداب، كان يقف بجوارنا مختار ويراقبنا وهو يزم شفتيه بتعجب وذهول شديدين، سقطت مني الورقة التي كنا نحاول فك طلاسم الرمز فيها، فالتقطتها مختار وقرأ ما فيها فضحك ضحكة صاحبة وقال ساخراً:

- تلك الورقة أثبتت أنكم لستم من ليبيا.

نظرنا إليه بتعجب فأردف ضاحكاً:

- ما تلك المحاولات الفاشلة؟ الحروف واضحة أمامكم، ولو كنتم تدرسون في كلية الآثار كما تزعمون لعرفتكم الكلمة من الوهلة الأولى.

فقام بترديد الحروف بصوت جهوري، وان ت ك و ف ي، عاد فضحك بهستيرية وتابع:

- تلك الكلمة هي «وان تكوفي» أيها البُلَى.

اقتربت إليه وسألته بفضول شديد:

- وماذا تعني تلك الكلمة؟

- هي كلمة في لغة الطوارق، وتعني باللغة العربية «وادي الكواكب»

- ما هو وادي الكواكب هذا؟

- هو وادي مشهور بليبيا.

- وأين هذا الوادي؟

ضحك بسخرية فقال:

- نحن الآن أسفله، وادي الكواكب هو جنة ليبيا، وادٍ تتشكل صخوره وتتخذ هيئة الكواكب، ويطلق عليها الصخور الحية.

- وهذا السرداب الذي سقطت منه؟

- هو موجود خلف صخرة كبيرة في وادي الكواكب وتتخذ الصخرة شكل كوكب.

كانت علامات التعجب والدهشة تسيطر علينا جميعاً حين سمعنا كلام مختار، دارت في رأسي كثير من التساؤلات، إن كان مدخل أوناسيو في وادي الكواكب بليبيا، فلماذا تم توجيهنا لنمشي سيراً على أقدامنا كل تلك المسافة قادمين من مصر؟

حملنا حقائبنا خلف أظهرنا، أمسكنا بأيدي بعضنا البعض، طلبت من الجميع التثبيت بي قدر الإمكان، دخلنا في الظلام الدامس، لم نكن نرى شيئاً على الإطلاق، كنا نسمع خطوات أقدامنا فقط وهي تصطدم بالأرض، شعرنا وكأننا أصبنا بالعمى المؤقت، بعد هنية من الوقت هوت أقدامنا فسقطنا إلى الأسفل بسرعة شديدة اختلجت على إثرها قلوبنا، وما هي إلا لحظات قليلة حتى وجدنا أنفسنا نسقط داخل بحر عميق مضطربة أمواجه وتبدد الظلام واحتل النهار المكان فجأة، حملتنا الأمواج بسرعة شديدة نحو الشاطئ، هرعنا إلى اليابسة بسرعة جنونية، وجدنا مختاراً أكثرنا سرعة وسبقنا جميعاً، كنت أنظر إليه بتعجب وذهول شديدين وأنا أتساءل في سيرة نفسي: هل هول الموقف أنساه جرح قدمه؟

عدت فنظرت لإيمان فوجدتها تجري نحو اليابسة وكأن قدميها قد أبلت من جراحها، وكذلك خرج مراد والتحق بهما وهو يسير على قدميه بسلاسة ويُسِر، أدركت حينها أن ثمة شيئاً ما قد حدث لجراحنا، نظرت لقدمي فلم أجد أي أثر لجراحي القديمة، خرجت من الماء وانضمت إليهم فباغتني مراد قائلاً:

- يبدو أن دماءنا قد تجددت بمجرد دخولنا الكوكب هنا يا فارس.

هزرت له رأسي مبتسمًا فاقرب مختار نحو مراد وسأله متعجبًا:

- ماذا قلت؟ أحقًا ما قتلته هذا أم أنك تمزح؟ تقول كوكبًا؟

سيطر الصمت على وجه مراد ولم يرد عليه، عاد فسأله مجددًا بنبرة صارخة:

- ألا تجيبني على سؤالي؟

نظر إليّ مراد نظرة هادئة ولم ينبس ببنت شفة وكأنه ينتظرني أن أجيبه، اقرب مختار إليّ فضيَّق عينيه وقال:

- نعم، أظن أنك قائدهما، هيا، قل لي أين نحن الآن وكيف انتقلنا بتلك السرعة لجزيرة نائية يحدها البحر من كل الاتجاهات؟ وكيف تبدد الظلام فجأة وصرنا بالنهار؟

مشيت نحو صخرة صغيرة كانت موجودة بالمكان فجلست عليها فتزعت الحقيبة من خلف ظهري وبدأت أعصر الماء منها ومن ملابسني ودخلت في صمت مطبق، اقرب إليّ فعقد حاجبيه وأردف قائلاً:

- ماذا يعني سكوتك هذا؟

أطلقت تنهيدة طويلة ثم نهضت من مكاني وقلت له بصوت خافت:

- نحن الآن داخل أوناسيو.

- أعرف هذا الاسم اللعين، ولكن السؤال الأهم هو أين يقع هذا المكان في العالم وما سبب تواجدي معكم؟

- أوناسيو هو كوكب آخر بعيد عن الأرض، وأنت الآن في مهمة، وستحملنا النسور قريبًا لبدء مهمتنا.

اشتاط مختار حينها غضبًا وصرخ قائلاً:

- أنتم مجموعة من السحرة، لقد خدعتموني وجلبتموني معكم من أجل ممارسة سحركم.

- اهدأ يا مختار، لسنا سحرة، ولم نجلبك معنا من تلقاء أنفسنا، لقد اختارتك النسور لتنفيذ مهمة.

- وما علاقتي بهذا الكوكب اللعين لتختارني؟

- لا أعرف.

- فما تلك المهمة إذًا؟

- أيضًا لا أعرف.

زفر مختار بغضب وقال بنبرة صارخة:

- أفكلما سألتك تجيبني بلا أعرف! وتريدني أن أصدقك أيها الأحمق؟ ومن أنت حتى تقرر مصائرنا وتُملي علينا مهمات لعينة، هل أنت صاحب الكوكب؟ هل أنت رئيسه؟ ألا كنت بقيت في بلدك بعيدًا عن هذا الأمر ورحمت نفسك ورحمت هذين اللذين معك ورحمتني معكم من هذا الهراء الذي تدّعيه؟

قاطعه مراد وقال بنبرة صارمة:

- فارس هو الملك الشرعي للكوكب، وهو يمتلك الدم النبيل
ويمتلك قوى خارقة هنا.

ضحك حينها مختار ملء شذقيه وكاد يسقط على الأرض من
شدة الضحك، توقف عن الضحك فنظر إليّ وقال بحنق:

- إن كنت تمتلك قوى خارقة هنا فأرني إياها، أم ستقول لي لا
أعرف؟

مشيت نحو صخرة كبيرة الحجم كانت بجوار الشاطئ، وضعت
يدي اليمنى عليها فدفعتها بيدٍ واحدة دفعة قوية فتطايرت نحو البحر
وتفتت داخله.

فغر مختار فاهُ ثم ابتسم بسخرية وقال:

- لقد أثبت لي الآن أنك ساحر.

اقتربت إليه فوضعت يدي على كتفه وقلت له بصوت هادي:

- لو كنت في نفس موقفك يا مختار ما كنت لأصدق هذا،
صدقني، كل ما أخبرناك به هو صحيح، لقد دخلنا هنا منذ ستة
شهور، تفاجأت بأن أبي قد قُتل هنا، فقامت بتحرير أمي وأختي
فقُتلت أمي وقتل أناس آخرون من أجل إعلاء كلمة الحق وردع
الظالمين، نحن هنا نتنفس بواسطة دماننا، أصيبت أختي وكادت
تموت فعدت بها إلى الأرض لأنقذها أولاً، ثم قررت العودة إلى هنا مرة
أخرى للانتقام وهو ما حدث اليوم.

بدأ الهدوء يظهر على وجه مختار بعد سماع كلماتي، مشى نحو صخرة صغيرة فجلس عليها ووضع رأسه بين كفيه وأطرق رأسه إلى الأرض فأطلق تنهيدة طويلة وقال بنبرة هادئة:

- لا أعرف ماذا أفعل، تلك أول مرة أتعرض فيها لموقف كهذا، وكأنني في حلم، ما يحدث هذا لا يصدقه عقل، شاهدته في الأفلام الخيالية فقط، لا أعرف كيف أتصرف، أشعر أنني مشتت الذهن وحائر الفكر لا أهتدي لرأي.

اقتربت إليه فجلست بجانبه فقلت له بصوت خافت:

- لقد رأيتك في حلمي قبل أن ألتقي بك يا مختار، وعرفت اسمك قبل أن تخبرنا به أنت، صدقني، أنا لا أعرف ما علاقتك بتلك المهمات، ولا أعرف سبب وجودك معنا، كل ما أعرفه هو أن النسور قد اختارتك معنا لتنفيذ مهمة لا نعرف الغرض منها ولا نعرف أيضًا سببها ولا مصيرها.

نظر إليّ ثم أطبق شفتيه فعاد وأطرق رأسه إطرًا طويلًا لا يتخلله حركة أو نأمة، بعد هنيهة من الوقت رفع رأسه فقال والدموع تترقق في عينيه:

- حين كنت أمام السرداب شعرت بأن أمتي تنتظرني بداخله، لا أعرف كيف سقطت مني تلك القلادة، لقد كنت أضعها في جيبي بإحكام، ولكن ما أغضبني هو أنك لم تخبرني بحقيقة الأمر قبل دخولنا هنا، فلو كنت أخبرتي لهان الأمر عليّ، وما كنت لأشعر بالخيانة والغدر، ربما كنت سأوافق على الدخول معكم لو أخبرتي

بالحقيقة، فأنا لا أعلم هل كنت سأبقى على قيد الحياة حين يُفتح
السرّاب أم لا، وأيضًا لا أعلم هل كان سيسمعني أحد وينقذني لو
فُتح أم لا.

تهتدت وقلت له:

- خشيت إن أخبرتك سترفض الدخول معنا، فحينها ما كنا
نستطيع الدخول دونك، مهماتنا لن تكتمل دونك يا مختار.

وضعت يدي على يده وضغطتها برفق وتابعت:

- هيا، كن مستعدًا حين تحملنا النسور.

غضن حاجبيه وسألني:

- ما أصل تلك النسور؟

- أخشى أن أقول لك لا أعرف فتغضب مني.

أصبنا جميعًا بنوبة ضحك هستيرية ودمعت أعيننا من شدة
الضحك، فجأة صدرت أصوات صفير النسور فرأينا السماء قد
ارفضت عن غيوثها المنهلة وامتألت بالنسور، حمل كل منا حقيبته
خلف ظهره فأسرعت متجهًا نحو إيمان فاحتضنتها ووضعت وجهها
بين كفيّ وقلت لها بنبرة حازمة:

- انتبهني لنفسك جيدًا يا إيمان، اعلمي أنك قوية بنفسك،

استعيني بالله أولًا ثم بقوة قلبك وبعقلك الرزين ستجتازين كل
الصعاب.

سقطت من عينها بعض الدموع وقالت بصوت متحشرج:

- وأنت أيضًا، انتبه لنفسك جيدًا يا فارس، سأفتقدك كثيرًا.

فجأة وجدنا النسور تهوي علينا وتختطفنا الواحد تلو الآخر إلا

مختارًا!

لم تحمله النسور مثلما فعلت معنا، انطلق بي النسور الذي كان يحملني باتجاه الشرق، واتجه النسور الذي يحمل إيمان باتجاه الشمال، واتجه النسور الذي يحمل مراد باتجاه الغرب، كنت أنظر للأسفل إلى مختار فوجدته يدور حول نفسه حائرًا ملتاغًا وهو يراقبنا بنظرات حائرة والقلق يسيطر عليه، كان يصرخ بأعلى صوته بكل غضب، نظر إليّ فقال صارخًا :

- لقد خدعتني ثانية أيها اللعين، ألم تقل لي إنّ النسور ستحملني مثلكم، والله، لو ظفرت بك سأقتلك.

ظللت أراقبه بعين التعجب حتى ابتعد النسور عنه واختفى عن أنظارني.....

«فارس»

بين الأزرقين؛ السماء والبحر، كان النسرين يحكم قبضته عليّ بواسطة مخالبه القوية، كان يحلق بي فوق بحر الغياهب وأمواجه تضطرب ببعضها البعض اضطراباً شديداً، ظننت أن هذا البحر لا آخر له ولن ينتهي، كان النسرين يحملني ويحتاط بنا مجموعة كبيرة من النسور وهي ترافقنا لحمايتنا، كانت تتصدى مراراً لمحاولات هجومية متكررة من طيور الأبيس السوداء، كانت النسور تريح تلك المعارك بأقل مجهود، شعرت حينها وكأن طائرة حربية تحملني لا نسرًا، بعد وقت طويل استطعنا بلوغ البحر فترأى إلى أنظاري مملكة «الغوائل» بأسوارها العالية والبحر يحدها من الثلاث جهات، أبصرتها من أعلى فوجدت بابها مفتوحاً على مصراعيه وكانت المملكة بالداخل خاوية على عروشها وكأن كل من فيها قد قُتلوا!

مررنا بعدها على جبال «المنيف» فتجاوزناهم وصولاً إلى مملكة «الجواسيس»، لم يتوقف النسرين وواصل التحليق بي نحو الشرق، وددت لو أن أحدثه لأخبره بأنني أود النزول هنا في مملكة الجواسيس حيث نيشيا وسراج وبقية الرفاق، ولكنني تذكرت أنني في مهمة هنا، وأدركت أن تلك النسور تعرف وجهتها جيداً ولن تكترث لتوجهاتي إن وجهتها أولكلامي إن حدثتها.

كان الهدوء يخيّم على كل بقعة مررنا من فوقها، أدركت أن ثمة شيء ما قد حدث، ذلك الهدوء الذي يسيطر على كل مكان هنا لا يبشر بخير، مررنا من فوق وادي الرذاذ وقد كان يعج بالحياة والنشاط، رأيت سكان الوادي يمارسون أعمالهم في الأراضي الزراعية بشكل طبيعي، كان المكان الوحيد الذي رأيت الحياة تُمارس فيه بشكل عادي وهذا ما أثار قلقي، فوادي الرذاذ تم إخفاؤه من قبل أبي بواسطة الكتاب ليصبح غير مرئي للجميع هنا ولن يتمكن من رؤيته سوى قاطنيه وأنا وإيمان فقط، كان النسريطيري نحو الشرق بسرعة مهيبة وجنونية حتى وصلنا لجبال الأضاخر، فوجدته يخفض من سرعته شيئاً فشيئاً حتى اقترب لأحد الجبال فهبط بي فوق قمة جبل ثم استقر ومَن معه على قمة الجبل.

كنت أدور حول نفسي في كل اتجاه حائرًا ملتاغًا، كان صوت صفير النسور عاليًا ويتردد صدهاء في كل الأرجاء، بدأت في النزول من على قمة الجبل لئلا تتنبه لوجودي طيور الأبيس، كان طريق النزول وعزًا، تساءلت في قرارة نفسي وقلت محدثًا نفسي بصوت جهوري: لماذا ذلك النسر تركني فوق الجبل؟ لماذا لم يتركني أسفله؟ عدت فأجبت نفسي قائلاً: لعله فعل ذلك متعمدًا لحكمة يعلمها هو ولا أعلمها أنا، أو ربما أراد أن يلفت انتباهي لشيء ما بالجبل هنا!

واصلت نزولي من على قمة الجبل ببطء شديد وصرت أمعن النظر في كل بقعة تقابلني بالجبل، سرقت نظري صخرة ملفتة، كانت مستطيلة الشكل ومتوسطة الحجم وكان لونها مختلفًا عن باقي

صخور الجبل، أدركت أنها صخرة دخيلة على الجبل وأنها ربما قد جليها أحدهم ليخبي أسفلها شيئاً ما، نزعت حقيبتي من خلف ظهري ووضعتها بجانب الصخرة، وضعت يدي على الصخرة في محاولة مني لأقوم بتحريكها، شعرت فجأة بألم شديد أصاب الشامة البيضاء المتواجدة أعلى سُرّتي بمجرد لمسي للصخرة، أيقنت حينها أن تلك الصخرة يتواجد أسفلها شيء ما ذو قيمة كبيرة، فتلك الشامة لا تؤلمني إلا لأمرٍ جلل، قمت برفع الصخرة إلى أعلى قليلاً فظهر أسفلها صندوقٌ خشبيٌّ كان مستطيل الشكل، وكان محفوراً له مخبأً سرّيٌّ بقلب الصخرة بنفس حجم الصندوق، انتزعت الصندوق من قلب الصخرة وأعدت الصخرة إلى مكانها حيث كانت، فتحت الصندوق فظهر لي سيف من الحديد النيزكي بمقبص صخري وكان مقبضه مرصعاً بأحجار كريمة بديعة ونادرة، حملت السيف بيدي وصرت أتأمله وأتأمل هيئته الساحرة، أمسكته بيدي اليمني وأحكمت قبضتي عليه ورفعت يدي عاليًا فتفاجأت به يلتصق بيدي التصاقاً شديداً، حاولت نزعه من يدي بكل قوتي فلم أستطع، تسارعت ضربات قلبي وشعرت بأن قلبي سيخرج من بين أضلعي من هول ما يحدث، ظننت أن السيف قد التصق بيدي التصاقاً أبدياً، صرت أحاول نزعه مراراً وتكراراً ولكن دون جدوى، أخفضت يدي إلى أسفل فوجدت السيف قد سقط من يدي، حملته من على الأرض فأحكمت قبضتي عليه مرة أخرى وأنا أرفع يدي إلى أعلى فعاد والتصق بيدي مرة أخرى، أخفضت يدي إلى أسفل فكاد السيف أن يسقط مني ثانية ولكنني لحقت به وسيطرت عليه قبل أن يسقط، أصبحت أكرر الأمر مرات

عدة، كنت كطفل قد حظي بلعبة جديدة وعرف طريقة استخدامها، كان السيف يشبه إلى حد قريب الخنجر ولكنه أطول منه، ويشبه السيف ولكنه أقصر منه.

حملت حقيبتي والسيف وأكملت نزولي من الجبل، كنت أجوب بعيني في كل الأرجاء، لا حياة هنا، مجموعة جبال مليئة بالمغارات والكهوف، كنت أتساءل في سريرة نفسي وأقول: ترى لماذا جلبتني النسور إلى هنا؟ ولماذا لم تحمل النسور مختارًا كما حملتنا؟ أليس في مهمة مثلنا؟ فلماذا بقي إذًا على تلك الجزيرة؟

نزلت من الجبل ووقفت أسفله، كنت أدور حول نفسي حائرًا، لا أعرف إلى أين أذهب، ولا أعرف سبب وجودي هنا، كانت النسور تطوف حول الجبال في جماعات وتملاً صفحة السماء وتكاد تُحجب ضوء الشمس من كثرتها، كان صغيرها مجلجلاً ومهيّباً، بضربة واحدة بجناحها كانت تقضي على خصمها من الطيور الأخرى بكل سهولة في الحروب الدائرة بينهم في الجو، كانت تدور بينهم معارك طاحنة مع طيور الأبيس والصقور والخفافيش وغيرهم من الطيور، كانت النسور متفوقة على الجميع وتحكم قبضتها على الجو.

جلست أسفل الجبل أتابع تلك المعارك بشغف وفضول شديدين، فتحت حقيبتي فأخرجت قطعة من الخبز وقارورة مياه وشرعت أكل، توقفت عن الأكل حين تذكرت مختارًا، لا يحمل حقيبة مثلنا، ولا يوجد معه طعام أو مياه، ترى كيف يعيش الآن؟

فجأة وجدت حقيقتي تهتز اهتزازًا شديدًا، انتابني الرعب حينها
فنهضت وابتعدت عن الحقيبة، ظلت الحقيبة تهتز دون توقف،
ظننت حينها أن ثمة ثعبانًا أو جرذًا أو ما شابه قد احتل حقيقتي،
سيطرت على خوفي واقتربت للحقيبة ببطء وحذر شديدين، صرت
أحرك الحقيبة ليخرج ما كان قابعًا بداخلها، ولكن الحقيبة ما زالت
تهتز دون توقف، اقتربت للحقيبة أكثر من ذي قبل ففتحتها بحذر
فوجدت القناع الذهبي يهتز بداخلها، قطبت جبيني متعجبًا وقلت في
قرارة نفسي: هل اهتزاز القناع يدل على شيء ما؟ ربما ذلك، فيزادورا
أخبرتني بأن هذا القناع سأستخدمه في المهمات.

أمسكته سريعًا فوضعتَه على وجهي فوجدته قد التصق
بوجهي بإحكام، شعرت حينها وكأنني في حلم وأخذني القناع إلى حيث
يريد، تراءت إلى أنظاري صورة مختار وهو يجري بأقصى سرعته وكأن
شبحًا يطارده.....

«مختار»

أدركت الآن قيمة القناع وسبب وجوده معي، فما إن وضعت القناع على وجهي والتصق به حتى تراءت إليّ صورة مختار فشعرت وكأنني أرافقه دون أن يراني، كان مختار يركض بأقصى سرعته في غابة تكتظ بأشجارها العالية والكثيفة ومليئة بالبحيرات والجداول، كان يركض بسرعة شديدة وكأن وحشًا مفترسًا يطارده، توقف مختار عن الركض فجلس أسفل شجرة بلوط ضخمة واستند بظهره ورأسه على جذعها الضخم وصار يلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة، وضع يده في جيبه فأخرج منه حبات من ثمار الموز والمانجو وبدأ يأكل بنهم، توقف عن الأكل فجأة وفغرفاهُ دهشةً وذهولًا من هول ما رأى!

نهض من مكانه فوجد مجموعة من القردة يحتاطون به من كل جانب، بدأت القردة تصدر أصواتًا عدائية تجاهه وكأنها تعنفه على سرقة ثمار الموز والمانجو، كان يدور حول نفسه وهو مبتسم، هز رأسه بسخرية وقال:

- كان يُطلق عليّ في ليبيا لقب فهد الصحراء لما كنت أتمتع به من السرعة وخفة الحركة.

فرجع يده عاليًا وهي مكتظة بالثمار فصاحت القردة وأصدرت أصواتًا غريبة بدت وكأنها أصوات استغاثة، فرمى الثمار باتجاهها وتابع ساخرًا:

- أروني كيف تلحق القردة بالفهد.

فبدأ بالركض بسرعة شديدة مبتعداً عن الغابة والقردة من خلفه تلاحقه بأقصى سرعتها، كان يفصل الغابة عن باقي الجزيرة جدول مياه متوسط العرض، كان مختار يركض بأقصى سرعته وهو يراقب ذلك الجدول من بعيد، لقد عبره حين دخل الغابة سيراً على قدميه، اتخذ قراره بسرعة شديدة وهو يركض، قبل أن يصل لذلك الجدول قفز من فوقه قفزة عالية فعبره وتدحرج للجهة الأخرى من الجدول، نظر للقردة من خلفه فوجدها قد توقفت بجانب الجدول وتوقفت عن إصدار أصواتها، ضحك ضحكة عالية وقال بغرور:

- قفزة مثالية، أليس كذلك؟

عاد لضحكه وتابع ساخراً:

- ما أوقفكم؟ ألا تجيدون القفز كالفهود؟

كانت القردة هادئة وساكنة في أماكنها ولا تتحرك، فجأة وجد شيئاً يلتصق بعنقه، التفت للخلف فوجدها فتاة شقراء الشعر بعينين خضراوين ومتوسطة القامة، جال بعينيه من حوله فوجد مجموعة من الحراس بجانب الفتاة وهم يحملون السيوف والدروع، اقترب إليه شابٌ في التاسعة عشرة من عمره ولكنه كان مختلفاً عنهم، فقد كان بشعر أسود طويل ومسترسل على كتفيه وعينين سوداوين واسعتين وحنطي البشرة، صار الشاب يقلب النظر إليه من أعلاه إلى أسفله فضحك بسخرية وقال:

- ما تلك الملابس التي تلبسها أيها الأسمر؟ ألا تراها غريبة
كثيرًا؟

كان مختار يطبق شفثيه ويزفر بقوة، أزاح الشاب سيف الفتاة
عن عنقه فابتسم وتابع:

- الآن يمكنك التحدث.

رفع مختار حاجبيه بسخرية فقال:

- تسألني عن ملابسي وتراها غريبة، ألا ترى أنها أقل غرابة من
ملابسكم الجلدية والمقززة هذه؟

أطبق الشاب شفثيه فتمهد وقال بغضب:

- سأحاسبك لاحقًا على سوء أدبك هذا، والآن أخبرني، من
أنت وما سبب تواجدك هنا ولماذا اخترقت الغابة وسرقت طعام
القردة؟

- ومن أنت حتى تحاسبني على هذا؟

- نحن جنود الملك «أمغناس» وهو حاكم تلك الجزيرة.

أطلق مختار تنهيدة طويلة فقال:

- لقد كنت جائعًا، فدخلت الغابة لأحصل على بعض الطعام
ففوجئت بالقردة تطارني.

اقترب الشاب بفمه إلى أذنه فهمس إليه قائلاً:

- لا تحاول مراوغي، أجب على كل الأسئلة، مَنْ أنت وما سبب تواجدك هنا؟

ران عليه صمت ثقيل ولم ينبس ببنت شفة، اقتربت إليه الفتاة فوضعت السيف على عنقه مجددًا وقالت له بهتيد:

- ملامحك تفضحك أيها الأسمر وتدل على أنك بشري، إن لم نخبرنا مَنْ أنت وما سبب تواجدك هنا سأخذش عنقك بسييفي هذا وأتركك تختنق حتى الموت.

عقد مختار حاجبيه مندهشًا فتابعت الفتاة حديثها وقالت بسخرية:

- أما تعلم أن البشريين يتنفسون على الكوكب هنا بواسطة دمائهم وأنهم لو فقدوا القليل منها يختنقون حتى الموت؟

تذكر مختار حينها كلامي الذي قلته له حين دلفنا للجزيرة، نظر للفتاة فقال بصوت هادئ:

- سأخبركم بحقيقة الأمر، لقد دخلنا هنا بواسطة أحد السرايب المتواجدة بكوكبنا، كنا أربعة أشخاص، أنا وفتيان وفتاة، أخبرني فتى منهم أنه هو الملك الشرعي للكوكب وأن اسمه أوناسيو، وأخبرني أيضًا أننا دخلنا هنا لتنفيذ المهمات التي كلفتنا بها النسور، وأن النسور ستحملنا جميعًا لتبدأ مهماتنا، ولكن النسور حملتهم وحلقت بهم بعيدًا ولم تحملني معهم، فبقيت هنا وحيدًا لا أهتدي

لشيء فقرصني الجوع فتراءت لأنظاري تلك الغابة بأشجارها المثمرة
فدخلتها لأحصل على بعض الثمار.

قهقه الشاب بصوت عالٍ فاقترب نحو مختار وصار يقلب النظر
إليه وقال ساخراً:

- أنت تختارك العقبان لتنفيذ مهمة! لماذا؟ ما الذي يميزك عن
الجميع هنا؟ أم لأنك تمتلك بشرة سمراء؟

غضبت الفتاة من كلماته الساخرة فعنفته بقوة وطالبتة
بالتأني في إصدار حكمه، اقتربت إلى مختار فنظرت إليه نظرة تشي
بالكثير من التساؤلات، ابتلعت ريقها وسألته بفضول شديد:

- ما تلك المهمات؟

- لا أعرف.

- وكيف سنصدقك إذًا؟

رفع مختار حاجبيه في حيرة ولم ينبس بكلمة.

اقترب إليه الشاب فأمر الحراس بتفتيشه، قام الحراس
بتفتيشه جيداً فأخرجوا من جيبه قلادته التي كان يحملها والتي ورثها
من أمه، قام أحد الحراس بتسليم القلادة للشاب فصار يقلب النظر
فيها فابتسم وقال:

- يا لجمالها، إنها تروقني كثيراً، لقد صارت ملكي منذ الآن.

اشتاط مختار غضبًا فهجم عليه كأسد جائع يهجم على فريسته، أسقطه أرضًا ثم انتزع منه القلادة فضمها إلى صدره بقوة واحتضنها، نهض الشاب من الأرض فأخرج سيفه من غمده وأوشك أن يغرزه في بطن مختار لولا أن لحقت به الفتاة وأمسكت يده بقوة وأوقفته، رمقته بنظرات غاضبة وقالت له بغضب شديد:

- لا تنسَ يا «أمناي» أنني المسؤولة عن الحراسة والجيوش بالجزيرة هنا، فإياك أن تتصرف مرة أخرى من تلقاء نفسك.

مشت الفتاة نحو حصانها فركبته وأمرت الحراس بأن يأخذوا مختارًا ليستجوبه الملك أمغناس، سار معهم في الجزيرة وهو ينظر حوله في كل مكان، مروا به أولًا على المنطقة الزراعية في شرق الجزيرة، كان العمال بالأراضي الزراعية ينظرون لمختار وهم مذهولون وعلامات التعجب تملأ وجوههم، سمع أصوات همهمتهم وهم يتساءلون:

- من هذا الأسمر؟ وكيف دخل إلى هنا ولماذا دخل؟

دخلوا به بعد ذلك لمعسكر من البيوت الصغيرة، كانت البيوت صغيرة جدًا وأسقفها كانت مصنوعة من جذوع الأشجار وهي تشبه الأكواخ إلا أنها تكبرها حجمًا، كان يقلب النظر في كل مكان وفي كل بيت، كان الشاب أمناي يرمقه بنظرات غاضبة ولا يرفع عينيه من عليه، كانت نظراته الغاضبة تجاه مختار تشي بكثير من الغضب والحقد، وصلوا به أخيرًا لبيت كان كبيرًا نوعًا ما عن البيوت الأخرى، كان مبنيا بواسطة الأحجار الصغيرة المقطعة من الجبال وكان سقف

البيت مصنوعًا من الخشب المتين، وقفوا جميعًا أمام البيت فأمرت الفتاة الحراس بترك مختار والعودة لأماكنهم، اصطحبته معها لداخل البيت وكان يرافقهما أمني، دخلوا به لساحة كبيرة في قلب البيت وبها كرسي خشبي مهيب، أدرك مختار حينها أنه داخل قصر الحاكم أمغناس، بعد لحظات قليلة أقبل عليهم الحاكم أمغناس بهيئته المهيبة، كان كهلاً نيف على الخمسين من عمره وطويل القامة وضخم الجسد بعينين خضراوين وشعر أشقر يتخلله بعض الشعر الأبيض، مشى نحو كرسيه فجلس وأشار للفتاة برأسه فقال:

- من هذا يا ماسيليا؟

نظر مختار للفتاة حين سمع اسمها فشرد في ملامح وجهها وصار يراقب انطباعات وجهها وهي تتحدث مع الحاكم، لم يستمع ولو لكلمة واحدة من الحديث الذي دار بين الفتاة والحاكم أمغناس، قطعت الفتاة شروده حين رآها تنظر إليه وتعدد حاجبها متعجبة، هز رأسه مستفسرًا فلاحت على شفثها ابتسامة لطيفة وقالت له:

- أيها الأسمر، الحاكم أمغناس يسألك.

نظر مختار للحاكم أمغناس فوجده ينظر إليه بتمعن وهو يقلب النظر فيه من أعلاه إلى أسفله، سأله الحاكم قائلاً:

- ما هي مهمتك إن كنت تصدقنا القول؟

- لا أعرف، كل ما أعرفه أنني في مهمة استغاثة ومن المفترض أن تحملي النور لمهمتي، لا أعلم هل ستحملي لاحقًا أم أن مهمتي ستكون هنا بينكم.

أطلق الحاكم أمغناس تنهيدة طويلة ثم نهض من على كرسيه فمشى بضعة خطوات من أمامهم فتوقف ونظر لمختار فقال:

- لقد علمنا من المعارك الطاحنة التي تدور في جو السماء بين العقبان وبقية الطيور بأن ثمة كارثة توشك أن تحدث أو ربما قد حدثت، ونعلم أن ممالك الشرق هي سبب تلك الكوارث، فهم يمتلكون الكتب والتعاويد ويتفوقون بها علينا، ويمتلكون أيضًا تلك المساحات الشاسعة من الصحراء على عكسنا، فنحن ممالكنها كلها في البحر وعلى الجزر.

غضن مختار جبينه فسأله بشغف:

- أهناك ممالك أخرى في الشرق؟

- نعم يا بني، هم أضعف منّا قوة وبأسًا، ولكنهم يمتلكون الكتب المليئة بالتعاويد الفرعونية القديمة، فيُسَجِّرون بواسطتها الطيور والوحوش وكثيرًا من الحيوانات في محاولة منهم على احتلال كل بقعة في الكوكب، ولكننا ما زلنا في مأمن هنا حتى اليوم.

مشى الحاكم أمغناس نحو كرسيه فجلس عليه فتهد وأنشأ

يقول:

- منذ خمس عشرة سنة كانت العقبان تُلقى الكتب على كل ممالك الغرب في الجُزر الموجودة ببحر الغياهب، كانت كتبًا لتعلم اللغة العربية، أدركنا حينها أن العقبان تطلب منا تعلم تلك اللغة وعلمنا أيضًا أن تلك اللغة ستكون السائدة في كل ممالك الكوكب شرقه وغربه وشماله وجنوبه، فتعلمناها وصارت لغتنا الأولى هنا.

هز الحاكم أمغناس رأسه بهدوء وتابع موجّهًا كلامه لمختار:

- ستبقى معنا هنا وفي ضيافتنا أيها الأسمر لنعلم ما سيحدث لاحقًا، وهل مهمتك ستتم بواسطتنا أم بواسطة أناس آخرين، فنحن نخشى إن طردناك من جزيرتنا تهاجمنا العقبان وتُفسد علينا عيشنا وأمننا....

كان مختار يجلس وحيدًا أسفل شجرة كبيرة من أشجار البلوط وهو يراقب العمال وهم يعملون في الزراعة، كان يمسك قلادته الزرقاء ويقبلها تارة ويضعها على صدره تارة أخرى، اقتربت إليه ماسيليا وهي تحمل في يدها إناءين من الطعام فوضعتهما أمامه، كان أمناي يقف قريبًا منهما ويعقد يديه ويضعهما خلف ظهره، نظرت ماسيليا لمختار فسألته قائلة:

- لماذا رفضت البقاء في قصر الحاكم؟

تهند مختار فأجاب:

- لقد اعتدت الوحدة.

عقدت ماسيليا حاجبها فسألته متعجبة:

- أليست لديك عائلة بكوكبكم؟
- أنا أعيش بكوكبنا وحيداً، لا أملك عائلة ولا أصدقاء.
- ومن يغسل لك ثيابك ويطهي لك طعامك ويهون عليك أوقاتك؟

نظر إليها مختار نظرة تشي بحزن شديد فقال:

- أنا أفعل كل ذلك بنفسي، منذ أن هجرت منزل السيدة سمية التي تولت إعالي بعدما فقدت أبي وأمي وأنا أعيش وحيداً في الصحراء والأغوار والكهوف، أتنقل من مكان لمكان كطير مهاجر، كانت الشمس أنسي بالنهار والقمر أنسي بالليل، هجرت المدن المكتظة بالناس واعتزلتهم، وخرجت للصحراء أجوبها شرقاً وغرباً، لا أملك فيها سوى خيمتي وحصاني.

أغمض مختار عينيه فتهد بعمق وقال بصوت حزين:

- لقد اشتقت لحصاني كثيراً، ترى ما فعل الآن في غيابي؟
- آسفة لذلك، لو كنت أعلم أنك تعاني كل هذا ما كنت سألتك.

نظر مختار صوب أمناي فوجده ينظر إليه نظرات حاقدة، عاد فنظر لماسيليا وسألها:

- أما زال غاضباً من طريقة تصرفي معه حين أخذ مني القلادة؟
- نظرت ماسيليا صوب أمناي فابتسمت وقالت بصوت خافت:

أمناي! إنه طيب القلب ونقي السريرة، أحياناً يتصرف بطيش
ولكنه حنون ومسالم.

- هل أنتم أصدقاء مقربون؟

- إنه أخي.

عقد مختار جبينه متعجباً فأردفت ماسيليا قائلة:

- لأنه لا يُشبهني؟

- ليس هذا، أوناسيو حين التقيت به كان لا يشبه أخته البتة.

هزت ماسيليا رأسها فنظرت للقلادة في يده فقالت:

- يبدو أن تلك القلادة لها شأن عظيم عندك، أهي تخص

حبيبتك؟

- ليست لدي حبيبة، تلك القلادة هي خاصة بأمي.

صار مختار يدور بعينه في كل مكان، عاد فنظر لماسيليا نظرات

متعجبة، عقدت ماسيليا حاجبها إثر نظراته فسألته:

- ما الأمر؟

- لا أدري لماذا بقيت أنا هنا ولم تحملني العقبان مثلهم، عدد

الناس هنا قليل ولا أرى شيئاً يوحي بأن مهمتي ستكون هنا.

لاحت على شفتي ماسيليا ابتسامة عابرة فقالت:

- لأنك لم ترَ بعد مملكتنا.

غضن مختار جبينه فتابعت قائلة:

- مملكتنا تقع في أقصى الغرب من الجزيرة، هي مملكة كبيرة بأسوار عالية وبيوت بديعة البناء وجيوش كبيرة وأسواق عديدة وشعب كبير، ما تراه هنا هي المنطقة الزراعية فقط، وتلك البيوت الصغيرة هي خاصة بعمال الزراعة، ولأن الحاكم أمغناس مهتم بالزراعة كثيرًا فقد أمر ببناء بيت صغير له هنا ليكون قريبًا من المنطقة الزراعية.

نهض مختار من مكانه فطلب من ماسيليا أن تأخذه لمملكتهم، نظرت ماسيليا للطعام أمامه فأخبرها بأنه لا حاجة له بالطعام، جلب له أمناي حصانًا وساعده على ركوبه، اتجهوا بالأحصنة غربًا نحو المملكة، كان أمناي يسبقهما بمسافة كبيرة، نظر مختار لماسيليا متعجبًا فابتسمت وقالت له:

- إن أخي أقوى فارس في جزيرتنا، لا يسبقه أحد بخيل ولا ينافسُه أحد في قتال ولا يجرؤ أن ينافسَه أحد على الإطلاق.

وصلوا للمملكة وفتحت لهم بوابتها العالية بإشارة من ماسيليا، دخلوا بأحصنتهم ومشوا في شوارع المملكة والجميع ينظرون لمختار بتعجب وذهول شديدين، كانوا يرددون بتعجب: - من هذا الأسمر، وما سبب وجوده على جزيرتنا وداخل مملكتنا؟

نظرت ماسيليا لمختار مبتسمة فقالت له:

- أيها الأسمر، لم أعرف اسمك بعد؟

وقبل أن يتحدث مختار ويخبرها باسمه أردفت قائلة:

- لا يهم، لقد اخترت لك اسم الأسمر وهو يليق بك.

ابتسم مختار وهز لها رأسه وتابعوا السير، وصلوا لمنطقة الجيش، كانت مليئة بالخيول والفرسان وهم يتدربون على الفروسية والقتال، كان منظر الفرسان وهم يتدربون منظرًا مهيبًا أذهل مختار وأدهشه، نظر مختار لماسيليا مغتبطًا فقال:

- الآن قد علمت لماذا لم تحملني العقبان، يبدو أن العقبان تركتني هنا لأن مهمتي تكمن هنا.

ترجل أمناي من ظهر حصانه وذهب باتجاه فتى صغير كان يتدرب على القتال بخنجره، أخذ أمناي الخنجر منه وصار يعلمه الطريقة الصحيحة للقتال به، أعاد الخنجر للفتى الصغير وطلب منه تنفيذ ما تعلمه للتو، بدأ الفتى في تطبيق ما تعلمه وساعده أمناي واتخذ الفتى وضعية الهجوم واتخذ أمناي وضعية الدفاع، أخطأ الفتى الصغير فأصاب أمناي في يده فسالت منه بعض الدماء، هرول أمناي نحو حصانه فركبه وأسرع به مبتعدًا عنهما.

نظر مختار لماسيليا متعجبًا فقاطعت نظراته قائلة:

- منذ أن ولد وهو هكذا، يربعه منظر الدماء وهو يسيل منه.

- وإلى أين هو ذاهب؟

- سيذهب إلى البحر، كلما حدث هذا الأمر يذهب للبحر، وكلما شعر بالحزن يذهب للبحر، يفضل البقاء هناك لوحده.

سارا معًا في شوارع المملكة، كان الناس يسلطون أنظارهم على مختار ويتهايمسون فيما بينهم، كانت بيوت المملكة عالية جدًا وتشبه المعابد الفرعونية القديمة، نظر مختار لماسيليا فقال بسعادة:

- هذا ما كنت أحلم به، مدينة هادئة لا صخب فيها ولا ازدحام، لا سيارات فيها ولا هواتف ولا صوت مدافع وطائرات، إن أكثر ما يميز كوكبكم هذا يا ماسيليا أن التكنولوجيا فيه لا تعمل، وأنا أحسدكم على هذا رغم فقركم المدقع وملابسكم البدائية، فلقد أفسدت التكنولوجيا عيشنا في كوكبنا، وصارت قوة الدول تعتمد على من يمتلك أسلحة أكثر ومدافع أقوى وطائرات أعظم، أما هنا فالقوي بنفسه وبسيفه ورأيه.

كانت ماسيليا تنصت إلى حديثه وهي مبتسمة، بينما كان مختار يقلب طرفيه في كل مكان بشوارع المملكة وهو مسرور ومغتبط من جمال الشوارع والبيوت والحدائق التي تفصل كل بيت عن الآخر.

عاد مختار فنظر لماسيليا وصار يقلب النظر إليها بتمعن، لاحظت ماسيليا نظراته فشعرت بالخجل الشديد فقالت له بتوتر:

- لمَ تنظر إليّ هكذا؟

لاحظت على شفتي مختار ابتسامة لطيفة فقال مبتسمًا:

- أرهيقم.

عقدت ماسيليا حاجبها فسألته بتعجب:

- ماذا قلت؟

عاد مختار فابتسم مرة أخرى وقال:

- أرهيقم.

رفعت ماسيليا حاجبها فسألته مستفسرة:

- ما تلك الكلمة؟

- هي كلمة من لغة الطوارق.

- وماذا تعني؟

- سأخبرك لاحقًا.

غضبت ماسيليا حاجبها وقالت متسائلة:

- ولماذا لا تخبرني الآن؟

ابتسم مختار فأجاب:

- قلت لكِ إنني سأخبرك لاحقًا أيّتها العنيدة.

هزت ماسيليا رأسها برفق وعلامات الفضول تسيطر على ملامح

وجهها، نظر إليها مختار فسألها:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى بيتنا، لتتعرف على أبي وأمي.

هز مختار رأسه برفق وتابعا السير، وصلا لأحد البيوت فترجلت

ماسيليا من على ظهر حصانها وصارت تُطرق باب البيت الخشبي بكل

قوتها وبطريقة مُفزعة، تعجب مختار من طريقتها في طرق الباب فنزل

من الحصان ووقف بجواره، كانت ماسيليا تواصل طرق الباب بقوة وبسرعة شديتين، اقترب رجل للباب من الداخل وقال بصوت ضاحك:

- ألا تتوقفين عن عادتك المزعجة هذه أيتها المشاغبة؟ لقد صار الأمر عاديًا علينا واعتدنا على هذا.

فتح الرجل الباب وحين رآه مختار فغرفاه دهشة وذهولاً من هول ما رأى.....

«فارس»

توقف القناع عن الاهتزاز فعدت إلى حيث كنت، نزعت القناع من وجهي ووضعتة داخل الحقيبة، سحابة من التساؤلات ارتسمت على جبيني، لا أعرف حقيقة تلك المهمات أو مضمونها، ولا أعرف لماذا لا يتم إخبارنا عن مضمون تلك المهمات! لماذا هذا الأمر يبدو وكأنه سر أو لغز؟

ومن هذا الرجل ولماذا اندهش مختار حين رآه؟ ولماذا توقف القناع عن الاهتزاز وأعادني في وقت كهذا؟

حملت حقيبتي خلف ظهري ومشيت بين الجبال هائماً على وجهي كالذي ضل طريقه ولا يعرف إلى أين يسير أو أين هو، فجأة تناهى إلى مسامعي صوت صهيل خيول، ركضت مسرعاً باتجاه الصوت وصرت أراقب المكان من خلف صخرة كبيرة، رأيت ثلاثة خيول تقف أسفل جبل ومحملة بالمؤونة، كانوا فتاة ورجلين، دقت النظرة لأتعرّف على أصحاب الخيول فلم أتعرّف عليهم بسبب بُعد المسافة بيني وبينهم، صاروا ينظرون في كل الأرجاء ويراقبون المكان بحذر شديد، بعدما اطمأنوا من خلو المكان من أعين الجواسيس حملوا الأمتعة على أكتافهم وجرّوا خيولهم ودلفوا بها جميعاً داخل مغارة كانت قابعة أسفل الجبل، حملت حقيبتي خلف ظهري وخبأت السيف خلف ملابسي ومشيت نحو المغارة ببطء وحذر شديدين،

اقتربت لباب المغارة وصرت أسترق السمع، تناهى إلى مسامعي صوت هرج ومرج داخل المغارة، كانت أصوات الأطفال عالية وهم يهليون ويطلبون بنصييهم من الطعام، عذمت على الدخول، وضعت قدمي داخل المغارة فتفاجأت بأنني قد وقعت في فخ، فجأة التفت حولي الحبال الشبكية وعلقت بداخلها، دوى صوت صافرات الاستغاثة من الحراس داخل المغارة وتجمّع الجميع من حولي، اقترب إليّ رجل بلحية كثيفة تكاد تملأ كل وجهه وبرأس كبير، وكان ضخم الجسد، وحين تبينت وجهه وجدته أبريس! نظر إليّ من بين الحبال ففغر فاهُ ثم لاحت على وجهه ابتسامة عابرة فقال بنبرة صارخة:

- أوناسيو!

أخرج خنجره وقام بتقطيع الحبال التي كانت تلتف حولي ثم عانقني عناقاً طويلاً، صاح الجميع مهللين ومرحبين بي، كانوا يهتفون باسمي عاليًا، فجأة ظهر سراج، ركض نحوي بسرعة جنونية وحين وصل عندي اصطدم بي بكل قوته وقام باحتضاني وهو يشهق بقوة، بدت على وجهه علامات الفرح وقال بسعادة:

- كيف حالك يا فارس؟

- أنا بخير يا صديقي، وأنتم، كيف حالكم، وكيف حال نيقيا والحكيم أتوم؟

- جميعنا بخير يا صديقي.

- ما سبب تواجدكم هنا في تلك المغارة؟

ران عليه صمت ثقيل ولم ينبس ببنت شفة، نظرت في وجوه الناس من حولي بحثًا عن نيشيا، ظهر الحكيم أتوم وهو يعتمد على عصًا عجاء في يده وقد بدت عليه علامات الهرم ويلبس الجلباب الذي أهدها لي أبي وقد صار باليًا، هرعت إليه فقلت بمعانقته فسألته بفضول شديد:

- ما سبب تواجدكم هنا أيها الحكيم؟ ألم تخبرني قبل عودتي إلى الأرض أنكم ستبقون في مملكة الجواسيس لتدافعوا عن المملكة وعن أنفسكم؟

ساد الصمت على وجوه الجميع، كان الحزن يخيم على وجوههم، كانوا صامتين وعلامات الحزن بادية على وجوههم، كانت الأطفال في حالة يرثى لها، كانوا حفاة وشبه عراة وآثار الفقر وشظف العيش وسوء الحال بادية عليهم، ازدحمت الدموع في عيني وهي تتبادر للسقوط فصحت فيهم بنبرة حزينة:

- ألا يخبرني أحدكم ما الأمر؟

فجأة ظهرت نيشيا، كانت تسير نحوي بخطوات ثقيلة، كانت ملامح وجهها ذابلة، لقد كانت في حالة يرثى لها، كان وجهها شبه منكمش وكأنها كانت تبكي نهارًا وليلاً منذ أن فارقتها، غمامة من الهم والاكتئاب كانت منتشرة على جبينها الأبيض المتلألئ، اقتربت إليّ ووقفت قبالي وأبت على أن تلتقي عيني بعيني، كانت تنظر بطرفيها بعيدًا عني، أطلقت تهيدة طويلة اختلجت لها أعضاؤها وقالت بنبرة حزينة:

- ما جاء بك؟

عقدت حاجبي متعجبًا فأجبته قائلاً:

- جئت إليكم أتنجز وعدكم ولا يُقال إن فارسًا قد خاس

بعهده.

- لقد تأخرت وانتهى الوقت.

نظرت لسراج فوجدته يطرق رأسه إطرًا طويلًا، رفع رأسه ونظر إليّ وحين وجدني أنظر إليه عاد لإطراقه مرة أخرى، شددت بيدي على قلبي وكأنني أحبسه من الفرار، نظرت لنيثيا وقلت لها بقلق:

- قلبي يختلج اختلاجًا شديدًا يا نيثيا، هلا أخبريني بما حدث؟

- كما قلت لك يا فارس، لقد تأخرت وانتهى الوقت.

- ماذا يعني هذا؟ هل راع وموراس هما من فعلا بكما هذا؟

- راع وموراس فقدا كتابهما وفقدا قوتهما، ثمة دخلاء جدد سيطروا على الكوكب وبحوزتهم كتاب جديد ربما يفوقك قوة.

عقدت جبيني بتعجب وقلت:

- دخلاء؟ من أي كوكب دخلوا؟

- من كوكبكم؟

- من هم؟ هل تعرفونهم؟

- لا نعرفهم، ولكن يبدو أنهم يعرفون الكوكب جيدًا ويعرفون الكتاب الذي دخلوا به أشد معرفة.

صرت أقتلع قدمي من على الأرض اقتلاعًا، مشيت نحو الحكيم أتوم فوقفت قبالة وقلت له برجاء:

- أرجوك قص علي ما حدث لأفكر في حل لما يحدث لي ولكم.

أطبق الحكيم أتوم شفتيه ثم تنهد وأنشأ يقول:

- منذ شهرين، استيقظنا فجراً في مملكة الجواسيس على أصوات مهيبه ومرعبة كانت لوحوش جبال المنيف، ولكنها كانت أكثر عددًا وكأنها قد تم استنساخها من بعضها البعض، كانت أعدادها كبيرة جدًا، تسلفت الأسوار وحطمت الأبواب وهاجمت الجميع بوحشية، دمرت المملكة وأفسدت المحاصيل وهدمت البيوت وقتلت من قتلت وأصابت منّا من أصابت، كانت حينها نيقيا تصرخ فيمن تبقى من الناس وتطالبهم بالخروج من المملكة والذهاب نحو جبال الأخاضر، وحين جئنا إلى هنا أرسلنا جواسيسنا لمملكة مورिका لنعرف حقيقة الأمر، وحين عادوا أخبرونا أن ثمة ثلاثة بشرين دخلوا الكوكب وبحوزتهم كتاب «خاتمة سينيت»، وهو الكتاب الخاتم لسلسلة كتب التعاويد الفرعونية، ولكن هذا الكتاب هو الأقوى على الإطلاق، فقد استطاعوا بواسطته استنساخ عدد كبير من وحوش جبال المنيف، واستطاعوا تسخير الطيور والحيوانات بواسطته، وبعدهما احترق كتاب رع وموراس انضما إليهم وانضم بانضمامهم كل سكان مملكة مورिका وصاروا تبعًا لهم بعدما أخبروهم بأنهم

سيدمرون الأرض بواسطة الكتاب، بعد ذلك أرسلوا الرسل لإيتسن حاكم مملكة الغوائل يدعونه للانضمام إليهم هو وشعبه في مملكة مورিকা ويكونون تبعًا لهم، فرفض إيتسن الخضوع لهم فأرسلوا إليهم الصقور والخفافيش والوطاويط وطيور الأبيس فدخلت مملكتهم وصارت تنقر رؤوسهم نقرًا وأفسدت محاصيلهم وطعامهم، فأرسلوا لإيتسن رسالة مفادها «كان ذلك عقابًا بسيطًا لك ولشعبك لعدم تنفيذ أوامرننا، وإن بقيت على موقفك هذا أرسلنا إليك جيشًا من وحوش جبال المنيف أوله عندي وآخره عندك»، فأذعن إليهم إيتسن بعد لأي وانضم إليهم.

توقف الحكيم أتوم عن الحديث هنيئة ثم أطلق تهيدة طويلة وأكمل بنبرة يائسة:

- هذا ما حدث يا فارس، فهل تظن أنك ستستطيع مواجهتهم اليوم بعد كل ما سمعته؟

غضنت جيبني متعجبًا فقلت له بنبرة حادة:

- ولماذا لا نستطيع مواجهتهم؟ أنسيت أننا أهل الحق؟ وأهل الحق دائمًا أقوياء بقلوبهم وبعزيمتهم، نحن نستمد قوتنا من مبادئنا التي أقسمنا على ألا نخضع لظالم حتى آخر نفس فينا.

نظرت نيشيا للناس من حولها فأشارت بيدها إليهم وقالت بنبرة ساخرة:

- نواجههم بهؤلاء؟ ليس فيهم فارسٌ ولا مقاتلٌ ولا قوِيٌّ يُعتمد عليه.

غضنت حاجبي فنظرت إليها بغضب وصحت فيها قائلاً:

- ما لكم تُخزّنون الناس عن مواجهة الظالمين؟ ما لكم قد تملككم اليأس وقلة الحيلة وكأنكم إمعة لا رأي لكم ولا خير فيكم؟
اقترب إليّ أبريس فوقف قبالي وقال بنبرة هادئة:

- يا صديقي، لا تكن قاسياً علينا، فنحن منذ أن دلفنا لتلك المغارة ولا نكاد نحصل على شبة من طعام ولا كسوة من ثياب ولا حتى نومة هائلة، نحن نجاهد بأنفسنا ونخاطر بحياتنا من أجل هؤلاء الضعفاء، نخرج كل يوم بحثاً عن الطعام، وحين نعود نوثرهم بوجبتين من الطعام كل يوم ونحصل نحن على وجبة واحدة هي تكفينا وترضيها.

صمت أبريس قليلاً ثم تابع معاتباً:

- لا يا صديقي، نحن لا نُخزّن الناس ولا نحط من قدرهم، ولكننا نعرفهم جيداً، فهم ليسوا أهل قتال مثلنا، بعضهم مزارعون وبعضهم حدادون وبعضهم بناؤون وبعضهم تجارٌ، أنت صاحب الدم النبيل هنا وتمتلك قوى خارقة، فلا تظن أن الجميع هنا مثلك.

هزرت له رأسي بهدوء ثم أخرجت السيف من خلف ملابسي ورفعته عالياً وقلت بصوت عالٍ:

- قد آن الأوان يا صديقي ليحمل كل شخص هنا سيفه، منذ اليوم سيتعلم كل شخص القتال والفروسية ليصير محاربًا، إن لم تكن قويًا بما يكفي ستتجرأ عليك الكلاب.

اقترب إليّ الحكيم أتوم حين رأى السيف في يدي فصار يقلب النظر في السيف بتمعن فسألني بنبرة يشوبها تعجب وذهول شديدين:

- أين وجدت هذا السيف؟

- وجدته أسفل صخرة بأحد الجبال هنا.

- من أخبرك بمكانه؟

- حين حملني النسرم من إحدى الجُزر جاء بي إلى هنا فألقاني فوق قمة جبل ما هنا، وأثناء نزولي من الجبل لفتت الصخرة انتباهي وحين رفعتها وجدت السيف أسفلها.

فغر الحكيم أتوم فاهُ وقال بذهول:

- تقول إن عُقابًا قد حملك وأحضرك إلى هنا؟

- نعم، هذا ما حدث معي.

ابتلع الحكيم أتوم ريقه فسألني بشغف:

- قص لي ما حدث معك بالتفصيل وكيف دخلت الكوكب.

هززت له رأسي ثم تهتدت وصرت أقص عليه ما حدث معنا منذ بداية الحلم وحتى دخولي إليهم الآن، كان الحكيم أتوم ينصت إليّ إنصاتًا شديدًا وعلامات التعجب كانت باادية على وجهه، طلب مني أن

أريه القناع الذي وجدته في منتصف السرداب، فتحت الحقيبة وأخرجت له القناع فأخذه مني وصار يقرب النظر فيه ثم عاد ونظر للسيف في يدي فابتسم ابتسامة عابرة فقال:

- كان بوسعكم الدخول هنا بواسطة المدخل في وان تكوفي بليبيا دون مشقة الثلاثين يوماً التي مررتم بها، ولكن تم توجيهكم لتدخلوا من سراديب تونا الجبل لتحصل على القناع الذي كان في منتصف السرداب.

ران على الحكيم أتوم صمت ثقيل وبدت عليه علامات التعجب ثم زفروا أكمل قائلًا:

- ولكنني لا أجد تفسيرًا لمهمات الاستغاثة تلك، يبدو أن العقبان تعرف شيئًا لا نعرفه نحن.

اقتربت إليه فسألته بفضول شديد:

ما تلك الحروب الدائرة في الجو بين النسور وبقية الطيور وما سببها؟

لاحت على وجهه ابتسامة لطيفة فقال:

- تلك عقبان وليست نسورًا؟

- وما الفرق بينهما؟

- كثير من الناس يختلط عليهم الأمر فيطلقون اسم النسور على العقاب، ولكن الفرق بينهما شاسع، فالعقاب هو أقوى طائر في

الكون، ويطلق عليه لقب سيد الجو، يطير في السماء بعظمته ولا يجرؤ أن يطير بجانبه طائر آخر، العُقاب يمتلك جناحين عريضين وطويلين ويمتلك منقارًا ضخماً ومعقوفًا، لا يأكل الجيف ولا الحشرات، لا يأكل إلا من صيده، يُقال إن شخصًا كان يمتلك صقرًا فألقى إليه حمامة ليأكلها ولكنه تفاجأ بأن الصقر ظل ساكنًا في مكانه ولم يقترب للحمامة وقد ظهر عليه الرعب، فنظر صاحبه للسماء فوجد عُقابًا يحلق في السماء فأدرك حينها مدى قوة العُقاب وأدرك أنه ملك الطيور بلا منازع.

سألته بفضول شديد:

- كيف تقول بأن الطيور لا تجرؤ على التحليق بجانبها ونحن نرى الآن الحرب الطاحنة التي تدور في الجو؟
- لأن تلك الطيور تطير بجانبها وتحاربها بأمر من هؤلاء البشرين وبواسطة تعويذة الكتاب، لا تحلق من تلقاء نفسها.
- ولماذا العُقبان بالذات؟

- أخبرنا أجدادنا قديمًا بأن أول من سكن هذا الكوكب هي العقبان، ارتبطوا بالكوكب ارتباطًا وثيقًا وروحياً وكان الكوكب ملكهم، حين دخل البشريون بالكتاب وأطلقوا التعاويذ على الطيور خضعت لهم كل الطيور إلا العقبان، لم يستطيعوا إخضاعهم، وها هي ذي تسيطر على الجو في انتظار أن يتم السيطرة هنا ويعود للكوكب أمنه واستقراره.

نظرت للسيف في يدي فسألته:

- ما الذي أدهشك حين رأيت السيف؟

- لأنه ليس سيفًا عاديًا، هذا السيف هو سيف «المَيَّاس».

- وما هو سيف الميَّاس؟

- سيف الميَّاس هو سيف خاص بترويض الأسود.

غضنت حاجبي فقلت بتعجب:

- أية أسود؟ لم أر أسودًا من قبل هنا ولم أرها في طريقي إلى

هنا.

ران عليه صمت مهيب وهو ينظر لنيقيا وسراج وأبريس

ويطالعهم بنظرات حائرة، عاد فنظر إليّ ثم قال:

- كل أسود الكوكب متجمعة في جزيرة «ريبال» ولا تخرج منها

على الإطلاق.

- وأين تلك الجزيرة؟

- هي جزيرة نائية تقع أقصى الغرب من بحر الغياهب.

عقدت حاجبي متعجبًا فقلت متسائلًا:

- ماذا يعني هذا؟

زم الحكيم شفتيه في حيرة ولم ينبس ببنت شفة.

نطق سراج وقال بنبرة متسعة:

- ربما تتضح لنا بعض الأمور حين يعود أبيدوس ومن معه من مهمة التجسس على مملكة مورिका، فلقد ذهبوا منذ عشرة أيام ومن المفترض أن يعودوا اليوم، ربما نجد إجابة لكل تساؤلاتنا، ونجد تفسيرًا لمهمات الاستغاثة التي كلفتم بها وتفسيرًا لسبب وجود السيف معك.

سيطر الصمت على وجوه الجميع، هز الحكيم أتوم رأسه بهدوء ثم أشار برأسه لسراج ونيقيا بأن يصطحباني للداخل، أدخلاني لغرفة صغيرة بالمغارة، كانت معلقة على جدرانها ملابس أبريس وسراج، فجأة اهتزت الحقيبة بقوة، فأوجسنا منها خيفة فطمأنتهما قائلاً:

- لا تخافا، إنها إشارة من القناع.

طلبت منهما البقاء خارج الغرفة وعدم الدخول أو إدخال أحد، خرجا من الغرفة ووقفا خارجها، فتحت الحقيبة وأخرجت منها القناع الذي لا يزال يهتز اهتزازًا شديدًا، كانت نيقيا تراقبني بطرفي عينيها وهي تنظر للقناع بتمعن، وضعت القناع على وجهي فالتصق به ثم انتقلت معه إلى حيث يريد.....

«إيمان»

في جزيرة نائية يحدها البحر من كل جانب، ألقى العُقاب بإيمان قريبًا من إحدى شواطئ الجزيرة ثم ابتعد عنها وودعها بصفيّره المهيب وتركها وحيدة، كانت الشمس تستعد بحمرتها الفاتنة على المغيب، هدوء تام وبرد قارس كان يلف المكان، امتلأت صفحة السماء بسحب مثقلة وكانت تتحرك ببطء شديد وكأنها قد أثقلها الماء الذي تحمله فأفقدتها القدرة على التحرك، ضباب كثيف كان يتصاعد من البحر ومن بين الأشجار وكأنه دخان، لم تتحمل السحب ثقل الماء الذي تحمله فانطلق هزيم الرعد وصارت السماء تُمطر بغزارة وتسكب ما يثقلها من الماء وصار المطر يدق الأرض دقًا، بعد دقائق قليلة توقف المطر وانقشعت السحب قليلًا وظهر من خلفها قرص الشمس بحمرته الجذابة وهو يظهر فينة ويختفي أخرى وكأنه يتراقص من خلف قطع السُحب على ألحان الطبيعة الساحرة التي كانت تسيطر على الجزيرة، كان قرص الشمس يتدلى على البحر وكأنه يحتضنه في مشهد بديع، بعد هنيهة من الوقت انحدر قرص الشمس إلى مغربه ولم يبقَ منه في الأفق إلا كما يبقى على صفحة البحر من آثار السفينة الماخرة ثم اختفى وكأن البحر قد ابتلعه، كان الطقس باردًا جدًّا، لجأت إيمان للاحتماء بين الأشجار في الغابة، كانت تبحث في كل مكان من حولها عن حجران اتقاد لتشعل بواسطتهما النار للتدفئة، ولكنها توقفت عن البحث حين رأت المكان كله مبتلًا بفعل

المطر، كانت تحمل حقيبتها خلف ظهرها وتحوط صدرها بذراعيها وترتعش ارتعاشًا شديدًا من شدة البرد، كانت تسير بين الأشجار في الغابة وأوشك الظلام على أن يحتل المكان، كانت تسير بسرعة شديدة بحثًا عن أي مكان مناسب لتحتفي فيه من برودة الطقس ولتبيت فيه ليلتها تلك، أزعجها صوت صرصور الحقل الذي كان يسيطر على الغابة وأصوات صفير العقبان التي كانت تصدر من فوقها، كانت تُطمئن نفسها وتردد بصوت جهوري قائلة: أنتِ قوية يا إيمان ولا شيء يستطيع إخافتك.

ترأى إلى أنظارها شعلة نار كانت مثبتة على جدران أحد الأبواب الصغيرة، بدا لها وكأنه باب سرداب، اقتربت إليه بحذر شديد وصارت تراقب المكان بتمعن، كانت تستمع لأصوات خفية قادمة من ناحية باب السرداب الصغير، كان الصوت يبدو وكأنه صوت طفل صغير يغني، فجأة ظهر أمام الباب كائنٌ غريب، أجفلت إيمان وتسارعت ضربات قلبها حين رأت هذا الكائن وهو يطير بجناحيه رغم أنه يمتلك رأسًا بشرية، كان حجمه صغيرًا ورأسه صغير جدًا وعيناه خضراوان وضيقتان وجسمه يشبه أجسام العصافير إلا أنه يكبرها حجمًا، كان الكائن يطير وهو يرفرف بجناحيه ويردد بعض الألحان الشجية، توقف الكائن عن الغناء ثم هبط لسطح الأرض فنظر صوب إيمان وهي مختبئة خلف إحدى الأشجار الضخمة فقال بنبرة صوت مرعبة:

- أتظنين أننا لا نراكِ؟

أجفلت إيمان فتسارعت ضربات قلبها وصارت تزدد ريقها بصعوبة بالغة وحاولت الابتعاد عن المكان، استدارت للخلف ببطء فتفاجأت باثنين آخرين كانا يقبعان خلفها ويحملقان في وجهها بتمعن وهما يضيّقان أعينهما، صرخت إيمان وركضت بين الأشجار مبتعدة عنهم، كانوا أسرع منها، كانت كلما تظن أنها ابتعدت عنهم تجدهم أمامها فجأة وهم يضحكون بسخرية، شعرت إيمان بالرعب الشديد حين استمعت لضحكاتهم الساخرة فسقطت على الأرض مغشياً عليها، بعد هنيهة من الوقت أفاقت فوجدت نفسها ممددة أمام باب السرداب وتلك الكائنات تحملق فيها وتطالعها بنظرات حائرة، حركت إيمان قدميها فقال لها أحدهم مهدداً:

- لو فررتِ وركضتِ لآخر الكوكب سنأتي بكِ في لمح البصر.

كانت إيمان تقلب النظر إليهم بخوف شديد، كانوا ثلاثة كائنات يشبهون بعضهم البعض في كل شيء إلا اللون، كان أحدهم لونه أخضر وأحدهم لونه أزرق والثالث كان لونه قرمزيًا،

تحدث الكائن صاحب اللون الأخضر وقال موجهاً كلامه إليهما:

- تُرى من هذه؟ هل هي دخيلة على الجزيرة أم هي من سكان

قلعة الفرسان وجاءت لتتجسس علينا؟

رد عليه صاحب اللون القرمزي وقد كان أصغرهما حجمًا

فقال:

- ليست هذا ولا ذاك، إنها ساحرة من ساحرات الشرق وجاءت لتلقي علينا تعويذة وتحولنا لخنافس، أنا أرى أن نقذف النار عليها وننقلها قبل أن تلعننا.

ضربه الكائن الأزرق بجناحه على مؤخرة رأسه وقال له:

- كل ما يهملك أيتها الطفلة هو أن تنضخي النار فحسب، لا أعلم متى تكبرين.

اتسعت حدقة عيني إيمان حين رأتهن يحادثن بعضهن بصيغة المؤنث، كانت تستمع لحديثهن بإنصات وقد زال خوفها قليلاً، غضبت صاحبة اللون القرمزي فابتعدت عنهما وأدارت لهما ظهرها وقالت بحزن شديد:

- الآنني أصغركما سنًا تفرطان في ضربي كل حين وآخر؟

مشت إليها صاحبة اللون الأخضر فالتصقت بها ولقت جناحها حول جسمها وكأنها تعانقها فقالت لها بنبرة متأسفة:

- لا تغضبين منها يا توتو، إنها تمزح معك، وأيضًا لا تنسي أننا قد مُنعن من استخدام قوتنا كما أمرتنا العقبان منذ شهرين.

ضحكت إيمان ضحكة هادئة حين سمعت الاسم، اقتربت إليها توتو فقالت لها بحنق:

- أنتِ أيضًا تسخرين من اسمي مثلهما؟

فابتعدت عنهن توتو مرة أخرى وهي تدير لهن ظهرها وتطبق شفيتها حزناً وكمدًا فقالت بصوت حزين:

- لا أدري لماذا قاما أبي وأمي بتسميتي هذا الاسم الغريب.

نهضت إيمان من تمددها فاقتربت إليها ثم طبعت قبلة كبيرة على خدها وقالت لها مبتسمة:

- بل اسمك جميل، ليته كان اسمي.

اندهشت توتو فرفعت حاجبها مغتبطة وطارت في الهواء وصارت ترفرف بجناحها في سعادة وفرح وقالت مغتبطة:

- اسمي صار جميلًا منذ اليوم.

توقفت توتو عن الطيران فاقتربت لإيمان وأشارت إليهما فقالت:

- تلك الخضراء هي أختي الكبيرة واسمها كريستال، والزرقاء تلك أوسطنا واسمها جوهرة.

عقدت إيمان حاجبها فغمزت إليهما بطرف عينها وقالت بازدراء:

- كريستال وجوهرة! ما هذان الاسمان الغربيان؟

أطلقت توتو ضحكة عالية وساخرة وصارت تنظر إليهما نظرات ساخرة وهي تواصل الضحك.

اقتربت كريستال لإيمان فسألتهما بفضول شديد:

- من أنتِ؟ وما سبب تواجدك هنا في هذا الوقت من الليل.

- أنا هنا في مهمة استغاثة.
عقدت كريستال جبينها وقالت بتعجب:
- مهمة استغاثة! ما هذه المهمة وبمن تستغيثين؟
- لا أعلم، كنا أربعة، أنا وأخي واثنان معنا، دخلنا الكوكب
قادمين من الأرض فحملتنا النسور.
قاطعتها جوهرة قائلة:
- تقصدين العقبان.
نظرت إيمان للسماء وهي ممتلئة بالعقبان ثم عادت ونظرت
إليها وأشارت بيدها إلى العقبان وقالت:
- أقصد تلك.
ابتسمت جوهرة وقالت:
- نعم، تلك عقبان وليست نسور، العقبان والنسور يشبهون
بعضهم البعض ولكنهم يختلفون عن بعضهم في أشياء كثيرة.
اخترقت توتو الحديث وقالت متسائلة:
- ومن تكونين أنتِ لتختارك العقبان في مهمة.
- أنا إيمان، شقيقة أوناسيو.
شهقت توتو حين سمعت الاسم فقالت بنبرة متعجبة:
- أنتِ شقيقة أوناسيو ملك الكوكب؟

غضنت إيمان حاجبها فسألتها بفضول شديد:

- أتعرفن أنه ملك الكوكب؟

ردت عليها كريستال قائلة:

- العقبان تخبرنا بكل شيء يحدث بالكوكب، نحن نفهم لغتها، ولكنها لم تخبرنا عن مهمتكم تلك، أمرتنا فقط بالألا نستخدم قوتنا التي امتزنا بها مهما حدث، لا نعرف السبب، ولكننا نكاد نجزم بأن ثمة أمرًا جَلَلًا قد حدث في الشرق.

نظرت إليهن إيمان وسألتهن:

- وما هذه القوة.

اقتربت إليها توتو وقالت لها بشغف:

- ها هي ذي قوتنا.

فتحت توتو فمها ثم قذفت من فمها شعلة نار باتجاه الأشجار فأحرقتها على الفور وصارت رمادًا.

طارت كريستال بسرعة شديدة نحو توتو فصفعتها بجناحها على وجهها بقوة وقالت لها بنبرة حادة:

- ما زلتِ طفلة يا توتو وتتصرفين دون وعي.

أطبقت توتو شفيتها حزناً وكمدًا وقالت بنبرة حزينة:

- أنا لست طفلة، عمري الآن سبع سنوات ونصف السنة.

ردت عليها كريستال بحنق:

- بل طفلة، أنسيتِ بأن العقبان أمرتنا بالألا نستخدم قوتنا
مهما حدث؟

قالت توتو بنبرة يشوبها تأسف شديد:

- متأسفة عما بدر مني للتو، لقد أردت أن أريها قوتنا فحسب.
كانت إيمان تفغر فاهها دهشة وذهولاً من هول ما رأت، وكانت
تتساءل في سريرة نفسها أن كيف لمخلوقات صغيرة تمتلك قوة
عظيمة كهذه، اقتربت نحو كريستال وسألتها بفضول شديد:

- مَنْ أنتن؟ وما عملكن هنا؟

ردت عليها كريستال قائلة:

- نحن طيور روزا، موطننا الأصلي أقصى الغرب من بحر
الغياهب، حين ظهرت فينا تلك القوة أرسلنا أبونا وأمنا إلى هنا خوفاً
علينا من بطش حكام مملكتنا لأنهم كانوا سيستخدمونا في أمور
خبيثة وربما استخدمونا ليطشوا بالممالك المجاورة والسطو عليها
واحتلالها.

- وماذا تفعلن هنا أمام هذا السرداب؟

- نحن نعمل هنا للحراسة، ويحصل كل منا على قطعتين
ذهبيتين كل شهر نظير عمله.

اخترقت توتو الحديث مجدداً وقالت بنبرة متسرفة:

- أنا أحصل على قطعة ذهبية واحدة أيتها الكاذبة.

ردت عليها كريستال بغضب:

- أنا أدخلك قطعة ذهبية نيابة عنك لأنك مسرفة، فنحن ندخلك شهر قطعة ذهبية.

رفعت توتو حاجبها الرفيعين وقالت بنبرة ساخرة:

- أنا لست مسرفة، الحلوى هي التي تغريني.

لاحت على وجه إيمان ابتسامة عابرة ففتحت حقيبتها وأخرجت منها قطعة شكولاتة كبيرة ومدتها لتوتو، التقطتها توتو بجناحها ثم أخذت تنظر إليها بتعجب شديد فقالت لإيمان مستفسرة:

- هل هذا الشيء للأكل؟

هزت لها إيمان رأسها مبتسمة فوضعتها توتو داخل فمها فأتسعت حدقة عينيها وقالت بذهول:

- يا إلهي، إنها لذيذة جدًا، من أين أتيت بهذا الشيء؟ وأين يباع؟ حين أحصل على القطعة الذهبية خاصتي في نهاية الشهر القادم سأشتري بالقطعة الذهبية كلها.

ضحكت إيمان بهستيرية وقالت:

- يؤسفني إخبارك يا توتو بأن هذه الشكولاتة لا تباع إلا في كوكبنا.

عقدت توتو جبينها وقالت بنبرة متعجبة:

- شكو.. شكولا...شكولاتة، أهذا اسمها؟

هزت إيمان رأسها ثم أخرجت من حقيبتها المزيد منها فأعطت
لكريستال ولجوهرة اثنتين منها لكل واحدة وأعطت لتوتو المزيد،
رفعت توتو حاجبها متعجبة وقالت بسعادة:

- لقد أعطيتني المزيد منها وأعطيت لكل واحدة منهما اثنتين
فقط؟

ابتسمت إيمان وقالت:

- لأننا في كوكبنا يكون نصيب الصغار من الحلوى أكثر من
نصيب الكبار، فالحلوى في كوكبنا تُصنع عادة من أجل الصغار.

فغرت توتو فاها وقالت بمرح:

- خذيني لكوكبكم هذا أرجوك.

ضحكت إيمان وقالت:

- حين ننهي مهمتنا هنا سأأخذك معي.

عادت إيمان فسألت كريستال قائلة:

- ومَن تحرسن هنا؟

- نحرس مملكة العمالقة.

- داخل هذا السرداب توجد مملكة؟

- نعم، مملكة كبيرة من العمالقة، طول كل واحد منهم يتجاوز الخمسة أمتار، يعيشون داخل هذا السرداب ويكتفون ذاتيًا بالطعام والشراب واللحوم والملبس وكل شيء، ينامون بالليل فنحرسهم، وفي النهار يخرجون لتلك الغابة للعمل في أرضهم ولتقليم الأشجار وقطعها للتدفئة، ونحن ننام بالنهار ونحرسهم بالليل.

- ممن تحرسهم؟

- يزعمون أن ثمة ساحرات من شرق الكوكب يردن الظفر بهم أو سحرهم.

- عمالقة كهؤلاء يخافون من السحر؟

- نعم، السحر عمل بذيء، يُفسد الحياة ويُهلك الناس، هم يخشون أن يستخدموهم في أمور الشر، فرغم قوتهم وطول قاماتهم إلا أنهم شعب طيب ونبيل.

هزت إيمان رأسها بهدوء فسألتها مجددًا:

- ما هي قلعة الفرسان التي سمعتكن تذكرن اسمها؟

نظرت كريستال ناحية الشرق هنيئة حيث الجبل الأزرق ثم عادت ونظرت لإيمان فأنشأت تقول:

- هم شعب من شرق الكوكب، تم إلقاؤهم من أعلى سور مملكة الغوائل في بحر الغياهب عقابًا لهم بأمر من حاكم المملكة إيتسن، فجاء بهم البحر جميعًا إلى هنا، كانوا قديمًا يعيشون في الغابة في أمن وسلام دون أن يضايقوا العمالقة أو أن يسببوا

المشكلات لهم ولمحاصيلهم، كانوا يقتاتون من أسماك البحر وأرانب وغزلان البرية، ومنذ حوالي ستة أشهر جاء بهم البحر في جماعات كبيرة وكثر عددهم، فجاء فارس شجاع صنيدي منهم واخترق الغابة وطلب التحدث مع الحاكم «أوزيس» حاكم مملكة العمالقة، فوافق الحاكم على التحدث معه بعد لأي منه في بادئ الأمر، طلب منه الفارس أن يعيشوا معهم داخل المملكة ويعملون معهم في الزراعة، فعقد الحاكم اجتماعًا مع وزرائه وبعض من شعب المملكة ليشاورهم في الأمر، فرفضوا جميعًا ولكنهم اقترحوا بأن يساعدوهم العمالقة في بناء قلعة لهم أعلى الجبل لتكون سكنًا لهم، فوافق الفارس ومن معه على الاقتراح فتمت مساعدتهم في بناء القلعة وبناء أسوارها بشرط ألا يقتربوا لمملكتهم ولا يقترب العمالقة لقلعتهم.

نظرت إيمان باتجاه الشاطئ فسألتهما بتعجب:

- وتلك السفن الموجودة على الشاطئ بجانب الجبل؟

تهتت كريستال فأجابت:

- لقد صنعها الفرسان، يظنون أنهم سيعودون بها لمملكة الغوائل لينتقموا من إيتسن ومن معه، إنهم غريبوا الأطوار، لا نستمتع في قلعتهم إلا لصوت صليل السيوف وصهيل الخيول، يصنعون السيوف والدروع والسهم ويجمعون الخيول بكثرة.

نظرت كريستال لإيمان نظرة تشبي بالكثير، كانت تحاول التحدث ولكنها بدت وكأنها مترددة، نطقت أخيرًا وقالت لها بنبرة يشوبها خجل شديد:

- وجودك هنا الآن سيعرضك ويعرضنا للخطر، إن رآك أحد العمالقة سيظن أنك ساحرة من ساحرات الشرق وسيظن بأننا تربطنا علاقة معك.

نظرت كريستال ناحية الشرق حيث الجبل وقلعة الفرسان أعلى قمته ثم تابعت:

- توجد أسفل الجبل مجموعة غرف صغيرة، احتمي بداخلها من برودة الطقس ولتبيتي فيها تلك الليلة وفي الصباح اصعدي الجبل واطلبي الدخول لقلعة الفرسان، سيوافقون على دخولك بالتأكيد، لأنك تشبهينهم بشعرك الأشقر وعينيك الخضراوين، ولا تنسي أن تزورينا في الليلة القادمة لنفكر معاً في مهمتك تلك.

قامت إيمان بتوديعهن، ابتعدت عنهن بضع خطوات فطارت إليها توتو وهي ترفرف بجناحها فأوقفها وقالت لها برجاء:

- انتبهي لنفسك جيداً أيتها الجميلة.

ابتسمت إيمان ابتسامة عريضة فاقتربت توتو بفمها نحو خد إيمان فطبعت قبلة كبيرة على خدها.

عقدت إيمان حاجبها فسألها توتو قائلة:

- هل ظننت أنني سأقذف النار على خدك؟

- بالطبع لا، ولكن فمك مليء ببقايا الشوكولاتة يا توتو وقد امتلأ خدي بها.

لاحت على شفتي إيمان ابتسامة لطيفة فأردفت قائلة:

- هيا، عودي لإخوتك واغسلي وجهك وفمك.

سارت إيمان مبتعدة عنهن باتجاه الجبل، حين وصلت للجبل ونظرت للقلعة أعلاه فغرت فاها دهشة وذهولاً، أذهلها اللون الأزرق الذي يكتسي به الجبل، وتلك أول مرة ترى فيها جبلاً بهذا اللون، كانت تستمع لأصوات بعض الناس قادمة من أعلى الجبل، غضنت حاجبيها وقالت في قرارة نفسها: يبدو أن تلك القلعة هي التي رآها فارس في حلمه، وهذا الصوت أيضًا، أشعر وكأنه نفس الصوت الذي سمعه فارس، وأكد أجزم أنني أيضًا قد سمعت هذا الصوت من قبل!

نظرت إيمان في كل مكان من حولها ثم اتخذت قرارها بآلا تنتظر للصباح وقررت صعود الجبل الآن، كانت تصعد بخطوات بطيئة وحذرة، وكلما اقتربت من باب القلعة يقترب الصوت ويتضح أكثر من ذي قبل، حين وصلت لباب القلعة الخشي الكبير وضعت أذنها على الباب لتتنصت الحديث الذي يدور بالداخل، فجأة طار من أمامها خفاش فأرعبها وصرخت رعباً منه، تناهى إلى مسامعها صوت خطوات أقدام تقترب نحو الباب، فهرعت تنزل من الجبل بسرعة جنونية، فُتح الباب فخرج منه شاب مُلثَّم، نظر لإيمان وهي تنزل من الجبل فقال لمن خلفه:

- انتظروني هنا، لا يتحرك أحد.

نظرت إيمان خلفها وهي تنزل من الجبل بأقصى سرعتها فانزلقت قدمها فسقطت على الصخور وتدحرجت حتى وصلت لأسفل الجبل، أصيبت في قدمها اليسرى بجرح غائر وصارت الدماء تسيل من قدمها بغزارة، كان الشاب ينزل من الجبل بأقصى سرعته وهو يقترب إليها، نهضت من مكانها وهي تتألم والدماء تسيل من قدمها، توقفت عن السير حين شعرت بالاختناق، أغلقت عينها وسقطت على الأرض مغشيًا عليها، اقترب إليها الشاب وصار ينظر إليها بعينه الخضراوين الواسعتين بتمعن، كان ملثمًا ولا يُظهر إلا عينيه الرائقتين، حملها الشاب بكلتا يديه وركض بها مسرعًا نحو الشاطئ، حين وصل للشاطئ قذفها في الماء بكل قوته وجلس بجانبها يلتقط أنفاسه فوضع يده على لثامه وهمّ على أن ينزع اللثام من على وجهه ليكشف نفسه.....

«فارس»

توقف القناع عن الاهتزاز، نزعته من على وجهي وصرت أصرخ
بأعلى صوتي قائلاً:

- إيمان، إيمان.

هرعا إلي سراج ونيقيا وسألاني بقلق شديد عما حدث.

انهمرت الدموع من عينيّ وقلت بصوت بالك:

- لقد أصيبت إيمان بجرح غائر في قدمها وفقدت الكثير من
دمائها، إنها تختنق الآن وتصارع الموت.

أمسكت القناع وصرت أحدثه بنبرة صارخة:

- أيها اللعين، لماذا توقفت عن الاهتزاز؟ أتأخذني متى تشاء
وتعيدني متى تشاء؟

دلف إلينا الحكيم أتوم بعدما سمع صوت صراخي، سألني
بنبرة قلقة عما حدث، فحكيت له ما رأيته، ابتسم الحكيم أتوم
ابتسامة عريضة فقال:

- ماء بحر الغياهب يُشفي الجروح يا فارس، فلا تقلق على
أختك، واشكر لذلك الشاب معروفه.

عقدت حاجبي متعجبًا ثم فغرت فمي مندهشًا فقلت:

- نعم، هذا صحيح، قبل دخولنا الكوكب هنا كنا جميعًا مصابين وكان مختار مصابًا بجرح غائر، وحين سقطنا في الماء اختفت كل الجروح.

نظرت للحكيم أتوم متعجبًا فسألته بفضول شديد:

- لماذا لم يخبرنا أحد بهذا الأمر حين أصيبت أختي إيمان في رحلتي السابقة وقد كنا بجانب بحر الغياهب وكان بإمكانني إنقاذها دون العودة لكوكبنا؟

رد عليّ الحكيم أتوم فقال:

- لم يكن ماء بحر الغياهب يشفي الجروح من قبل، حدث هذا الأمر بشكل مفاجئ حين كنت أنت والكتاب بجانب البحر وقتما أصيبت أختك، وكان الكتاب قد سخر لك ماء البحر لتشفي أختك ولكنك لم تنتبه ولم ينتبه أحد سوى أولئك الجرحى الذين ألقاهم إيتسن من أعلى سور مملكة الغوائل، حين تم إلقاؤهم في البحر اكتشفوا هذا الأمر.

هززت له رأسي مبتسمًا فسألني نيقيا قائلة:

- من هذا الشاب الذي كان مع إيمان؟

- لا أعرف، كان ملثمًا ولا يُظهر إلا عينيه، ولكن طيور روزا قالت لإيمان إن كل سكان القلعة جاء بهم البحر قادمون من مملكة الغوائل، بالطبع هو أحد سكانها وربما يعرفها.

صمتُ هنيئة ثم نظرت للقناع في يدي وتابعت:

- لا أعرف لماذا توقف هذا القناع عن الاهتزاز؟!

نطق الحكيم أتوم وقال:

- ربما يتوقف القناع عن الاهتزاز ويعيدك بسبب شيء ما قد طراً أو سيطراً من حولك.

فجأة دوى صوت صافرات حراس المغارة ما يوجي بدخول شخص ما للمغارة، ابتسم الحكيم أتوم وقال مبتسماً:

- ألم أقل لك ذلك!

خرجنا جميعاً من الغرفة باتجاه باب المغارة، كان أبيدوس ورهط معه قد عادوا من مهمة التجسس قريباً من مملكة موريكاه، هرول إليّ أبيدوس حين رأي وعانقني طويلاً، نظر إلينا ونحن متجمعون من حوله فقال بصوت يائس:

- المعركة العظمى.

فأطرق بعدها رأسه إلى الأرض إطراقاً طويلاً وعلامات الحزن بادية على وجهه وعلى وجوه كل من كانوا معه.

سألته بفضول شديد:

- ماذا تعني بالمعركة العظمى؟

أطلق أبيدوس تنهيدة طويلة فأنشأ يقول:

- استطعت الدخول لمملكة موريكاه، ثمة ثلاثة بشرين يمتلكون الكتاب ويتحكمون بكل شيء، رع وموراس وإيتسن يعملون في

خدمتهم وتنفيذ أوامرهم، يتحكمون بالطيور والحيوانات والوحوش بواسطة الكتاب، سمعت الجميع داخل المملكة يتحدثون عن المعركة العظمى والتي ستجمع بينهم وبين أسياذ الجو وأسياذ الغابات.

صمت أبيدوس هنيهة ثم نظر إليّ وتابع:

- وسيد الكوكب.

عقدت حاجبي متعجبًا فأردف أبيدوس قائلاً:

- نعم، لقد عرفوا أنك قد دخلت الكوكب ويعرفون أن العقبان والأُسود وكل الأقوياء بالكوكب سينضمون إليك لتواجههم في المعركة العظمى، يقولون إنهم لو انتصروا في تلك المعركة سيذهبون باتجاه الغرب ليسيظروا على كل الجزر والممالك الموجودة في بحر الغياهب.

أطلق الحكيم أتوم تنهيدة طويلة اختلجت لها أعضاؤه وقال بنبرة حازمة:

- الآن اتضح الحقائق، الآن عرفنا سبب الحروب الطاحنة التي تدور في الجو بين العُقاب سيد الجو وبين بقية الطيور، والآن عرفنا سبب مهمات الاستغاثة وسبب وجود سيف الميأس معك.

دار الحكيم أتوم بعينه وهو ينظر إلينا فتابع قائلاً:

- ستبيتون تلك الليلة هنا، وفي الصباح ستخرجون من المغارة باتجاه الجبل الذي نزل عليه فارس، إن بقاء العقبان على قمة الجبل وعدم مغادرتها دليلٌ على أنها تنتظركم لتُكملوا المهمة، ستحملكم العقبان نحو جزيرة ريبال، هي بعيدة جدًا، وقد يستغرق ذهابكم إليها

يومًا كاملاً رغم السرعة العالية التي تمتلكها العقبان، سيقوم فارس بترويض الأسود بواسطة السيف والذهاب بها نحو مملكة موريسا لخوض المعركة العظمى، إنها فرصتنا الأخيرة، إن انهزمنا فيها سننتهي إلى الأبد وسينتهي بانتهائنا ملك آبائنا وأجدادنا.

اقتربت نحو أبيدوس وسألته بفضول شديد:

- مَنْ هؤلاء البشريّون؟ هل رأيتم؟

هز أبيدوس رأسه فأجاب:

- نعم رأيتم، أحدهم يُدعى ناصر وأحدهم يُدعى سليمان.

عقدت حاجبيّ متعجبًا وصرت أنظر إليه بفضول ليكمل

كلامه، فتمهد وتابع:

- الشخص الثالث هو قائدهما وهو حامل الكتاب، لم يره

أحد، ولم يُظهر نفسه لأحد، يُطلقون عليه لقب «خادم سينيت» لأنه يحمل كتاب خاتمة سينيت.

- ولماذا لا يُظهر نفسه؟

- لا أعرف، ربما يستخدم هذا الأمر للمراوغة.

ذهب كل شخص لغرفته، دلفت أنا وسراج وأبريس لغرفتنا

الصغيرة، كانت الغرفة ضيقة جدًا وتكاد لا تسعنا نحن الثلاثة، غرق

سراج وأبريس في النوم وبقيت أنا مستيقظًا وقد عجز الكرى على أن

يلم بجفوني من كثرة الأسئلة التي كانت تدور في رأسي، أسئلة كثيرة

كانت تشغل فكري وحرمتني النوم، كنت أردد في سريرة نفسي قائلاً: كان عليّ أن أعلم، السيد ناصر لن يترك الأمر بتلك السهولة، كان عليّ أن أعلم أيضاً أنه سيدخل الكوكب بأية طريقة وبأقصى سرعة، كل تلك الأموال التي أنفقها ليكتشف أسرار أوناسيو لن يتركها تذهب سدى.

ولكن، من هذا الشخص الثالث؟ من الذي يقود السيد ناصرًا والسيد سليمانَ وسيطر على الكتاب؟ لا بدّ أنه ذو نفوذ وسلطة عالية في الأرض ليسيّط على الكتاب ويقنع الجميع هنا باتباعه والانضمام إليه، وبينما أنا أتساءل هكذا غلبني النعاس فتمت.....

تردد صوت صفير العقبان في كل مكان، بزغ الفجر فخرجت الطيور من أوكارها لتباشر الحرب، ما زالت العقبان تسيطر على الجو وتتنصر في معاركها، تجهزنا لرحلتنا قبل شروق الشمس، ودعنا الجميع وسرنا مبتعدين عن المغارة باتجاه الجبل، كان الجبل المقصود على مسافة قريبة من المغارة، وكانت العقبان تملأ قمته بأعداد كبيرة، صعدا لقمة الجبل فطارت العقبان وحلقت في السماء وصارت تدور حولنا بشكل دائري في مشهد مهيب، بعد هنيهة من الوقت هوت إلينا العقبان فحملتنا جميعًا الواحد تلو الآخر بواسطة مخالبها القوية فحلقت بنا وطارت بنا نحو الغرب، كانت تطير بسرعة مهيبة وجنونية، استمرت بالتحليق بنا فوق بحر الغياهب لوقت طويل، مرّ اليوم جُلّه وهي تحلق بنا دون توقف أو إبطاء لسرعتها، كانت الشمس على وشك أن تودعنا نحو مغربها، فجأة شعرت

بالحقيبة تهتز خلف ظهري، نزعت الحقيبة مسرعًا ففتحتها وأخرجت
القناع فوضعتة على وجهي فالتصق القناع بوجهي فذهبت معه إلى
حيث يريد.....

«مراد»

ألقى العُقاب بمراد على جزيرة نائية أقصى الغرب من بحر الغياهب، وبوسط غابة شاسعة وملينة بأشجار الخيزران التي تغطيها الثلوج بالكامل، توقفت العقبان عن إصدار أصواتها، هدوء تام كان يلف المكان، شعر مراد بالخوف وتسارعت دقات قلبه، كان يدور حول نفسه بوسط الغابة حائرًا ملتاعًا، لا يدري ما هي مهمته في تلك الجزيرة التي بدت له وكأنها جزيرة مهجورة لا خافق فيها ولا بارق، لا يدري إلى أي جهة يسير، أراد الخروج من تلك الغابة المليئة بالأشجار التي تحجب عنه رؤية المكان من حوله، كان يسير على الثلوج المتراكمة أسفله بحذر شديد وهو يقتلع قدميه من على الأرض اقتلاعًا خشية أن تنزلق قدميه، شعر ببرودة الطقس وتجمدت أطرافه، سرَّع من خطواته شيئًا فشيئًا ليتغلب على برودة الطقس، سار مسافة طويلة لا يترث فيها ولا يتند، استطاع الوصول لنهاية الغابة فترأى إلى أنظاره جبل كبير كان مغطى بالثلوج ويحتضنه البحر من الخلف، وقف في مكانه مذهولًا ومشدوهًُا من جمال المنظر الحاصل أمامه، سرَّه منظر الأصيل وجمال قرص الشمس وهو يتدلى على صفحة البحر، كانت ندف السحب في السماء منظرها يسر الرائي والمتأمل بسبب انعكاس ضوء الشمس الأحمر عليها، كان مراد يدور حول نفسه مسرورًا ومغتبطًا من سحر ما يرى من جمال ألوان الطبيعة وانسجام الطلال وجمال منظر الغروب والهدوء التام المحيط به، وما

هي إلا لحظات قليلة حتى ودعته الشمس فأحزنه وداعها لأنه كان يأنس بها وبصحبتها في تلك الجزيرة الساكنة، بدأ الليل يرخي سدوله واحتل الظلام المكان وعم السكون كل الأرجاء واستحال المنظر البديع الذي كان يراه منذ قليل وصار موحشًا كوحشة القبور، لا يستمع فيه لحركة أو نأمة، شعر مراد بالوحدة وانتابه يأس شديد وظن أن تلك الجزيرة لا حياة فيها لكائن أو حيوان أو حتى وحش من وحوش الظلام، بدأ يحفز نفسه وكأنه يحدثها قائلاً: لقد حملتني النسور وجاءت بي إلى هنا، فلا بد أن مهمتي ستكون هنا، أنا هنا في مهمة، ولذلك سألتقي بأحد هنا في تلك الجزيرة لا محال.

سار بخطوات مختلصة ناحية الجبل الكبير، وصل إليه فوقف أسفله وظل شاخصًا ببصره إلى قمته، تنهى إلى مسامعه أصوات هرج ومرج كانت تصدر من داخل الجبل، أجفل حين سمع الأصوات فظل يروح ويحيى من أمام الجبل وهو يبحث عن طريق يصعد بواسطته إلى قمته، استطاع العثور على ممر ضيق بدا وكأنه تم إعداده خصيصًا للصعود لقمة الجبل والنزول منه وهو المكان الوحيد بالجبل الذي كانت الثلوج فيه أقل بكثير عن أي مكان غيره، بدأ الصعود بخطوات بطيئة وحذرة، أعاقه الظلام الدامس الذي كان يسيطر على المكان وكذلك بعض الثلوج أسفل قدميه، فكان كلما صعد بضع خطوات تنزلق قدماه فيعود إلى حيث كان، شعر بالإحباط الشديد جراء محاولاته التي كانت دائمًا ما تكفل بالفشل، ظل يبحث في كل مكان عن شيء يساعده، هرول ناحية الغابة فحصل على قطعتين من الخشب، عاد بهما مسرعًا للجبل فاستخدمهما بكتلتا

يديه وصار يغرزهما في الثلج أسفله ويتكى عليهما بحذر حتى وصل لقمة الجبل، وقف ينظر لداخل الجبل وقفة الذاهل المشدوه، لقد وجد مملكة كبيرة ببيوتها الحجرية ويحتاط بها الجبل من كل الاتجاهات، كانت البيوت والشوارع والساحات كلها مضيئة بواسطة القناديل الزيتية، كانت تشبه وادي الرذاذ والجبل يحتاط بها من كل جانب، كان بعض الناس متجمعين في ساحة كبيرة وهم يهلمون ويهتفون بأعلى صوتهم ويحتاطون بشخص ما، ظل مراد يدور بعينه ليتأكد بالأ يراه أحد بالأسفل ليبدأ مهمته في النزول، فجأة سمع صوتًا خافتًا من خلفه يحدثه ويقول له:

- مملكتنا جميلة أليس كذلك؟

أجفل مراد حين سمع الصوت فالتفت خلفه فوجده فتى في الثالثة عشرة من عمره ويلبس ملابس مصنوعة من فراء الخراف، ابتلع مراد ريقه فسأله بقلق:

- من أنت؟

لاحت على شفتي الفتى ابتسامة ساخرة فقال:

- هذا السؤال من المفترض أن يكون موجهاً مني لك أنت.

طالعه الفتى بنظرات متعجبة فضيّق عينيه وسأله بحيرة:

- ما تلك الملابس التي تلبسها؟ تبدو غريباً عن مملكتنا رغم أنك

تُشبهنا في الشكل؟ فمن تكون؟

أطبق مراد شفتيه فقال له:

- لو أخبرتك من أنا، تعدني أن تكتم هذا عني؟
- أعدك؛ إن صدقتني القول.
- هز مراد رأسه مبتسمًا فقال:
- أنا بشري من كوكب الأرض، حملتني العقبان إلى هنا في مهمة استغاثة.

عقد الفتى حاجبيه وقال بازدراء:

- أنت تحملك العقبان؟ مَنْ تكون حتى تحملك العقبان إلى هنا في مهمة؟

- أنا صديق أوناسيو، نحن أربعة تم اختيارنا لتلك المهمات، أنا وأوناسيو وشقيقته إيمان وشخص رابع معنا اسمه مختار.

بدأت على وجه الفتى علامات الاندهاش حين سمع اسم أوناسيو، جذب مرادًا من يده وذهب به عند صخرة كبيرة من صخور الجبل فأختبأ أسفلها فقال له بصوت متأثر:

- كنت أعلم هذا، لست وحدي، كثير من الشرفاء هنا كانوا يعلمون هذا، ثمة أمر عظيم قد حدث في الشرق، الحروب الطاحنة التي اندلعت في الجو من قبل العقبان وبقيّة الطيور أثارت الكثير من التساؤلات لدينا.

ران على الفتى صمت خفيف ثم تابع:

- لا بدّ أن العقبان قد أحضرتك لمملكنا لتستغيث بنا.

غضن مراد جبينه فسأله بفضول شديد:

- ولماذا أنتم دون الجميع؟

- لأننا أقوياء جدًّا وذوو بأس شديد.

- ما هي مملكتكم تلك؟

- مملكتنا تُسمى مملكة الحصن، وهذا لأننا نتحصن بقلب
الجبل هنا ولا نخرج منها إلا في الصيف.

- ولماذا لا تخرجون إلا في الصيف؟

صمت الفتى هنيهة ثم ابتسم بسخرية فقال:

- لا نخرج حين تغطي الثلوج جزيرتنا، حاكم المملكة أقنع كل
سكانها أن تلك الثلوج هي لعنة من السماء، فلا نخرج طوال فصل
الشتاء.

- تقول إنكم أقوياء وتخافون من الثلوج!

- كل شيء فينا قوي إلا عقولنا.

- إذًا فأنتم لستم أقوياء.

هز الفتى رأسه بيأس فقال بنبرة حزينة:

- هكذا يقول أبي أيضًا، وهكذا يقول كثير من الشرفاء
بمملكتنا.

- مَنْ هؤلاء الشرفاء؟

- مجموعة من الناس بمملكتنا يرفضون سياسة حاكم المملكة الجديد ويخططون للإطاحة به، لقد كنا من قبل مملكة عظمى، كنا نعمل في الصيد والزراعة والصناعة، فمات حاكمنا منذ عشرة سنوات فورث ابنه «تحوت» الحكم من بعده وقد أحدث فينا ما تراه الآن ويجبسنا طوال فصل الشتاء داخل هذا الجبل كما ترى.

- ومن هذا الشخص المقيد بإحدى الساحات بالأسفل والناس يحتاطون به؟

- إنه بشري، كانت تحمله الصقور فألقت به داخل المملكة.

أجفل مراد حين سمع كلمة بشري، فقد ظن أن المقصود هو مختار، لأنه كان الوحيد الذي لم يرَ العقبان تحمله، سأله مراد بفضول شديد:

- من هذا البشري؟ كيف هو شكله.

- هو يرتدي ملابس شبيهة بملابسك تلك.

- تقول إن الصقور هي من ألقت به داخل المملكة؟

- نعم، فلو كانت العقبان هي من كانت تحمله لاحترمه الناس وساعده، فالعقبان هنا بكوكبنا مقدسة.

- إذًا سأذهب للناس وأخبرهم بأن العقبان هي من حملتني ولن يجرؤ أحد على الاقتراب مني.

ضحك الفتى الصغير بسخرية فقال:

- ومَن سيصدق كلامك؟ هذا البشري شاهده كثير من الناس وهو تحمله الصقور وتلقي به في المملكة.

زفر مراد وقال بحنق:

- أريد دخول مملكتكم تلك لأتعرّف على هذا البشري، فربما أعرفه.

هز الفتى رأسه بهدوء فقال:

- لو دخلت بملابسك تلك سينكشف أمرك، سأذهب لأجلب لك بعض الملابس الخاصة بنا فانتظرنى هنا ولا تبرح مكانك مهما حدث.

نزل الفتى من الجبل بخطوات مختلصة ودخل للمملكة، بعد مدة قليلة عاد ومعه بعض الملابس المصنوعة من فراء الخراف، قام مراد بنزع ملابسه ووضعها داخل حقيبته وخبأ الحقيبة خلف إحدى الصخور وارتدى الملابس التي أحضرها له الفتى الصغير وقد كانت واسعة جدًا وطويلة جدًا، ضحك الفتى حين رآه فقال ضاحكًا:

- تلك ملابس أبي السيد شهاب، إنه أضخم منك جسدًا وأطول منك قامة، أنت بجانبه كالعصفور.

بدأ في النزول من الجبل، كان الفتى الصغير ذكيًا جدًا ونبيهاً لدرجة كبيرة، فقد كان يعرف أماكن القوة عند الحراس الذين يحرسون مخارج المملكة ومدخلها ويعرف الأماكن التي يقل فيها عدد الحراس، وساعده على ذلك فطنته ودهائه، استطاعا الدخول للمملكة

واختلطا بالناس بداخلها وبدا مراد وكأنه واحد منهم، كان مراد يهرول بخطوات مسرعة باتجاه الساحة التي يحوطها الناس بشكل دائري، وجد شابًا يرتدي ملابس البشريين ومقيد في كلتا يديه وذراعاها مرفوعان لأعلى وهو ناكس رأسه للأرض، كان الجميع يضحكون ويهلمون ويقذفونه ببقايا الطعام بكل قسوة، اقترب أحدهم إليه فرفع وجهه وهو يسخر منه، حين رأى مراد وجه الشاب شهق شهقة اختلجت لها أعضاؤه وهو يفغر فاه وكاد يخترق الساحة ويهرع إليه لولا أن أمسكه الفتى الصغير من ملابسه بقوة ومنعه من الذهاب إليه، انهمرت الدموع من عيني مراد فنظر للفتى الصغير وقال له بصوت متحشرح:

- إنه أخي «مازن».

قال له الفتى وهو ما زال متشبثًا بملابسه:

- ذهابك إليه يعني انضمامك إليه في الأسر وستسجنان معًا، هيا جفف دموعك تلك لتلا يراها أحد فيعرف أنك بشري.

- أريد التحدث معه، أريد معانقته كثيرًا، إنه أخي.

- ستفعل، أعدك بهذا، إن أبي تربطه علاقة وطيدة بحراس السجن وسيساعدك في ذلك.

صاح أحد الحراس وطالب من معه من الحراس بفك قيوده والذهاب به إلى السجن.

انسحب الفتى الصغير من بين الناس وسار مع مراد نحو المنطقة السكنية، دخلاً أحد البيوت المتواضعة المبنية بواسطة قطع الصخور الصغيرة المقطعة من الجبال، كان رجل وامرأة يجلسان في فناء البيت، أجفلا حين رأيا مرادًا بصحبة ابنهما، صاح فيه أبوه بنبرة صارمة وقال له:

- من هذا يا هلال، وما سبب ارتدائه لملابسي ودخوله لبيتنا؟

- إنه بشري يا أبي.

اتسعت عينا أبيه دهشة وذهولاً وقال له بحنق:

- أتأتينا بكارثة وتُدخلها بيتنا؟ أهذا جزاء حريتك التي وهبتها لك وتركتك تخرج من المملكة وتعود إليها متى تشاء ووقتاً تشاء؟

نظر الفتى لمراد هنيئة ثم عاد ونظر لأبويه فقال:

- إنه ليس بشرياً عادياً، إنه هنا في مهمة استغاثة، لقد حملته العقبان وألقت به في جزيرتنا ثم اكتشف أن الشاب الذي ألقت به الصقور صباح اليوم هو شقيقه.

اقترب السيد شهاب إلى مراد فسأله بفضول شديد:

- لماذا حملتك العقبان أنت والصقور هي من حملت شقيقك؟

- لا أدري، لقد كنت هنا من قبل فأصببت شقيقة أوناسيو بجرح في كتفها فعدنا لكوكبنا لننقذها، وحين عدت علمت أن أمي قد

ماتت حزنًا عليّ وأن شقيقي مازن قد هاجر لإحدى الدول الأوروبية،
لا أعرف كيف دخل هنا.

هز السيد شهاب رأسه برفق فقال بصوت هادئ:

- ذلك السؤال سيجيب عليه شقيقك.

طلب السيد شهاب من ابنه هلال البقاء برفقة أمه داخل
البيت وعدم الخروج مهما حدث، خرج من البيت ومراد يتبعه، وصلا
لبناء عالٍ ويتواجد أمام باب حارسان يحرسانه، طلب من مراد
انتظاره بعيدًا عنهما فاقترب إليهما وتحدث إليهما فأفسحا له طريق
الدخول، أشار لمراد بأن يتبعه، دخلا معًا ونزلا للقبو أسفل البناء،
قام أحد الحراس بفتح باب الغرفة التي يتواجد بها مازن، كان مازن
متكورًا في جلسته ومنزويًا في إحدى زوايا الغرفة، هرول إليه مراد
فجلس بجانبه وهو يعانقه والدموع تنهمر من عينيه بغزارة، صارا
يعانقان بعضهما كثيرًا واختلطت دموعهما وأحزانهما معًا، سأله مراد
معتبًا:

- لماذا دخلت هنا يا مازن؟

استجمع مازن بعض قواه فأجابه بصوت واهن:

- لقد عاهدت أمي حين كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة بأن أدخل
الكهف وأعيدك للقربة.

- ولكن الناس بالقربة أخبروني بأنك هاجرت لإحدى الدول
الأوروبية!

صمت مازن هنيهة ثم تنهد وقال:

- لقد قمت بخداعهم لئلا يظنوا أنني قد دخلت الكهف لو
اختفيت من القرية فجأة، فلو أخبرتهم بأنني أنوي الدخول للكهف
كانوا سيمنعونني بالتأكيد.

اقترب السيد شهاب إلى مازن وسأله بفضول شديد:

- هذا يعني أنك دخلت الكوكب هنا منذ أكثر من ستة أشهر،
أين كنت طوال تلك المدة؟

أغمض مازن عينيه فأطلق تهيدة طويلة اختلجت لها أعضاؤه
فأنشأ يقول:

- حين دخلت الكوكب هنا ظننت أنني قد دخلت لدولة أخرى
مجهولة، أخطأت التقدير وسرت ناحية الغرب في الصحراء القاحلة
لمدة ستة أيام متواصلة لا أتريث فيهم ولا أتند لعلي أبلغ ما أرجوه
وأجد من يساعدني في البحث عن مراد، أصبت بحمي شديدة بسبب
الشمس كادت تودي بحياتي لولا أن أنقذني أحد التجار وأخذني معه
لإحدى المغارات التي كان يعيش فيها، وبعدما أبلت من مرضي بعض
الإبلال طلبت منه مساعدتي في البحث عن أخي فأخبرني بأن ثمة
حروبًا تدور بالخارج بين مملكة مورিকা ومملكة الجواسيس، طالبني
بالانتظار حتى تنتهي تلك الحروب ثم أخرج، وبعد انتهاء تلك الحروب
ذهبت نحو مملكة مورিকা فعرفت من سكانها حقيقة فارس وإيمان
أخته وعرفت أيضًا بأن أخي مرادًا كان في صف فارس وأخته، فطلبت
الخروج من المملكة فرفضوا، بقيت محتجزًا داخل المملكة وكأني

أسيّرُ لديهم، وبعدما جاء السيد ناصر والسيد سليمان والشخص الثالث الذي يخفي نفسه ظننت أنهم سيتركونني أعود إليك، ولكنني لقيت منهم معاملة سيئة، أسوأ حتى من معاملة راع وموراس لي، طلبت منهم بأن يتركونني أخرج من مملكتهم أو أن يقتلونني لأستريح، استجاب السيد ناصر لمطالبي أخيراً وأخبرني بأن قائدهم سيجعل الصقور تحملني إلى حيث يتواجد أخي مراد.

قاطعته مراد متسائلاً:

- أيعرفون أنني هنا في تلك الجزيرة؟

- نعم، ويعرفون أيضاً أن العقبان أرسلتك إلى هنا في مهمة استغاثة، يعرفون كل المهمات التي أرسلتم فيها جميعاً ويعرفون مكان كل شخص منكم.

- من هذا الشخص الثالث يا مازن؟

- لا أعلم يا أخي، لم يره أحد سوى السيد ناصر والسيد سليمان، لا يُظهر نفسه لأحد ولا يتحدث مع أحد، يُطلقون عليه لقب «خادم سينيت»

- ولماذا يُخفي نفسه؟

هز مازن كتفيه وقال:

- ربما يفعل ذلك للمراوغة، إنه يستدعي كل يوم الكثير من الحيوانات كالنمور والفيلة والضباع والفهود والثعالب وغيرها، وقام باستنساخ المزيد من وحوش جبال المنيف.

غضن مراد جبينه فسأله متعجبًا:

- ولم يفعل ذلك؟

- يستعد للمعركة العظمى.

- المعركة العظمى!

- نعم، ستجتمع بين كل من ولاءه من شعب مملكة مورिका ومملكة الغوائل وكل ما جمعه من حيوان وطائر ووحش مع كل أسياد الكوكب الذين رفضوا الخضوع له.

- من هم أسياد الكوكب؟

- العقبان أسياد الجو والأسود أسياد الغابات وفارس سيد الكوكب والذين اختارهم العقبان في مهمات الاستغاثة، فهم أقوى الناس في هذا الكوكب.

نهض مراد من مكانه وصار يروح ويعيء في الغرفة وهو يضع يده على لحيته ويفكر بعمق، توقف ونظر إليهما فقال:

- الآن عرفت سبب احتراق كتاب راع وموراس، والآن عرفت السبب وراء مهمات الاستغاثة تلك.

ران عليه صمت خفيف فأردف قائلاً:

- إن العقبان لم ترسلنا في مهماتنا بشكل عشوائي، لقد اختارت أقوى الشعوب وأشدها بأسًا من بين أكثر من ألف جزيرة

موجودة في بحر الغياهب وأرسلتنا إليهم ليكونوا لنا عوناً في معركتنا تلك.

دخل أحد الحراس فتحدث مع السيد شهاب بصوت خافت فهزله السيد شهاب رأسه فخرج الحارس من الغرفة وعاد لمكانه، أخبرهما بأن الحارس يطلب منهما الخروج لأن وزير الحاكم سيأتي بعد قليل في زيارة لملازم لاستجوابه.

نظر مراد للسيد شهاب نظرة تشي بالكثير فقاطع نظراته قائلاً:

- لا تخف، لن يمسه بسوء، سأطلب من الحراس الاهتمام به، لو حررناه الآن سيوقعنا هذا في المشكلات مع الحاكم وبعض مؤيديه، لنبق الأمر سرّاً بيننا الآن وستخرج أنت معي لنبدأ في مهمتنا وإقناع الجميع بالتحرك نحو الشرق تنفيذاً لأمر العقبان ومنع الخطر الذي يوشك أن يطولنا نحن أيضاً عما قريب.....

«فارس»

«جزيرة ريبال»

توقف القناع عن الاهتزاز فترعته من على وجهي ووضعته داخل الحقيبة، كان العُقاب الذي يحمل نيشيا يحلق بجانبني، وجدت نيشيا تنظر إليّ نظرات تشي بالكثير وكأنها تود أن تسألني عما أخبرني به القناع، فطنت لنظراتها فقلت لها بصوت عالٍ:

- لقد عرف مراد بالمعركة العظمى، لقد وجد شقيقه بإحدى الجزر وكان شقيقه محتجزاً داخل مملكة مورिका، لقد أخبره بكل شيء.

ابتسمت نيشيا وهزت رأسها بهدوء فتابعتُ قائلاً:

- لقد توقف القناع عن الاهتزاز يا نيشيا وهذا يعني أننا اقتربنا من الوصول لجزيرة ريبال...

أخفضت العقبان من سرعتها وصارت تدنو من سطح البحر تارة وتناهى تارة أخرى، ظلت تكرر الأمر مرات عدة حتى وصلت لأعلى كوخ صغير في جزيرة كبيرة خضراء مليئة بالأشجار المتنوعة والعشب الكثيف، كان الكوخ بجانب البحر وكان مضيئاً بواسطة القناديل الزيتية، هبطت بنا العقبان أمام الكوخ فأصدرت صفيراً مهيئاً تبعه صوت زئير الأسود بالغباء وكأنهم يتبادلون التحية، خرج من الكوخ عجوزٌ يعتمد على عصاً خشبية في يد وتتشبث في يده الأخرى طفلة

صغيرة، أجفلت الطفلة الصغيرة وصارت ترتجف من شدة الرعب حين رأتنا أمام الكوخ والعقبان تحتاط بنا من كل جانب وتدور حولنا في مشهد مهيب، هرعت إليها نيقيا فاحتضنتها وصارت تربت على ظهرها وطمأنتها بأننا لن نمسّها بسوء، بينما كان العجوز يطالعنا بنظرات حائرة ومتعجبة، اقتربت إليه فمددت إليه يدي لأصافحه، نظر ليدي هنيئة ثم صافحني وعلامات الدهشة بادية على محياه ولم ينبس بكلمة، قطع صمته وذهوله فسألني متعجبًا:

- من أنتم؟ ولماذا تحملكم العقبان إلى هنا؟

ابتسمت وقلت له:

- لقد حملتنا العقبان إلى هنا في مهمة استغاثة.

عقد العجوز حاجبيه متعجبًا فقال:

- بمن تستغيثون؟ لا يسكن في تلك الجزيرة سوى أنا وحفيدتي تلك، وأحيانًا يأتينا بعض اللصوص.

- تقول إنك تسكن أنت وحفيدتك لوحكما هنا، فماذا يسرق اللصوص إذًا؟

نظرت للكوخ الصغير خلفه فأردفت ساخرًا:

- أم يطمعون في سرقة هذا الكوخ؟

أطلق العجوز تهيدة طويلة فقال بنبرة يشوبها حزن شديد:

- يسرقون الأسود.

- وماذا يفعلون بها؟

- يقيدونها ثم يضعونها في أقفاص حديدية وينقلونها إلى بعض الجزر ويبيعونها بأموال باهظة.

غضنت حاجبي فسألته متعجبًا:

- يأكلون لحومها؟

قاطعت نيقيا حديثنا فأجابت وهي تمسد شعر الطفلة الصغيرة:

- يستخدمونها في العروض يا فارس، ومنهم من يستخدمها في المسابقات، يضعون الأسد داخل قفص حديدي كبير ويدخلون عليه المتسابق وهو متوشح بسيفه، وهي مسابقة انتحارية، إما أن يكون المتسابق وجبة للأسد أو أن يكون الأسد هو ضحية تلك المسابقة الدنيئة.

نظرت للطفلة الصغيرة فسألته مستفسرًا:

- أين أبوها وأمها؟

- لقد ماتا وهما يدافعان عن الأسود هنا.

- قتلها لصوص الأسود؟

هز العجوز رأسه حزنًا وكمدًا فشعرت حينها بغصة تعتلج في صدري، لقد حطَّ على قلبي حزن شديد حين سمعت منه ذلك،

اقتربت للطفلة الصغيرة فجئوت أمامها على ركبتيّ وضممتها إليّ
وانفجرت باكياً.

اقترب إليّ العجوز فربت على كتفي وسألني قائلاً:

- مَنْ أنت؟

- أنا أوناسيو.

اتسعت عينا العجوز دهشةً وذهولاً فقال متعجباً:

- أنت أوناسيو ملك الكوكب؟

هزرت له رأسي فتابع قائلاً:

- وما سبب تواجدك هنا؟

- لقد جئت لأروض الأسود هنا لتساعدنا في حربنا في الشرق.

- حتى وإن كنت ملك الكوكب وتمتلك قوى خارقة، أظن أن

ترويض الأسود أمر سهل؟

نزعت حقيبتي من خلف ظهري ففتحتها وأخرجت منها السيف،

فغر العجوز فاه مندهشاً ومذهولاً فقال متعجباً:

- سيف الميأس! لقد تحدثت الأساطير عنه وسمعنا عنه كثيراً

من قبل، كنا نظن أن هذا الأمر هو ضرب من الخيال ولا وجود

لسيف يتم بواسطته ترويض الأسود.

نظر إليّ العجوز فتابع قائلاً:

- هل ستبدأ في ترويضها الليلة؟

- سنبيت تلك الليلة هنا وفي الصباح سنعمل في صنع ثلاث سفن من أخشاب الأشجار المتواجدة هنا، وبعد الانتهاء من صناعة السفن سأقوم بترويضها والذهاب بها نحو الشرق.

نظر العجوز للرفاق من خلفي ثم عاد ونظر إليّ فغضن حاجبيه فقال:

- ولكن هذا الأمر ربما قد يستغرق معكم مدة شهر أو أكثر، خمسة أفراد فقط يصنعون ثلاث سفن!

- سنعمل بكل طاقتنا، لن نتوقف حتى ننجز مهمتنا.

نظر العجوز للطفلة الصغيرة فقال لها:

- اذهبي معهم يا أسمايا لكوخ والديك ليبيتوا فيه ليلتهم، فهو واسع وسيسعهم جميعاً.

تعجبت حين سمعت اسم الطفلة، اقتربت إليها فجنوت على ركبتي فطبعت قبلة كبيرة على خدها وقلت لها:

- إن اسمك على اسم أمي، وأنتِ تُشبهينها كثيراً يا حبة السكر وقطرة العسل.

نطقت نيقيا وقالت موجهة كلامها للعجوز:

- ألا تتركها معي الليلة لتبيت معي؟

هز العجوز رأسه مبتسمًا فدلقت الطفلة لداخل الكوخ وجلبت قنديلًا زيتيًا وسارت أمامنا تتقدمنا ونحن من خلفها، مررنا من على جسر مصنوع من جذوع الأشجار ويمر من فوق نهر كبير يتدفق ماؤه ويضطرب ويصب في نهايته في بحر الغياهب في منظر بديع وساحر، وصلنا لكوخ كبير مصنوع من أخشاب الأشجار فدخلت الطفلة أسمايا لداخل الكوخ وقامت بتعليق القنديل الزيتي في أحد جوانب الكوخ وانزوى كل منّا في ركن والتصقت الطفلة أسمايا بنيقيا وغلما النعاس فنامت ونمنا بعدها بلحظات قليلة....

صوت صفير العقبان يصدر من كل مكان، أصوات العصافير بالجزيرة وزئير الأسود أزال السكون الذي كان يسيطر على تلك الجزيرة في هذا الوقت من الصباح، أرسلت الشمس أشعتها على الجزيرة فغمرتها بالنور، استيقظنا من نومنا على صوت زئير أسد خارج الكوخ، كنا ننظر لبعضنا البعض في تعجب وذهول شديدين، نظرت نيقيا من حولها فقالت صارخة:

- الطفلة! أين ذهبت الطفلة؟

كان سراج يضيّق عينيه بسبب استيقاظه من النوم للتو فقال بنبرة متسرعة:

- هل صوت الأسد الذي يصدر من الخارج هو صوت الأسد الذي أكلها؟

اختلفت قلوبنا جميعًا حين قال سراج كلماته تلك فنهضنا من أماكننا بسرعة وحمل كل منا سيفه، خرج سراج من الكوخ أولًا ثم

تبعه أبريس وأبيدوس وكذلك فعلت أنا ونيقيا، حين خرجنا من الكوخ وقفنا مشدوهين ومذهولين من هول ما رأينا!

كانت الطفلة الصغيرة أسمايا تحمل في يدها شبل صغير وتقفه لأعلى وتلتقطه ومجموعة من الأسود يدورون حولها ويمرحون معها في مشهد عجيب وغريب، كان سراج قريباً من الأسود وهو يقف ساكناً وقد بدا عليه الرعب الشديد، نظر أحد الأسود إلى سراج الذي كان يُخبئ سيفه خلف ظهره وترتجف شفتيه، اقترب الأسد نحو سراج وهمّ لهاجمه فصرخت الطفلة الصغيرة قائلة:

- لا يا ميرا، إنه صديق.

كانت شفتا سراج ترتجفان بصورة مضحكة، قال بصوت متقطع:

- نعم، أنا صديق يا ميرا، أنا صديق لأسمايا منذ عشرين سنة.

أطلقت ميرا زئيراً عاليًا فأردف سراج بنبرة متسرعة:

- أنا صديقها منذ خمس عشرة سنة.

عادت ميرا لزئيرها فاقتربت الطفلة الصغيرة لسراج وقالت له ضاحكة:

- عمري عشر سنوات فقط.

أصبنا جميعاً بنوبة ضحك هستيرية من الموقف الحاصل أمامنا، سقط أبريس على الأرض من شدة الضحك، كان يضحك

بصخب وهو يرفع رأسه لأعلى، فضحكنا جميعًا على موقف سراج ولضحكات أبريس الغريبة، فجأة صدرت أصوات أجراس، كانت أصوات الأجراس عالية جدًا فهربت الأسود ودخلت للغابة، أجفلت الطفلة الصغيرة فهرولت نحو نيقيا والتصقت بها، طمأنتها نيقيا وصارت تربت على كتفها برفق لتهديها، سألتها نيقيا قائلة:

- هؤلاء هم الصيادون أليس كذلك؟

هزت الطفلة الصغيرة رأسها برفق ولم تنبس ببنت شفة، ظهر العجوز وهو يقترب إلينا، كان يسرع من خطواته فوصل إلينا وهو ينهج فقال بنبرة قلقة:

- لقد جاء الصيادون في جماعات كبيرة اليوم عكس السابق، لقد جاءوا في خمس سفن كبيرة وكأنهم قد جاءوا اليوم من أجل احتلال الجزيرة لا من أجل الأسود، أو كأنهم قد جاءوا بسفنهم ليحملوا عليها كل الأسود المتواجدة هنا أو جُلها.

نظرت لأبريس ولأبيدوس فقلت لهما:

- هل تحملان معكما سهامًا؟

هز أبيدوس رأسه فقال:

- من أجل هذا جلبناها معنا.

نطقت نيقيا فقالت:

- وأنا أيضًا جلبت معي المزيد منها، ولكن، ما هي خطتك؟

نظرت إلى أشجار الخيزران العالية من حولي ثم عدت ونظرت إليهم فتهتدت وقلت:

- حين يبتعد الصيادون عن سفنهم ويدخلون الغابة سيتسلق أبريس وأبيدوس الأشجار ويقومان بتصويب سهامهما على الصيادين، سيركزان على رؤوسهم ومنطقة العين بالتحديد، سنحاول التخفي لئلا يكتشفوا أمرنا، جاءوا ليصطادوا الأسود فسنصطادهم نحن ليدركوا بشاعة الأمر وليكن ثأراً لوالد ووالدة الطفلة أسمايا التي حُرمت من والدها بسبب مطامعهم الدنيئة.

نظرت لنيقيا وقلت:

- ستذهيبين معي أنا وسراج إلى الشاطئ لتحبي ظهرينا.

نظر إليّ سراج نظرة متعجبة فأردفت قائلاً:

- ستذهب معي إلى السفن ونقوم بإنزال أشرعتها وفك مجاديفها لئلا يتمكنوا من الفرار بها، إن امتلكتنا تلك السفن فلن نكون بحاجة لصنع السفن.

هز الجميع رؤوسهم فانطلق أبريس وأبيدوس نحو الأشجار ذات الأوراق العريضة وصارا يقطفان من أوراقها ويثبتانها على جسمهما واستطاعا التخفي وصعد كل منهما لقمة شجرة من أشجار الخيزران في انتظار إشارتي، ذهبت أنا وسراج للشاطئ وبدأنا في إنزال أشرعة السفن وفك مجاديفها ونيقيا تراقبنا من مسافة قريبة وتشير لنا بيدها أن الأمور تسير كما هو مخطط لها، حين انتهينا من مهمتنا

عدنا للغابة خفية فأشرت لأبريس وأبيدوس بيدي فبدأ بإلقاء سهامهما على الصيادين وصارت السهام تهوي عليهم وتُسقطهم الواحد تلو الآخر، حالة من الذعر أصابت الصيادين فبدأوا بالنزوح من الغابة والاتجاه نحو الشاطئ، كانت نيثيا تقذف سهامها على الفارين منهم وهي مختبئة، أصيب الفارون منهم بالذهول حين رأوا أشرعة السفن ملقاة على ظهر السفن، صاحوا جميعاً قائلين:

- إن تلك الجزيرة ملعونة وتسكنها الأشباح، فلنهرب قبل أن تصيبنا لعنتها.

قفز جميع الفارين في البحر وابتعدوا عن الجزيرة، حملنا جثث القتلى وأجساد المصابين وألقيناها في البحر، ذهبنا صوب السفن وبدأنا في إعادة تثبيت أشرعتها ومجاديفها، أخبرني العجوز بأن ما رأيناه صباح اليوم مع الطفلة أسمايا من أسود هي أسود مدربة ومرؤضة وتسمى في عُرفهم «الأسود الصديقة»، أخبرني بأن وكر الأسود موجود في شرق الجزيرة في سهل منخفض بجانب البحر وهي موجودة في هذا السهل بكثرة ولا تخرج منه إلا لصيد فرائسها ثم تعود إليه.

تركت حقيبتني في كوخ العجوز وحملت سيف الميأس وانطلقنا جميعاً نحو الشرق، وصلنا للسهل الذي تتواجد به الأسود وقد كان يعج بها، كان السهل بمساحة شاسعة يبدأ من عند هضبة كبيرة كنا نقف عليها وينتهي عند بحر الغياهب، كان يحتاط بالسهل سور طبيعي من الصخور والأكام، كان منظر الماء القادم من النهر وهو

يتدفق ويصب في السهل على شكل شلالات منظرًا بديعًا يسر المتأمل والرائي، دمدمة أمواج البحر المتواثبة على صخور الشاطئ مع صوت زئير الأسود جعلنا نقف أعلى الهضبة وقوف الذاهل والمشدود من جمال ما يرى من سحر الطبيعة وجمالها، صوت خير الماء الهادئ في الجداول والغدران وتحليق العقبان الغادية والرائحة فوق السهل أدخل السرور لقلوبنا وأشعرنا بالسعادة والطمأنينة، وكأن هذا السهل مع كثرة العشب الأخضر فيه وكثرة الزهور واختلاف أنواعها ما بين الحمراء والصفراء والبيضاء هو روضة من رياض الجنة، قطع سراج ذهولي متسائلًا:

- هل ستذهب إليهم دون حراسة منّا أم سنرافقك؟

- سأذهب بمفردي، لو رأتنا الأسود متوشحين بسيوفنا تلك ستهيج وربما ستهاجمنا.

اقتربت إليّ نيثيا فقالت برجاء:

- سأرافقك يا فارس، فنحن لا نعرف هل ذلك السيف حقيقي أم لا، وإن كان السيف حقيقيًا فلا نعرف كيفية ترويضها به وربما تهاجمك الأسود قبل أن تهتدي لخطة ترويضها.

ابتسمت ابتسامة هادئة فقلت لها:

- لا تقلقي عليّ يا نيثيا، فإني قد صرت اليوم عارقًا بأمور لم أكن أعرفها من قبل، منذ دخولي هنا ومرافقتكم تعلمت منكم الشجاعة والإقدام وحسن التصرف، لولاكم ما كنت أخطر لأنجز

مهمة كهذه ولو بسطوا لي الأرض من تحتي ذهبًا، كنت في السابق أخشى الموت، أما اليوم فقد صرت أقدم على الموت أكثر من إقدامي على الحياة، تعلمت من أبي وأمي ومنكم أن الموت بشرف خير من العيش في ذل ومهانة.

ران على نيقيا صمت خفيف ثم تنهدت طويلًا وقالت برجاء:

- إن كان هذا ما تراه فلا يسعني سوى أن أقول لك انتبه لنفسك جيدًا يا فارس.

أمسكت السيف بيدي اليمنى وأحكمت قبضتي عليه وأنا أخفضه لأسفل، بدأت بالهبوط من الهضبة ونزلت للسفل، كان السهل يعبق برائحة الزهور الجميلة كالبنفسج والرنجس وزهور اللوتس، لم أكثرث لجمال تلك الزهور ولا لرائحتها الأخاذة، كانت ضربات قلبي تتواثب وشعرت بأن قلبي سيخرج من بين أضلعي، كنت أبتلع ريتي بكثرة حتى جف حلقي من شدة التوتر الذي شعرت به، فجأة خرج أمامي من بين العشب الكثيف أسد ضخم أرعبني شكله وضخامته، أصدر الأسد زئيرًا عاليًا وكأنه يدعو رفاقه على وجبة الغداء التي بالطبع في نظره ستكون أنا، قبضت بيدي على سيف الميأس فرفعته عاليًا فوجدت الأسد يجثو على قدميه الأماميتين وهو مطرق رأسه إلى الأرض، شعرت بسعادة عارمة تجتاحني حين رأيت منظره، تردد صوت زئير الأسود في كل مكان وسمعت صوت خطوات أقدامها وهي تدق الأرض دقًا، هرولت مسرعًا من بين العشب وذهبت لمكان واسع وخالي من العشب فوجدت المئات من الأسود يحتاطون

بي من كل جانب، رفعت السيف عاليًا فجثت الأسود كلها على الأرض وأطرقت رؤوسها في مشهد مهيب وخيالي، مشيت عائداً إلى الهضبة والأسود تتبعني من خلفي، رأيت السعادة على وجوه الرفاق وهم ينظرون إليّ وإلى الأسود من خلفي في ذهول وتعجب شديدين، حين وصلت إليهم وجدت نيقيًا تفغر فاهها متعجبة فقالت بنبرة تنم عن ذهول شديد:

- إن ما يحدث هذا يا فارس لهو من الخيال، لو لم أشهده الآن وأراه رأي العين ما كنت سأصدق هذا على الإطلاق.

سرنا باتجاه السفن والأسود تتبعنا من خلفنا في صفوف منتظمة، وصلنا للسفن فوجدنا العجوز وحفيدته أسمايا في انتظارنا خارج الكوخ، لم تختلف نظراتهما عن نظرات الرفاق، كانا مذهولين ومشدوهين من هول ما يريانه، رافقنا العجوز وسار معنا باتجاه السفن وبقيت الطفلة أسمايا بجوار الكوخ ولم تبرح مكانها، تفرقت الأسود في السفن الخمس، كان أبيدوس ينظر إليّ نظرات استغراب، هزرت له رأسي مستفسراً فقال متسائلاً:

- هل سنغادر الآن؟

- نحن الآن جاهزون للمعركة العظمى، أما إيمان ومراد ومختار فليس بعد، نريد خوض المعركة بصفوف مكتملة وبقوة متكاملة مثلما تريد العقبان، فهي أرسلتنا في مهمات لخوض المعركة مجتمعين.

قالت نيقيًا بنبرة متعجبة:

- تعني أننا سنبقى هنا على تلك الجزيرة حتى يخبرك القناع
بتحركهم؟

هززت رأسي فعدت جبينها وأردفت متسائلة:

- فلماذا إذاً جمعت الأسود لداخل السفن اليوم، ألا كنت
انتظرت حتى تتضح لك مصائر المهمات؟

- خشيت أن يحدث شيء مفاجئ يا نيقيا، فلو لم أستطع
ترويض الأسود بالسيف اليوم، ما كان أمامي متسع من الوقت
لأتصرف.

- وماذا لو تأخر الأمر وتأخرنا؟

نظرت للسماء من فوق وهي ممتلئة بالعقبان وهي تطوف في
جماعات حول السفن وتصدر صفيراً مهيباً فترد عليها الأسود بزئيرها
فطارت العقبان مبتعدة عن الجزيرة وتفرقت جماعات في الأنحاء
الثلاث، لاحت على وجهي ابتسامة كبيرة فأجبته قائلاً:

- لن يتأخر الأمر يا نيقيا، ولن نتأخر، ستتولى العقبان الأمر،
أنا أثق في ذلك.

فجأة تناهى إلى أسماعنا صوت صرخات قادمة من كوخ
العجوز، هرعنا إلى الكوخ مسرعين وقبل أن نصل إليه وجدنا الطفلة
الصغيرة أسمايا تخرج من الكوخ وقد امتقع لون وجهها وتزدرد ريقها
بصعوبة شديدة وتشير بيدها لداخل الكوخ، اقترب إليها العجوز
فوضع أذنه على فمها وسألها:

- ما الأمر يا أسمايا؟

همست إليه بشفتين ترتجفان وبصوت خافت فرفع العجوز
رأسه تجاهي فقال:

- تقول إن شيئاً ما يهتز بقوة داخل الكوخ.

هرولت مسرعاً نحو الكوخ فدخلته فوجدت الحقيبة تهتز
اهتزازاً شديداً، فتحت الحقيبة وأمسكت بالقناع وهو يهتز فنظرت
لنيقيا بالخارج فهزت لي رأسها برفق فوضعت القناع على وجهي
فالتصق به وأخذني إلى حيث يريد....

«مختار»

كان مختار يجلس في غرفة كبيرة مخصصة للضيوف كانت في مقدمة البيت، كان ينظر لوالد ماسيليا ووالدتها نظر الذاهل المشدوه، فقد كان والدها أسمر الوجه بشعر أسود يتخلله بعض الشعر الأبيض وبعينين سوداوين وكان طويل القامة وقوي البنيان، أما والدتها فكانت ببشرة حنطية وشعر أسود وعينين سوداوين، ازدحم رأس مختار بكثير من التساؤلات! أذهله اختلاف عائلة ماسيليا عن كل سكان الجزيرة هنا، فقد كان كل سكان الجزيرة يمتلكون بشرة بيضاء كالحليب وشعرًا أشقر وعيونًا خضراء، وأذهله أيضًا اختلاف ماسيليا عن عائلتها وكيف تمتلك هي بشرة بيضاء وشعر أشقر وعينان خضراوان عكس والدها ووالدتها وأخيها أمناي، قطع والد ماسيليا شرود مختار فسأله قائلاً:

- ما اسمك يا بني؟

ابتلع مختار ريقه وقبل أن يجيبه قالت ماسيليا بنبرة متسعة:

- اسمه الأسمر يا أبت.

ضيق والدها عينيه فعاد وسأله مجددًا:

- تقول ماسيليا إنك قدمت من كوكب الأرض لتنفيذ مهمة

هنا، فمن أي البلاد أنت بكوكبكم؟

أجابه مختار بنبرة هادئة:

- من ليبيا.

رفع حاجبيه متعجبًا فعاد وسأله:

- من أي المدن بليبيا؟

عقد مختار جبينه فسأله متعجبًا:

- أتعرف مدن ليبيا؟

اخترت والدة ماسيليا الحديث وقالت بنبرة متسعة:

- لقد عرفنا ليبيا ومدنها من الرجل العجوز وزوجته اللذين
دلّفا إلى الجزيرة منذ أكثر من عشرين سنة، كانا يذكران اسمها واسم
مدنها كثيرًا، وكانا يذكران أيضًا «وان تكوفي» الذي يقبع فيه السرداب
الموصل لكوكبنا هنا.

حاولت والدة ماسيليا تغيير نسق الحديث فنظرت لماسيليا
فسألته قائلة:

- أين أماناي؟ لماذا لم يحضر معكما؟

أجابته ماسيليا قائلة:

- لقد ذهب للبحر.

أجفلت والدتها حين سمعت كلامها فشبهت شهقة كبيرة
وقالت بقلق شديد:

- وما سبب ذهابه للبحر؟ أحدث معه شيء ما؟
- كان يقوم بتعليم فتى صغير طريقة القتال بالخنجر فتعرض
لخدش صغير في يده، هو خدش صغير يا أمي لا تقلقي.

زفرت والدتها وقالت بحنق:

- ألا يتوقف عن عبثه هذا؟ ألم أطلب منه مرارًا ألا يقترب
للسيوف والخناجر؟

- إنه فارس ومقاتل يا أمي وهذا عمله، كيف تمنعانه مرارًا من
تأدية عمله، أنتما تشعرانه بأنه غريب هنا في تلك الجزيرة.

تهمد والد ماسيليا ثم نهض من مكانه فقال موجهًا كلامه
لزوجته:

ادخلي لتعدي لنا الطعام وأنا سأذهب إلى أمناي وأعود به.

خرج والد ماسيليا من البيت ثم دلفت والدتها للداخل لتعد
الطعام، كان مختار يجلس ويسيطر عليه صمت مطبق وهو ينظر
لماسيليا بتعجب وذهول شديدين، لاحظت ماسيليا نظراته المتعجبة
التي تشي بكثير من الحيرة فابتسمت وقالت له بصوت خافت:

- أدهشتك ملامح أبي وأمي أليس كذلك؟

هز مختار رأسه برفق ولم ينبس ببنت شفة.

أطلقت ماسيليا تهيدة طويلة فأنشأت تقول:

- منذ واحد وعشرين عامًا قدم أبي وأمي لتلك الجزيرة، قدما من إحدى الجزر في غرب بحر الغياهب، كنا يعانيان في الغرب من النبد والتنمر بسبب ملامحهما التي تشبه ملامح البشر، فاستقبلهما الحاكم أمغناس بالترحاب وقام بإهداء هذا البيت الذي نقطن فيه الآن لهما ومنع كل السكان هنا من مضايقتهم أو حتى إطالة النظر إليهما، كان كل السكان هنا غير مقتنعين بأنهما من سكان كوكبنا، ولم يقتنعوا بأن ملامحهما التي تشبه ملامح البشر هي طفرة تحدث نادرًا في بعض الأشخاص على كوكبنا وربما هم متواجدون بكثرة في الشرق والغرب والشمال والجنوب وربما يعانون الآن نبد الناس وتنمرهم بسبب ملامحهم تلك.

قطع مختار حديثها فسألها متعجبًا:

- وأنتِ؟ لماذا لا تشبهين أحدًا منهما؟ لماذا أمني وحده هو من ورث ملامح أمه وهو يشبهها إلى حد كبير؟

- كما قلت لك، تغير ملامحنا هي طفرة نادرة الحدوث وأبي يقول إنه لم يرث من والدته أو والده أي شيء من ملامحهما وكذلك تقول أُمي هذا أيضًا.

ران على ماسيليا صمت خفيف ثم تابعت قائلة:

- يقول أبي إنه التقى بأبي في إحدى جزر الغرب، كان يظنها بشرية وهي أيضًا كانت تظنه كذلك، أحبا بعضهما البعض فتزوجا واتخذا من كوخ صغير بجانب شاطئ البحر بيتًا للزوجية بعيدًا عن الناس وهربًا من نظراتهم ونبذهم، ظن سكان الجزيرة أنهما يمارسان

الرزيلة في الكوخ دون زواج، فهربا من بطشهم وظلمهم وقدموا إلى هنا فأكرمهما الحاكم أمغناس وسمح لهما بالعيش هنا وجعل السجن المشدد عقوبة كل من يضايقهما أو ينعتهما بالأشباح.

هز مختار رأسه فسألها قائلاً:

- من هذان العجوزان اللذان ذكرتهما والدتك؟

- قبل قدوم أبي وأمي لتلك الجزيرة هنا بعام واحد دلف رجل وزوجته للجزيرة، قالوا إنهما جاءا من كوكب الأرض ومن دولة ليبيا بالتحديد، كان أبي يجلس معهما كثيراً ويخفف عنهما بؤسهما وشقاءهما ووحدهما، فقد كانا يذكران أنهما تركا عائلة في الأرض.

نهض مختار من مكانه فزِعاً فقال لها بنبرة متعجبة:

- تقولين إنهما تركا عائلة بالأرض؟

- هكذا ما أخبرا أبي به.

- خذيني إليهما.

- لماذا؟

- خذيني إليهما فحسب.

تهتت ماسيليا فقالت بنبرة حزينة:

- الآن قل خذني إليهما.

عقد مختار جبينه متعجباً فتابعت ماسيليا قائلة:

- لقد مات الرجل في العام الماضي.

زفر مختار بضيق فقال لها متوسلاً:

- خذيني إليها يا ماسيليا أرجوك.

خرج مختار وماسيليا من البيت وركبا حصانئهما واتجها نحو شمال المملكة، بجوار الشاطئ كان يجلس أمناي وهو مطرق رأسه ويجلس والده بجانبه وهو يربت على كتفه ويواسيه، قريباً منهما بمحاذاة الشاطئ كان يقبع كوخ العجوز، كان الكوخ صغيراً جداً ومصنوعاً من جريد النخل وجذوع الأشجار، اقترب مختار للكوخ فوقف أمام بابه الصغير فقال بصوت جهوري:

- ألا تخرجين إليّ يا سيدتي لأحدثك؟

بعد هنية من الوقت فتحت العجوز باب الكوخ فخرجت وهي تعتمد على عصاً عجزاً في يدها وظهرها مقوّس لا تقدر على الوقوف وقد بدت عليها علامات الهرم وكبر سنها، كانت تنظر لمختار بعينها السوداوين الضيقتين ووجهها النحاسي المجمع في دهشة وتعجب شديدين، نظرت إليه عن قرب فضيّقت عينها وقالت له متسائلة:

- ماذا تريد مني يا هذا؟

أطلق مختار تنهيدة كبيرة فقال:

- ما اسمك يا سيدتي؟

حدجته بعينين تفيضان حقدًا وغيظاً فقالت له بحنق:

- أخرجني من الكوخ لتسألني عن اسمي أيها الأبله؟

وكزته العجوز بالعصا في صدره وكزة قوية ألمته فأردفت بنبرة
غاضبة:

- هيا، اذهب أنت وتلك البلهاء التي معك من هنا ولا تزعجاني.

دلفت العجوز لداخل الكوخ وأغلقت عليها بابه، وقف مختار
مكانه ساكنًا مذهولًا من هول الموقف، نظر لماسيليا فوجدها ترمقه
بنظرات تنم عن خيبة أمل كبيرة فقالت له بصوت خافت:

- كان هذا هو حالهما منذ أن دلفا لجزيرتنا، لم يستطيعا
التأقلم مع مناخ كوكبنا فأصيبا بالهذيان وفقدان الذاكرة منذ
دخولهما، لا يعرفان اسمهما أو اسم عائلتهما، كانا يتحدثان عن ليبيا
ومدنها فقط، وكأنهما لا يتذكران سواهما.

مشى مختار نحو صخرة متوسطة الحجم وشبه متساوية
فجلس عليها وهو يضع رأسه بين كفيه فأطرق رأسه إطرًا طويلاً لا
يتخلله حركة ولا نأمة، اقتربت إليه ماسيليا فجلست بجانبه على
الصخرة فتمهدت وسألته بنبرة يشوبها حزن شديد:

- كنت تظنها أمك، أليس كذلك؟

رفع مختار رأسه نحوها والدموع تنهمر من عينيه بغزارة فهزلها
رأسه باكيًا ولم ينبس بكلمة.

نظرت إليه ماسيليا بذهول شديد فسألته متعجبة:

- أهذه التي تخرج من عينيك هي الدموع؟

عقد مختار حاجبيه مستفسرًا فتابعت ماسيليا قائلة:

- نحن هنا في كوكبنا لا نمتلك غدًا دمعية مثلكم، أنتم تكون
بعيونكم ونحن نبكي بقلوبنا.

أطلقت ماسيليا تنهيدة كبيرة فنظرت لكوخ العجوز فأكملت
تقول:

- حين مات زوجها في العام الماضي بكت عليه كثيرًا حتى ظننا
أن دموعها قد اختلطت بماء البحر من كثرتها، يبدو أنها كانت تحبه
كثيرًا، على الرغم من أنها لم تكن تتذكر اسمه وهو أيضًا لم يكن
يتذكر اسمها إلا أنهما كان حيهما معقودًا بحبل متين، كنت أجلس
معها ذات يوم فقالت لي إن أساس الحب هو اتصال القلوب ببعضها
البعض، لا تهم الألقاب ولا الأسماء، وحين مات حزنت عليه حزنًا
شديدًا وما زلنا كلما مررنا على كوخها في منتصف الليل لمراقبة
الحراسة نسمع نسيجها في الليل الهيم، كانت تبكيه وترثيه في الليل
والنهار دون توقف.

تهند مختار طويلاً ثم ابتلع ريقه فقال:

- لقد عانيت كثيرًا يا ماسيليا حين أبصرت الحياة فلم أجد لي
عائلة كالجميع، كانت السيدة سمية التي تولت رعايتي تعاملني معاملة
حسنة وكانت تحبني كثيرًا، هربت من البيت حين اشتد الأمر بينها
وبين زوجها بسبي، فخرجت للصحراء عند وادي يقال له «وان

تكوفي» واتخذت من الكهوف والأغوار ملجأً لي، أحببت اعتزال الناس، أحببت الهدوء والسكون المطبق المحيط بي، كان صديقي هو حصاني، وحببتي هي تلك القلادة التي ورثتها من أمي، لم أكن أحسد الناس وهم منعمون ومرفهون في المدن، كنت أحسد نفسي على ما أنا فيه من نعمة عظيمة، وما أعظم نعمة العزلة، ستسلم من عيون الناس وألستهم وأفعالهم ونفاقهم ومكرهم وكيدهم.

صممت مختار هنيئة ثم نظرت لماسيليا فتابع بنبرة متأسفة:

- أعتذر على إزعاجك بكلماتي تلك، تلك أول مرة أتحدث فيها مع شخص وأجده ينصت إليّ.

هزت ماسيليا رأسها حزناً وكمدًا فقالت بنبرة يشوبها حزن عميق:

- كل كلمة قلتها أيها الأسمر ألمتني كثيرًا، وكأنك تتحدث عني.

غضن مختار جبينه فسألها متعجبًا:

- أعانيت الفقد مثلي يا ماسيليا؟

- نعم، طوال عمري أعاني الفقد ويتألم قلبي.

- أي نوع من الفقد تعانين؟

أطبقت ماسيليا شفثها فقالت بحزن شديد:

- فقدان نفسي.

- يبدو أنك تُخبئين بداخلك سرًا عظيمًا!

- كل شخص منّا يحمل بداخله سرًّا إذا خرج خرجت معه روحه، ولذلك نكتم الأسرار ولا نبوح بها.

ران عليهما صمت مطبق، نظر مختار صوب كوخ العجوز فقال لماسيليا متسائلًا:

- أليس هناك أمل لتعود إليها ذاكرتها؟

- لقد طوت هنا في تلك الجزيرة رداء شبابها، وها هي ذي تطوي رداء شيخوختها، إن كانت لها ذاكرة تستعيدها لكانت تذكرت اسم زوجها أو عائلتها.

عقدت ماسيليا جبينها فسألته متعجبة:

- لماذا تظن أنها ربما تكون هي أمك؟

- لقد دخلت هنا في نفس الفترة التي اختفت فيها أمي منذ واحد وعشرين عامًا، وهي دخلت من سرداب «وان تكوفي» الذي كان يعيش أبي وأمي قريبًا منه قبل اختفائهما، فربما اختفاء أبي وأمي كان بسبب دخولهما هنا.

- ولكن هذا ليس دليلًا كافيًا، فليس كل من يختفي بكوكبكم يكون قد دخل هنا.

- أعلم هذا يا ماسيليا، ولكن قلبي يخبرني بأنها ربما تكون أمي.

- ولماذا هي بالذات؟

- لأنها البشرية الوحيدة هنا على تلك الجزيرة، أن تختارني
العقبان لتنفيذ مهمة استغاثة هو أمر مثير للحيرة والدهشة، فما
علاقتي بالكوكب حتى تختارني؟

فغرت ماسيليا فاها فجأة ثم لاحت على وجهها ابتسامة
عريضة فقالت لمختار بتعجب شديد:

- القلادة، لماذا لم ترها القلادة التي معك؟ فربما تتذكرها
وتعود إليها ذاكرتها إن كانت هي أمك!

فغر مختار فاه دهشة وذهولاً فقال مبتسماً:

- لقد صدقت، كيف نسيت أمراً كهذا؟

نهض مختار من مكانه فقال لماسيليا:

- هيا نذهب إليها لأرهبها القلادة.

- اذهب بمفردك تلك المرة.

- ما هذا الخوف الذي يسيطر عليك، أيعقل أن تكوني قائدة
للجيش هنا؟

- لو كنت أعلم أنني سأواجه في حروبي أمثال تلك العجوز
لفكرت في أمر قيادة الجيش كثيرًا قبل أن أقبله.

ضحك مختار ساخرًا فقال لها باحتقار:

- جبانة.

ابتسمت ماسيليا بسخرية فرفعت حاجبها وقالت له ساخرة:

- اذهب أيها الشجاع لنرى.

مشى مختار نحو الكوخ فوقف أمام بابه فنادها بصوت متردد:

- هلاً خرجت إليّ يا سيدتي لأريك شيئاً مهمّاً؟

استمع مختار لصوت العجوز بداخل الكهف وهي تغمغم بغضب شديد قائلة:

- ألا أهنأ في هذا الكوخ اللعين بنومة هائلة أو استراحة هادئة يطيب بها جسدي؟

خرجت العجوز من الكوخ وعلامات الغضب تملأ وجهها فقالت له بحنق:

- ماذا تريد؟

أخرج مختار القلادة من جيبه فمدها إليها وهو ينظر إليها نظرات باسمة فقال لها متأثراً:

- هل تتذكرين تلك القلادة؟

نظرت العجوز للقلادة في يده وصارت تمنع النظر فيها بتركيز شديد وهي تضيق عينها، نظرت لمختار نظرات متعجبة وابتلعت ريقها فقالت له:

- اذهب وأعطِ هديتك تلك لفتاة في مثل عمرك أيها الساذج، ما شأني بهديتك الحمقاء تلك؟

رفعت العجوز عصاها عاليًا وأوشكت على أن تسقطها على رأس مختار ففر من أمامها كالبرق، كانت ماسيليا تضحك بهستيرية من الموقف الحاصل أمامها، أصيب مختار بخيبة أمل كبيرة، بينما كانت ماسيليا تنظر إليه وتكتم الضحك بداخلها.

اقترب مختار نحو ماسيليا فقال لها غاضبًا:

- لا تستفزني بضحكاتك أرجوك فأنا الآن في حالة يُرثى لها.

هزت ماسيليا كتفها وهي تكتم الضحك بداخلها وتكاد تنفجر ضاحكة.

نظر إليها مختار فابتسم وقال لها:

- أتعلمين، رغم تفاهتك المفرطة، لكن، أرهيقم.

زفرت ماسيليا بغضب وقالت:

- أخبرني ما معنى تلك الكلمة فالفضول يكاد يقتلني.

- قلت لك أنني سأخبرك لاحقًا.

- ولكنني أخشى أن تكون مسبة أو كلمة تدمني بها.

ابتسم مختار فقال:

- أرهيقم مرة أخرى.

اشتاطت ماسيليا غضبًا فقالت له بحنق:

- أيها الأسمر، لا تختبر صبري أرجوك.

فجأة تردد صوت صفير العقبان في كل مكان في جو السماء، كانت أصواتها مزعجة جدًا وفوضوية، خرج الجميع من بيوتهم مذعورين ومرعوبين من هول الموقف، كانت العقبان في السابق تخوض حروبًا طاحنة فوقهم، أما الآن فإنها تهوي إليهم وإلى بيوتهم وهي تصدر صفيرًا مهيبًا وكأنها تستغيث بهم، كانت العقبان تطوف بكثرة حول البيوت وهي تصدر صفيرها المزعج، احتسى الجميع داخل بيوتهم، كان مختار وماسيليا ينظران للعقبان من فوقهما ويضعان أيديهما في آذانهما من شدة الصوت، هرع إليهما والد ماسيليا وأمناي وطلبا منهما العودة إلى البيت سريعًا، عادا للبيت فوجدا والدة ماسيليا يسيطر عليها القلق الشديد وترتجف شفتاهما من شدة التوتر، احتضنتها ماسيليا وقامت بتهدئتها، بعد هنيئة من الوقت طُرق الباب فهرع أمناي إليه ليفتحه، فتح الباب فظهر الحاكم أمغناس ورهط من الجند كانوا من خلفه، هرع الحاكم أمغناس نحو مختار فوضع يديه على كتفه وقال له بنبرة تنم عن سعادة شديدة:

- لقد اختارتنا العقبان لمهمتك أيها الأسمر.

عقد مختار حاجبيه متعجبًا فتابع الحاكم أمغناس قائلاً:

- إن العقبان تستغيث بنا وتشير لنا بأجنحتها نحو الشرق، لا بدّ أنها تريد إخبارنا بأن ثمة حربًا ستندلع في الشرق وتطلب منا الذهاب إليها والمشاركة فيها.

هزم مختار رأسه فقال:

- نعم، لهذا لم تحملني العقبان مثل أوناسيو وأخته وصديقه مراد، وحين رأيت جيوشكم وتدريبها وتنظيمها وقوة بأس جنودها أدركت أن مهمتي تكمن هنا.

هز الحاكم أمغناس رأسه مبتسمًا فقال:

- إن اختيار العقبان لجيشنا لهو شرف عظيم لنا.

نظر الحاكم أمغناس إلى ماسيليا مبتسمًا فأردف قائلاً:

- الفضل يعود إليك يا ماسيليا، فهذا الجيش لولاك ما كان ليصبح بتلك القوة والتنظيم والحماس الشديد الذي يغلب على كل جنده.

نظر الحاكم أمغناس إلى الجميع فقال بنبرة صارمة:

- هيا، لنذهب جميعًا إلى سفننا لنقوم بإعدادها وتجهيزها للذهاب نحو الشرق، سنغادر بعد ثلاثة أيام، لا نريد أن نتأخر فيفوتنا ولو يوم واحد من قتال.....

«فارس»

توقف القناع عن الاهتزاز فنزعته من على وجهي وأعدته لداخل الحقيبة، دلفت إليّ نيثيا لداخل الكوخ ومعها سراج وأبيدوس وأبريس، جلسوا أمامي على الأرض وكانوا ينظرون إليّ نظرات غريبة، انتهت لنظراتهم فسألهم مستفسراً عن سبب نظراتهم الغريبة تلك، ردت عليّ نيثيا قائلة:

- حين كنت تلبس القناع يا فارس جلسنا مع بعضنا البعض وتناقشنا في أمر تلك الأسود، إن بقاءها في السفن فترة طويلة ربما قد يثيرها ويهيجها، والأسود لا تحب الحبس كما تعلم، فهي معتادة على الحرية.

- وما الرأي؟

- الرأي أن نغادر يا فارس، سنذهب بالأسود نحو مملكة الغوائل ونعسكر فيها وننتظر بقية الجيوش، وحين تكتمل صفوفنا نذهب صوب مملكة مورिका ونخوض معركتنا بصفوف مكتملة.

- وماذا لو أبصرنا خادم سينيت فهاجمنا ونحن في وهن وقلة؟

أطلقت نيثيا تهيدة طويلة فقالت مبتسمة:

- لن يهاجمنا يا فارس، لقد قام بتسمية المعركة التي سيخوضها معنا اسم المعركة العظمى، وهذا يعني أنه سينتظرنا حتى نكتمل ليقضي علينا جميعاً في معركة واحدة كما يظن.

نهضت من مكاني فمشيت إلى باب الكوخ فخرجت منه، كان العجوز يجلس على صخرة صغيرة بجانب الكوخ ويضع عصاه على الأرض وتجلس الطفلة أسمايا على ركبتيه وهو يمسد لها شعرها الأشقر الأملس، نظر إليّ العجوز نظرة مبتسمة فقال لي بصوت هادئ:

- ما قالوه لك هو الصحيح، لقد بدأت الأسود بالاضطراب وبدأت تشعر وكأنها أسيرة، بقاؤها لفترة طويلة داخل تلك السفن وهي راسية بجوار الشاطئ سميحها.

صمت العجوز هنيهة ثم أردف قائلاً:

- أنت هنا في أقصى الغرب من بحر الغياهب، لو انتظرتهم ليتحركوا نحو الشرق سيصلون قبلك، هم أقرب للشرق منك، لقد حملتكم العقبان بسرعتها المهيبة في يوم واحد، بينما ستحتاجون إلى الوصول لمملكة الغوائل بواسطة السفن أياماً طوالاً، فالسفن تعتمد في البحر على الرياح، ولا رجال معكم ليقوموا بالتجديف لو توقفت الرياح.

هزرت رأسي للعجوز متفهماً للأمر، التفتُ خلفي فوجدت الرفاق ينظرون إليّ والابتسامة لا تفارق وجوههم وهم يهزون رؤوسهم مبتسمين، كانت العقبان تدور حول السفن وهي تشير بأجنحتها نحو الشرق، نظرت للجميع مبتسماً فقلت بنبرة صوت عالية:

- سنتحرك الآن يا رفاق فاستعدوا.

جمع كل منا أغراضه وسرنا نحو السفن فتفرقنا جميعًا على السفن، كل واحد على سفينة، نيقيا على سفينة وأنا على سفينة وسراج على سفينة وأبريس على سفينة وأبيدوس على سفينة، جهز كل واحد منا سفينته ونحن على أتم الاستعداد للإبحار نحو الشرق، فجأة تراءى إلى أنظاري العجوز وهو قادم باتجاهي وهو يتكئ على عصاه بيد وتتشبث في يده الأخرى الطفلة الصغيرة أسمايا وهي تحمل في يديها حقيبة صغيرة مصنوعة من جلود الحيوانات، اقترب إليّ العجوز فوقف بجوار الشاطئ وهو ينظر إليّ مبتسمًا فقال بصوت رخيم:

- هل ساعدتني لأصعد للسفينة؟

غضنت جبيني متعجبًا فقلت له بذهول شديد:

- أتريد الذهاب معنا؟

- نعم.

- لا تفعل.

عقد العجوز حاجبيه فقال متعجبًا:

- ولماذا لا أفعل؟

تنهد العجوز ثم تابع قائلاً:

- لقد ضحى ابني بحياته هنا على تلك الجزيرة هو وزوجته من أجل حماية الأسود، وأنا أكملت المسيرة من بعدهما وعاهدتهما وهما يلفظان أنفاسهما الأخيرة ألا أترك الأسود ولو لحظة واحدة من عمري، وها هي ذي الأسود تغادر الجزيرة جميعها، أتريدني أن أخيس بعهدي وأتركها؟

أطلقت تهيدة طويلة فقلت:

- لقد عاهدتهما ألا تترك الأسود هنا في تلك الجزيرة وقد كان، وأنا أشهد لك وفاءك بعهدك وتضحيتك، أما اليوم فإننا ذاهبون للقتال، بقاؤك هنا هو خير لك.

ران عليّ صمت خفيف ثم أشرت للطفلة الصغيرة بجانبه فأردفت قائلاً:

- إن لم تفعل ذلك ضنًا بنفسك فافعله ضنًا بحفيدتك تلك.

نظر العجوز للطفلة أسمايا فقال بنبرة مسرورة:

- إنه لشرف لي ولها أن نقاتل في سبيل إعلاء كلمة الحق وتحت رايتك.

قفزت من فوق السفينة باتجاه الشاطئ فساعدت العجوز على الصعود للسفينة ثم حملت أسمايا إليه، أشرت بيدي للرفاق لننطلق، بدأت السفن الخمس بالتحرك، كانت الرياح بطيئة جدًا والسفن تسير ببطء شديد، كنا ننظر لبعضنا البعض بيأس وضيق شديدين، فلو استمرت الرياح على هذا المنوال سنصل لوجهتنا بعد

شهر أو ربما أكثر من ذلك، ولا نمتلك رجالاً للتجديف، فجأة بدأت السفن بالإسراع شيئاً فشيئاً، بعد هنيئة من الوقت صارت السفن تجري بنا بسرعة شديدة وهي تشق عباب الماء، كانت الدهشة تسيطر علينا جميعاً من هول ما يحدث! لا رجال تقوم بالتجديف، ولا وجود للرياح لتساعد السفن!

ذهول شديد أصابنا جميعاً والسفن تجري بنا في مشهد عجيب وغريب، نظرت للعجوز وهو جالس خلفي والابتسامة لا تفارق محياه، نظرت إليه بتعجب وذهول شديدين، عقدت حاجبي متعجباً فقلت له متسائلاً:

- وكأنك تعرف سبب ما يحدث هذا؟

قال العجوز مبتسماً:

- دبة الماء هي من تدفع السفن وتساعدكم.

صرت أروح وأجئ لأطراف السفينة في كل اتجاه وأنا أنظر في الماء أسفل السفينة، عدت إليه فسألته متعجباً:

- أين هي؟ لا أرى أيًا منها.

لاحت على شفتي العجوز ابتسامة لطيفة فقال:

- لن تتمكن من رؤيتها.

عقدت حاجبي مستفسراً فتابع العجوز قائلاً:

- دب الماء، أو بطيء الخطوة كما يُطلق عليه، هو أقوى حيوان في الكون، رغم صغر حجمه إلا أنه يفوق الأسود والحيتان قوة، هو الحيوان الوحيد في هذا الكون الذي يستطيع التأقلم على العيش في كل الظروف

المناخية، سواء في درجات الحرارة العالية أو المنخفضة، وهو الحيوان الوحيد أيضًا الذي باستطاعته العيش في الفضاء الخارجي.

ران على العجوز صمت خفيف ثم تابع كلامه قائلاً:

- لو انفجر هذا الكوكب سيهلك الجميع بالطبع وينجو دب الماء بكل سهولة.

فغرت في مندهشًا فقلت له متعجبًا:

- تلك أول مرة أسمع فيها عن هذا الحيوان.

- لست وحدك، كثير من الناس لا يعرفونه.

هزرت رأسي للعجوز وذهبت بنظري ناحية الغرب حيث الشمس، كانت الشمس تتدلى على البحر بحمرتها الفاتنة وهي تستعد للرحيل، إن كوكب أوناسيو يمتلك أجمل شروق وغروب في هذا الكون، فالشمس وأنت في البحر تشعر وكأنها تمشي بجوارك، ولأن كوكب أوناسيو لا أقمار له فإن الشمس كانت هي المتحكم في أمواج البحر واضطرابها، وهي المتحكمة في المد والجزر، وها هي ذي الشمس تستعد للرحيل وهذا يعني أن البحر سيكون هادئًا بالليل وساكناً، فجأة وجدت الحقيبة تهتز وقد كنت أضعها على مرأى من البصر لئلا يفوتني أمر ما من المهمات، هرعت للحقيبة ففتحتها وأخرجت القناع من داخلها ووضعتة على وجهي فالتصق القناع بوجهي وأخذني إلى حيث يريد.....

«إيمان»

في قلعة الفرسان بأعلى الجبل الأزرق وفي غرفة صغيرة، كانت إيمان ممددة على سرير خشبي ويحتاط حولها بعض الرجال والنساء، كانت إيمان ممددة على السرير والسعادة تملأ وجهها، كان يجلس بجانبها فتى قوي البنيان وطويل القامة بشعر أشقر طويل ومسترسل على كتفيه، كانت إيمان تنظر إليه نظرات تنم عن خجل شديد، لاحت على وجهها ابتسامة عابرة فخاطبته قائلة:

- لا أصدق أنك على قيد الحياة يا بهي! لقد ظننت أنا وظن الجميع أنك قد فارقت الحياة.

لاحت على شفتي بهي ابتسامة لطيفة فأنشأ يقول:

- حين أصبت في مملكة الغوائل وأنا أدافع عنك فقدت الوعي من تأثير الجراح التي أصبت بها، فظن جنود الحاكم إيتسن أنني قد فارقت الحياة، فأمر الحاكم إيتسن بحمل جميع القتلى والمصابين وإلقاءهم في بحر الغياهب، لم يكن أحد يعلم حينها أن ماء بحر الغياهب يشفي الجروح، فقد كان الأمر حديثاً على الجميع، فحملتنا الأمواج إلى هنا، قمنا بدفن الجثث واستطعنا بناء تلك القلعة بمساعدة من العمالقة، ومنذ قدومنا إلى هنا ونحن لم نسترح، قمنا بصنع السيوف والدروع والرماح والسهام وجمع المزيد من الخيول وصنع المزيد من السفن حتى نعود بواسطتها لمملكة الغوائل للانتقام.

اعتدلت إيمان من تمددها فجلست وقالت لبهي:

- تلك المرة لن يتركز الانتقام على مملكة الغوائل فقط يا بهي.

- أعلم هذا أيتها الملكة، لطالما حملتك العقبان إلى هنا فهذا يدل على أن ثمة أمرًا عظيمًا قد حدث بالشرق، وهذا يدل أيضًا على أنها أرسلتكِ إلى هنا لتستغيثي بنا وبالعمالقة في مملكتهم وبطيور روزا أيضًا.

صمت بهي هنيئة من الوقت ثم تابع متسائلًا:

- ولكن، كيف سنقنع العمالقة وطيور روزا بأن يذهبوا معنا نحو الشرق؟

ابتسمت إيمان فقالت مغتبطة:

- لقد صدقتني طيور روزا، التقيت بكريستال وجوهرة وتوتو وتحديث معهن ووعدهن بتكرار زيارتي إليهن تلك الليلة، وربما يساعدونني على الدخول لمملكة العمالقة لإقناعهم.

- ليس الأمر بتلك السهولة، العمالقة لا يخرجون من قلعتهم بالليل، خروجهم بالليل هو فآل سيّئ بالنسبة لهم.

نهضت إيمان من على السرير فسارت باتجاه الباب وخرجت من الغرفة وهي تنظر باتجاه غروب الشمس، عادت فنظرت لبهي فقالت له:

- لقد اختفت الشمس منذ قليل، سأذهب الآن لطيور روزا وأطلب منهن دخول مملكة العمالقة.

أجفل بهي حين سمع كلامها، نظر إليها فقال لها بقلق شديد:
- هذا خطر عليك.

- سأقنعهم مثلما أقنعت طيور روزا.

- طيور روزا يفهم لغة العقبان، ولذلك صدقوا كلامك، أما العمالقة فسيصعب عليك إقناعهم.

- سأقنعهم يا بهي، لطالما أرسلتني العقبان إلى هنا فهذا دليل قاطع على أنهم سيكونون جزءاً من خطة ذهابنا باتجاه الشرق، وربما لو ذهبنا دونهم ستهاجمنا العقبان.

حملت إيمان حقيبتها خلف ظهرها ومشت نحو باب القلعة وهي تستعد للخروج، حمل بهي سيفه وهرول خلفها، نظرت إليه متعجبة فقالت له:

- إلى أين؟

- سأذهب معك.

- لتبقى هنا يا بهي، أنتم تعاهدتم سابقاً بالأ تقربوا لمملكتهم وألا يقتربوا لقلعتكم.

- سأذهب معك لأحميك، سأختبئ خلف الأشجار ولن أظهر نفسي لأحد.

- طيور روزا سينتهمون لك، لا توقعنا في المشكلات يا بهي.

أطلق بهي تهيدة طويلة فقال لها بحزم:

- لا تحاولي، سأذهب معك ولن أتركك.

رضخت إيمان لطلبه بعد إصرار شديد منه، سارا معًا باتجاه مملكة العمالقة، حين اقتريا لباب المملكة الصغير طلبت إيمان من بهي البقاء بعيدًا وعدم الاقتراب للمملكة مهما حدث، اقتربت إيمان للباب فظهرت أمامها توتو فجأة فأجفلت منها إيمان فقالت لها ونبضات قلبها تتسارع:

- لقد أخفتني يا توتو.

ضحكت توتو ضحكة عالية فقالت وهي ترفع حاجبيها:

- أنا توتو المخيفة والمرعبة.

اقتربت كريستال نحو إيمان وهي تنظر خلفها وتقطب جبينها فقالت لها متسائلة:

- هل يرافقتك أحد.

- نعم، هو صديق، حاولت إقناعه ألا يأتي معي ولكنه أصر على مرافقتي.

ظهرت جوهرة من خلفها فقالت بصوت جهوري:

- إذًا، فليبق مكانه هكذا خلف شجرة البلوط الضخمة وهو

واضع كلتا يديه على جذعها ولا يقترب أكثر من ذلك.

نظرت إيمان لكريستال فقالت لها:

- كنت أعرف أنك سترونه يا كريستال.

قالت لها كريستال مبتسمة:

- أنا أصدقك.

نظرت إليها كريستال فقالت:

- ما هي خطتك؟

- خطتي هي دخول المملكة لأقنع العمالقة بالذهاب معنا.

أطبقت كريستال شفيتها في حيرة، تنهدت فقالت:

- رغم أن هذا الأمر لو فشل ستكون عواقبه وخيمة علينا إلا أننا سنساعدك في دخول المملكة، ولو فشلت محاولة إقناعك لهم بالذهاب معكم سنتركهم نحن ونترك عملنا معهم ونذهب معكم باتجاه الشرق.

نظرت كريستال إلى جوهرة وتوتو فقالت لهما بنبرة صارمة:

- ابقيا هنا ولا تبرحا مكانكما، سأذهب معها لأريها قصر الحاكم

«أوزيس» ثم أعود.

فتحت كريستال الباب الصغير فدخلت للمملكة ونزلا عبر السلالم الصخرية مسافة طويلة إلى أسفل، كانت المملكة بالداخل بمنازل كبيرة وبديعة، كانت أبواب المنازل عالية جداً والمنازل واسعة جداً، هدوء تام كان يسيطر على كل أرجاء المملكة بالداخل، كانت

شوارعها خالية من الناس إلا بعض القردة وبعض القطط كانت تحتل الشوارع، كانت إيمان تدور حول نفسها وهي تنظر للمنازل العالية والضحمة بذهول شديد، أذهلتها المملكة وكيف تم بناء مملكة عظيمة كتلك في باطن الأرض، توقفت كريستال أمام أحد القصور وقد كان قصرًا عاليًا مزخرفة جدرانه وأبوابه، همست إليها كريستال قائلة:

- مهمتي انتهت الآن وبدأت مهمتك.

هزت لها إيمان رأسها برفق فتركها كريستال وخرجت من المملكة، وقفت إيمان أمام باب القصر الضخم فطرقت الباب برفق، لم يجيبها أحد ولم تستمع لأي صوت بالداخل، عادت فطرقت الباب بقوة فاستمعت لصوت مهيب يصدر من الأعلى، نظرت إلى أعلى فوجدت رجلًا ضخماً ينظر إليها من نافذة كبيرة أعلى القصر، أجفلت إيمان حين رأت رأسه الضخم فتسارعت ضربات قلبها وابتلعت ريقها بصعوبة بالغة وبدا عليها التوتر الشديد، استعادت رباطة جأشها فقالت للرجل الضخم بنبرة مترددة:

- أريد التحدث معك في أمر جليل.

عقد الرجل جبينه فقال لها بنبرة صوت عالية:

- كيف دخلت هنا؟ هل أنت ساحرة من ساحرات الشرق؟ أم

أنت من سكان قلعة الفرسان؟

- ليس هذا ولا ذاك، لقد حملتني العقبان وألقتني في تلك الجزيرة في مهمة استغاثة.

أجفل الرجل حين سمع كلامها فأدخل رأسه الكبير للداخل، بعد هنيهة من الوقت فتح لها الباب وأدخلها لغرفة كبيرة كانت بجوار الباب، أمرها بالجلوس فجلست وجلس هو على كرسي ضخم كان أمامها، كانت إيمان تنظر إليه لأعلى وكأنها تنظر لسقف الغرفة، كان الرجل يطالعها بنظرات متعجبة وهو يقلب النظر إليها في حيرة شديدة، أطبق شفتيه فقال لها متسائلاً:

- وكيف أصدق كلامك بأن العقبان هي من حملتك؟

هزت كتفها فقالت:

- ستصدقني لو علمت أنني شقيقة أوناسيو.

أجفل الرجل حين سمع كلامها ففغر فاهُ مندهشاً وقال لها متعجباً:

- أنتِ إيمان؟

ابتسمت إيمان ابتسامة لطيفة فهزت رأسها بأن نعم.

نهض الرجل من مكانه وصار يروح ويحيء أمامها في الغرفة وهو شارد يفكر، توقف أمامها فجأة فنظر إليها وقال:

- أنا الحاكم أوزيس، حاكم تلك المملكة، إن اختيار العقبان لنا لنساعد ملك الكوكب وشقيقته هو شرف عظيم لنا، والحروب التي

تخوضها العقبان في الجو تثبت صدق كلامك وقد كنا نعلم أن ثمة
أمراً عظيماً قد حدث في الشرق، ولكن، كيف سأقنع أنا سكان
المملكة بذلك الأمر، كيف سيصدقونني؟

زمت إيمان شفيتها في حيرة ولم تنبس ببنت شفة، نظر إليها
الحاكم أوزيس فقال لها متسائلاً:

- من العدو؟

- لا أعرف، ولكنني أكاد أجزم بأن راع وموراس ابني ناتون هما
العدو، فهما بحوزتهما كتاب لعنة سينيت.

أطلق الحاكم أوزيس تهيدة طويلة فقال بحيرة:

- حقيقة لا أعرف ماذا أفعل، أخشى الذهاب معكم فهلك
شعبي، وأخشى البقاء هنا فيكون في بقائنا مخالفة لأمر العقبان
فتعاقبنا بعد ذلك عقاباً شديداً.

ران عليهما بعد ذلك صمت مطبق، فجأة تناهى إلى أسماعهما
صوت صفير العقبان وهي تنقر باب المملكة من الخارج نقرًا مهيبًا،
دوى صوت صفيرها في كل أرجاء المملكة فخرج كل سكان المملكة
خائفين مذعورين، امتلأت شوارع المملكة بالسكان واختبأت كل
القردة والقطط بالمنازل، خرج الحاكم أوزيس من القصر وإيمان
تبعه من خلفه، أجفل سكان المملكة حين رأوا إيمان برفقة
حاكمهم، صاحوا جميعاً بصخب قائلين:

- إنها من ساحرات الشرق وهي من تفعل بنا هذا.

كانت العقبان ما زالت تنقر باب المملكة من الخارج بكل قوتها
وبأعداد كبيرة، نظر الحاكم أوزيس لشعبه فقال بصوت صارخ:

- العقبان لا تخضع لعدو أو لساحرة، إن مَنْ ترونها أمامكم
تلك هي شقيقة أوناسيو ملك الكوكب وقد أرسلتها العقبان إلينا في
مهمة استغاثة، فحق لكم اليوم أيها العمالقة أن تسعدوا بهذا
الاختيار، وإنه لشرف عظيم لكم ولكل أبناء جنسكم بهذا الاختيار
المُشرف.

نظر الحاكم أوزيس للجنود القريبين من باب المملكة فصاح
فيهم قائلاً:

- افتحوا الباب بسرعة.

فتحوا الباب فاقتحمت العقبان المملكة بأعداد كبيرة وهي
تطلق صفيرها المهيّب في كل مكان، نظر الحاكم أوزيس للعقبان
بالأعلى فصاح قائلاً:

- انظروا إليها، إنها تشير لنا بأجنحتها نحو الشرق، فاستعدوا،
سنبدأ في صناعة السفن من الغد لنذهب بها نحو الشرق، فلا
يتخلف منكم أحد، ومن حبسه عذر فليمدنا بأسلحته أو بخيوله.

دخلت طيور روزا من باب المملكة ودخل من خلفهن بهي، هرع
بهي إلى الحاكم أوزيس فقال له:

- أما السفن فنحن نمتلك المزيد منها، ستكفيينا وتكفيكم، من
أجل يوم كهذا قمنا بصنعها.

لاحت على وجه الحاكم أوزيس ابتسامة كبيرة فنظر لشعبه
فصاح فيهم قائلاً:

- سنبحر نحو الشرق في صباح الغد فاستعدوا.....

«فارس»

توقف القناع عن الاهتزاز فنزعته من وجهي وهرعت لمقدمة السفينة لأبصر الطريق والقناع ما زال بيدي، كان العجوز ينظر إليّ وعلامات التعجب تسيطر على ملامحه، نظرت إليه فقلت له مبتسمًا:
- بهي لم يمت.

غضن العجوز جبينه فقال متسائلًا:

- من هو بهي؟

- هو فارس شجاع، التقيت به في مملكة الغوائل وكان يشارك في لعبة قدرة ابتكرها إيتسن لقتل البشريين بعدما قام ناتون بتحويلهم لطيور أبيس، لكنَّ بهيًّا كان ذا مروءة فقام بحماية أختي من السهام الموجهة إليها فأصيب إصابات بالغة وفقد الوعي فظننا أنه قد مات، وحين ألقى في بحر الغياهب شُفيت جراحه.

هز العجوز رأسه مبتسمًا فقال:

- أخذك القناع إليه تلك المرة؟

- نعم، التقت به إيمان وذهبا لمملكة العمالقة فأقنعت إيمان حاكم المملكة بالذهاب نحو الشرق بعدما اقتحمت العقبان مملكتهم وأشارت لهم بأجنحتها نحو الشرق، سيبحرون في اتجاه الشرق صباح الغد.

- رأيت، هم قريبون لمملكة الغوائل أكثر منّا، ولو أبحروا صباح الغد سيصلون قبلنا.

نظر إليّ العجوز وإلى القناع في يدي فسألني متعجباً:

- ما الذي أفزعك حين نزعت القناع من وجهك؟ رأيتك تروح وتجيء على السفينة في كل الاتجاهات؟

- كان القناع في المرات السابقة حين يتوقف عن الاهتزاز ويعيدني، يكون بسبب شيء ما سيطراً هنا، فظننت أننا ربما سنلتقي بأحد أو ربما قد شارفنا على الوصول لمملكة الغوائل.

ضحك العجوز فقال بسخرية:

- نصل الليلة! ما زلنا لم نبرح حدود جزيرة ريبال بعد.

نظر العجوز باتجاه الشرق بعينيه الرائقتين فتابع بنبرة هادئة:

- لولا أن سفننا تحركها دببة الماء للبتنا في البحر أكثر من شهر، فكما ترى، لا توجد رياح تساعد السفن في السير، ولولا دببة الماء لتوقفت السفن مكانها أو ربما سارت في الاتجاه المعاكس.

هززت له رأسي وأنا أنظر للطفلة الصغيرة أسمايا وهي تضع رأسها على ركبته وقد غطت في نوم عميق، قلت له مشفقاً على الطفلة الصغيرة:

- توجد غرفة كبيرة بالأسفل بها مجموعة سرر خشبية، احمل الطفلة الصغيرة وضعها على أحد السرر.

هز لي العجوز رأسه فنهض من مكانه فحملها ونزل بها إلى الغرفة، بقيت أنظر للقناع في يدي وأنا أمعن النظر إليه فتمهدت وقلت بصوت خافت وكأنني أحدثه:

- تُرى لماذا توقفت تلك المرة عن الاهتزاز؟ هل سيحدث شيء هنا معنا أم أنه سيحدث شيء في مكان آخر بعيدٍ عنا؟

نهضت من مكاني وسرت نحو الحقيبة لأضع القناع بداخلها، وقبل أن أضع القناع بالحقيبة اهتز القناع في يدي اهتزازًا شديدًا، أجفلت حين اهتز القناع، فتلك أول مرة يهتز فيها القناع وهو في يدي، فقد اعتدت في المرات السابقة أن يهتز وهو داخل الحقيبة، وضعت القناع على وجهي سريعًا فالتصق به وذهبت معه إلى حيث يريد....

«مراد»

كان مراد يجلس على مائدة العشاء ويجلس بجواره السيد شهاب وابنه هلال، لاحظ السيد شهاب شرود مراد أثناء الأكل، قال له ممازحًا:

- هل طعامنا لا يعجبك؟

رفع مراد حاجبيه نافيًا فقال له:

- إن الطعام شهى جدًا ولكن...

قاطعه السيد شهاب قائلاً:

- ولكنك تفكر في أخيك مازن، أليس كذلك؟

هز مراد رأسه بحزن شديد فتابع السيد شهاب كلامه قائلاً:

- صدقني، لقد قمت بتوصية الحراس عليه، سيأكل من أكل الحاكم وسيشرب من شرابه، وطلبت من الحراس أن يغيروا له ملبسه البالية التي يلبسها.

لاحت على وجه مراد ابتسامة كبيرة فقال له:

- أشكر لك معروفك هذا يا سيدي، لولاك لهلك أخي وربما هلكت أنا أيضًا في حصنكم هذا.

- بل نحن من يجب أن نشكرك يا بني على قدومك إلينا،
ونشكر العقبان أيضًا لأنها اختارتنا نحن.

توقف مراد عن الأكل فنظر إليه فسأله بتعجب شديد:

- لماذا تحبسون أنفسكم في ذلك الحصن؟

أغمض السيد شهاب عينيه وهز رأسه حزناً وكمدًا فأنشأ
يقول:

- كنا يا بني من قبل أمهر الناس في صناعة السفن ومن أقوى
الجيوش في القتال، كان أصغرنا سنًا يصارع أقوى رجل في جيش
العدو، كانت جزيرتنا تلك تضح بالحياة والتجارة والصناعة والزراعة،
كان تجار السفن يقدمون إلينا من كل مكان لشراء السفن، كنا
نصنع السفن بمهارة عالية وبسرعة عجيبة، ساعدنا على ذلك وفرة
الأشجار هنا على جزيرتنا وتنوعها بالإضافة إلى الأيدي الخبيرة التي
كانت تصنع السفن بحرفية عالية، فمات حاكمنا وتولى ابنه تحوت
الحكم فأماتنا وأمات جزيرتنا مثلما ترى، لقد أقنع جُلّ الناس هنا أن
تساقط الثلوج علينا في فصل الشتاء هو لعنة من السماء ويجب أن
نتحصن داخل الجبل في حصننا هذا، فأذعن إليه كثير من الناس
وصدقوه.

قال له مراد متسائلًا:

- وبعدهما تتوقف الثلوج عن التساقط ماذا تفعلون؟

- نخرج من حصننا فيزرع المزارعون أرضهم ويذهب التجار نحو الجزر الأخرى في تجارتهم ويذهب الصيادون لصيدهم وتبدأ الحياة، حتى إذا شارف الشتاء على القدوم جمع كل رجل منا طعامه وملبسه ومشربه الذي يكفيه طول فترة الشتاء وعاد لحصنه.

سأله مراد بفضول شديد:

- وصانعو السفن؟ هل ما زالوا يصنعونها؟

غضب السيد شهاب جبينه فسأله متعجبًا:

- ولماذا تسأل عن السفن بالذات؟

- لأننا سنبحر بها نحو الشرق.

ضحك السيد شهاب ساخرًا فقال:

- وكأنك قد ضمنت أن الناس هنا سيوافقون على الذهاب معك يا بني، أتظن أن إقناع الناس هنا بالخروج من الحصن في الشتاء والذهاب لخوض معركة في الشرق هو أمر سهل؟

- سيذهبون، إن لم أقنعهم أنا ستقنعهم العقبان، فبي لم ترسلني إليكم عبثًا، ربما أرادت أن تحييكم وتبعث فيكم الحياة.

صمت السيد شهاب بعدما سمع كلمات مراد فصار يزم شفتيه ويهز رأسه حائرًا، اقترب إليه ابنه هلال فقال له بنبرة مليئة بالتحدي:

- لنخرج الآن يا أبتِ وتحدث مع كل الشرفاء هنا بالمملكة ونطالبهم بأن يشيعوا أمر ذهابنا نحو الشرق لخوض المعركة العظمى بأمر من العقبان، وإذا شاع الأمر واتحد الناس فلن يتمكن الحاكم تحوت من معارضة كل الناس، وكما قلت لي من قبل إن في الاتحاد قوة.

نظر إليه السيد شهاب نظرات حائرة، عاد فنظر لمراد فوجده يبتسم ويمزله رأسه موافقًا على اقتراح ابنه هلال.

خرجوا جميعًا من البيت فذهبوا للبيت الذي يتجمع فيه الشرفاء كل ليلة كعادتهم فأخبرهم السيد شهاب بحقيقة الأمر وبالمهمة التي جاء بها مراد، لم يعارضه أحد، كانوا سعداء لأن العقبان اختارتهم دون غيرهم من شعوب الجزر الأخرى المجاورة لهم، تفرقوا في جماعات وأشاعوا الأمر في كل بيت من بيوت المملكة وما هي إلا لحظات حتى شاع الخبر في كل أرجاء المملكة وصار يردده الغادي والرائح والقاصي والداني والكبير والصغير، تجمع كثير من شعب المملكة وساروا متجهين لقصر الحاكم تحوت، خرج إليهم الحاكم وهو مُسَكَّر ويمسك في يده كأسًا من الخمر وهو يترنح فيسقط فيعود وينهض من جديد ثم يترنح ويسقط مرة أخرى، كانوا ينظرون إليه وإلى حاله باشمئزاز واحتقار، كان الحاكم تحوت يمسك بكأس الخمر ويكاد يسقط من يده ويقول بصوت متقطع:

- أغبياء، لو خرجتم ستصيبكم لعنة السماء وستحرقكم الثلوج.

رد عليه السيد شهاب بنبرة صارمة:

- بل أنت الغبي، تحببنا هنا في ذلك الحصن وكأننا إمعة لا رأي لنا ولا قرار.

نظر إليه الحاكم تحوت فأشار إليه بيده ثم نظر للحراس من خلفه فقال موجهاً كلامه للحراس:

- اقتلوا هذا اللعين الذي ينوي قتلي والظفر بالحكم من بعدي ويريد هلاككم.

اقترب الحراس للحاكم تحوت فضرب أحدهم كأس الخمر الذي يحمله في يده ضربة قوية بسيفه فهشمته وأصيبت يد الحاكم وصارت الدماء تنزف منها، نظر الحاكم تحوت للحراس نظرة شزراء وكأنه قد عاد إليه وعيه، فغرفاه وقال له بنبرة غاضبة:

- أتخالف أمري أيها اللعين وتريد قتلي؟

فجأة صدر صوت صفير العقبان في كل مكان، اقتحمت المملكة وهي تطوف في جماعات وتشير بأجنحتها نحو الشرق، هوت العقبان على الحاكم تحوت وصارت تنقر رأسه وهو يصرخ مستنجداً بالحراس، قامت العقبان بتهديم رأسه فسقط على الأرض جثة هامدة، نظر مراد لجثته وهي ملقاة على الأرض فقال بصوت خافت:

- لقد نال جزاؤه.

كان السيد شهاب يقف بجواره وقد استمع لكلماته فرد عليه

قائلاً:

- هذا مصير من يحكم دون كفاءة، فالحكم لا بد أن يكون للأكفأ لا للوريث.

ظهر مازن شقيق مراد ومعه حارسان يتكئ عليهما وقد بدا عليه التعب والإرهاق الشديدان، هرع إليه مراد فاستلمه من الحراس وعانقه عناقًا طويلاً والدموع تذرف من عينيها بغزارة، قال له مراد بنبرة حزينة:

- ستكون بخير يا أخي، وسنعود لقريتنا قريباً.

ظهرت العقبان في السماء مرة أخرى وصارت تصدر صفيرها المعتاد، أجفل مازن حين رأى العقبان فاحتقن وجهه وامتقع لونه وصار يرتعد ارتعادًا شديدًا، هرع مازن لأحد البيوت القريبة منه فدخلها وجلس في إحدى زواياه متكورًا في جلسته وجسمه بالكامل يرتعد، هرع إليه مراد فسأله بقلق شديد:

- ما الأمر يا مازن؟

بشفتين ترتجفان وهو يبتلع ريقه بصعوبة شديدة أجابه مازن قائلاً:

- العقبان ستقتلني يا أخي.

غضن مراد جبينه فقال له:

- العقبان من الطيور الصديقة يا أخي، العقبان لا تقتل إلا أعداء الكوكب.

- حين كان يحملني الصقر وهو قادم بي من مملكة مورिका
كانت العقبان تهاجمنا بكثرة في طريقنا وكادت تقتلني عدة مرات.

لاحت على وجه مراد ابتسامة هادئة فقال له يطمئننه:

- العقبان كانت تريد الظفر بالصقر الذي كان يحملك يا أخي
لتقتله، لم تكن تقصدك أنت.

دلف إليهما السيد شهاب فقال لمراد متعجلاً:

- لا نريد إضاعة الوقت، هيا بنا نخرج من ذلك الحصن لنجهز
السفن وننقل فيها خيولنا وأسلحتنا وكل ما نحتاجه لخوض تلك
المعركة، سنبحر باتجاه الشرق في صباح الغد.

جثا مراد على ركبتيه وقال لمازن مبتسماً:

- إن كنت لا تزال تخشى العقبان فابق هنا حتى تختفي، بعدما
نعود من بحر الغياهب سأعود إليك في بيت السيد شهاب.

خرج مراد بصحبة السيد شهاب وابنه هلال وكثير من شعب
المملكة من باطن الجبل ناحية الغرب، حين صعدوا لقمة الجبل
وتراءى لهم البحر من أعلى الجبل وقف مراد مذهولاً ومشدوهاً من
هول ما رأى! كانت السفن بجانب الشاطئ بأعداد كثيرة ومصنوعة
بطريقة احترافية وبديعة، كان الشاطئ بأسفل الجبل مليئاً بشعب
المملكة الذين سبقوهم للشاطئ والسفن وهم يحملون في أيديهم
القناديل الزيتية التي أضاءت الشاطئ وكل ما حوله، كان ضوء
القناديل الزيتية ينعكس على الثلوج أسفلهم في مشهد بديع وساحر،

بدأت الخيول تخرج من باطن الجبل وتهبط للشاطئ بأعداد كثيرة، صهيل الخيول وصوت الأقدام التي تدق الأرض دقًا، وفرسانٌ يحملون سيوفهم ودروعهم ورماحهم وسهامهم، كان هذا هو حال شعب مملكة الحصن وهم يغدون ويروحون باتجاه الشاطئ لتعبئة السفن.

مرت هداة من الليل ويوشك الليل أن ينتصف، هدأت الأرجل المتجهة للسفن والقادمة منها، وكأن مهمة تعبئة السفن قد شارفت على الانتهاء، كان مراد يقف على الشاطئ وكأنه فرد إنقاذ، فقد كان يساعد كل من يسقط منه شيء أو من لا يستطع حمل الدروع أو السهام فيقوم بحملها معه وإدخالها في السفن ثم يعود لمكانه ويكرر الأمر نفسه مع غيره.

شعر مراد بالإرهاق الشديد فعاد للمملكة لينام قليلاً قبل مهمة الإبحار نحو الشرق والتي ستكون في الصباح، وصل لبیت السيد شهاب فوجد ابنه هالاً ممدداً على مصطبة صخرية كانت خارج البيت، شعر هلال بتواجد مراد فاستيقظ من نومه ونهض من مكانه وهرع ليفتح له باب البيت ويدخله، سأله مراد عن أخيه مازن فأجابته هلال بأنه ما زال على حاله ويخشى الخروج من البيت المتواجد فيه بجوار قصر الحاكم، ذهب مراد إليه فوجده ما زال جالساً في مكانه ويحوط رأسه بذراعيه، أيقظه مراد فسأله بتعجب شديد:

- أيعقل ما تفعله هذا يا مازن؟ لقد عهدتكم من قبل شجاعاً ومقداماً لا تخشى أحداً ولا تهاب شيئاً.

كان مازن ينظر للخارج بعينيه الناعستين فقال له:

- لو رأيت ما رأيته أنا يا مراد لما قلت لي هذا، إن خادم سينيت يمتلك جيوشًا كبيرة من الناس، وجيوشًا مهولة من وحوش الجبال والنمور والفيلة والثعالب والفهود وحيوانات كثيرة.

زفر مراد فقال له بحنق:

- إذاً، فلماذا تهاب العقبان وتخشاها؟

- لا أعرف، ربما كما قلت أنت، لأنها كانت تهاجم الصقر الذي كان يحملني فظننت أنها تريد قتلي.

ابتسم مراد ابتسامة كبيرة فقال له:

- هيا انهض يا مازن ولنذهب لبيت السيد شهاب لنبيت فيه، يتبقى وقت قليل على إبحارنا نحو الشرق، سننتقم أولاً ممن ظلموك ثم نعود لقريتنا ونكمل حياتنا.

أطلق مازن تنهيدة كبيرة فقال لمراد برجاء:

- أرجوك يا مراد لا تذهب معهم ولا تشارك في تلك المعركة، إنهم أقوىاء جداً، لقد رأيت قوتهم بنفسي، فأنا أخشى أن أفقدك في تلك المعركة.

عقد مراد حاجبيه فقال له بحنق:

- أجننت يا مازن؟ إن تلك المعركة هي شرفنا، أتريدني أن أفر منها فرار الجبناء من الحروب؟

نظر مازن إليه فقال له متعجبًا:

- ماذا حدث لك يا مراد؟ قد كنت سابقًا تؤثر السلامة على نفسك ولا تدخل في عراقك مع أي شخص، ماذا حدث لك؟
لاحت على وجه مراد ابتسامة لطيفة فأجابه قائلاً:

- في السابق كنت أتجنب الناس يا مازن لأن عراقنا كان بسبب أشياء تافهة لا قيمة لها، أما اليوم فإنني أعلم سبب خوضي لتلك المعركة جيدًا، ولا آبه لنفسي إن قتلت فيها، فلست أفضل ممن قتلوا هنا رفضًا للظلم ولإعلاء كلمة الحق.

اقترب إليه مازن فقال له بصوت خافت:

- لا شأن لنا بتلك المعركة يا مراد، سنبحر معًا باتجاه الشرق ونلتقي بفارس فأتظاهر أنا بالمرض الشديد ونطلب منه تعويذة الخروج من هنا ونخرج.

نهض مراد من مكانه فأدار له ظهره وقال له غاضبًا:

- لن أفعل، فتلك المعركة تهمني مثلما تهتم فارسًا وأخته ومثلما تهتم كل الناس هنا.

نهض مازن من مكانه فمشى نحوه وقال له ساخرًا:

- هه، لقد وقعت في حب تلك اللعينة أليس كذلك؟

عقد مراد حاجبيه فسأله متعجبًا:

- من تقصد باللعينة؟ أتقصد إيمان؟

تهمد مازن طويلًا ولم ينبس ببنت شفة، نظر إليه مراد باحتقار
فقال له بغضب:

- لم تتغير يا مازن، ظننت أن معاناتك هنا ومعرفتك لحقيقة
فارس وأخته سيغيرانك، لا يا أخي، ليس فارس وأخته كما سمعنا
عنهما بقريتنا، كنا ننبذهم بقريتنا لأننا كنا نردد كلام آبائنا وكلام
سكان قريتنا، أما الآن فإننا قد عرفنا الحقيقة، وقد دخلت معهما
تلك المرة طواعية، لم يرغمني أحد على الدخول معهما، لقد دخلت
وكنت سيد قراري.

نظر مراد لأخيه مازن بازدراء فأردف قائلاً:

- أنا سأبحر معهم نحو الشرق، وإن آثرت أنت البقاء فابق هنا
مع النساء حتى أعود إليك، وإن قُتلت في تلك المعركة فلا تخف،
سأطلب من فارس أن يعيدك لكوكبنا.....

«فارس»

توقف القناع عن الاهتزاز فنزعته من وجهي فوجدت العجوز
يجلس أمامي وهو يراقبني بنظراته المتعجبة، هزلي رأسه مستفسراً
فقلت له بصوت هادئ:

- لقد أخذني القناع تلك المرة لمراد، سيبحرون باتجاه الشرق
في صباح الغد.

- في أي مكان هما؟

- في جزيرة يتحصن شعبها داخل جبل.

ابتسم العجوز فقال:

- إنهم أقرب الناس إلينا، لو استمررنا بنفس سرعتنا تلك ربما
لحقنا بهم.

هزرت له رأسي مبتسماً، بينما في داخلي أتساءل! لماذا توقف
القناع عن الاهتزاز تلك المرة؟ أهو سيأخذني لصديق أم سيحدث
معنا شيء ما هنا؟

كان البحر ساكناً وأمواجه هادئة، والنجوم في السماء تبرق
وتتراقص على أنغام الليل الهيم وهدوئه، فجأة أخفضت السفن من
سرعتها وصارت تمشي ببطء شديد، مشيت إلى مقدمة السفينة
لأبصر ما أمامنا، لا شيء أمامنا سوى البحر والماء، نظرت خلفي لبقية

السفن فوجدت نيقيا وسراج وأبريس وأبيدوس يقفون في مقدمة سفنهم وعلامات التعجب بادية على وجوههم، نظرت للعجوز بجانبى فهزرت له رأسي متسائلاً عن سبب توقف السفن فوجدته يزم شفثيه ويهز كتفيه حائراً وكأنه يتساءل كما أتساءل ويتعجب كما أتعجب، فجأة تراءى إلى أنظارنا جزيرة صغيرة بأشجارها العالية والكثيفة، كان الفجر حينها يوشك على أن يبزغ، كانت السفن تقترب للجزيرة وكأن أحد ما يدفعها نحوها، توقفت السفن بمحاذاة الشاطئ، صوت صفير العقبان يصدر من كل مكان بالجزيرة، ولكن صوتها تلك المرة كان أقوى بكثير من المرات السابقة، هدوء تام يلف الجزيرة، لا حروب فوقها بين العقبان وبقية الطيور، حتى الأسود لم تصدر زئيرها حين توقفت السفن وقد كان زئيرها من قبل لا يتوقف، نزلنا جميعاً من سفننا وبقي العجوز وحفيدته أسمايا بداخل السفينة، اقتربنا من بعضنا البعض وصرنا نرمق بعضنا البعض بنظرات متعجبة، خاطبتهم قائلاً:

- لطالما توقفت السفن هنا فهذا يعني أننا يتوجب علينا دخول تلك الجزيرة، فربما سر ما يقبع بداخلها.

صرت أقلب النظر في الجزيرة فتابعته قائلاً:

- سندخلها في الصباح لتتضح لنا الرؤية داخلها.

تمددنا على العشب بجانب الشاطئ فأدركتنا أول سنة من النوم فقمنا.

«شعب الباون»

استيقظنا في الصباح على صوت تواب أمواج البحر ببعض الصخور القريبة من الشاطئ، نشرت الشمس أشعتها الدافئة على أجسادنا المنهكة فأمدتنا بالنشاط، كان العجوز يطل علينا من مقدمة السفينة وتقف بجواره الطفلة الصغيرة أسمايا وهي متشبثة بملابسه الجلدية، أشرت له بيدي ناحية الغابة بأننا سندخلها ثم عدت وأشرت له بأن لا يبرح السفينة فهزلي رأسه موافقًا، مشينا باتجاه الغابة، كانت أشجارها من الأجمات وعالية جدًا ومتشابكة ببعضها البعض بطريقة غريبة، وجدنا صعوبة شديدة في اختراق تلك الأشجار والمرور من بينها، أصبنا بالسعال الشديد من كثرة الغبار الذي كان يلتصق بفروع الأشجار التي كانت تتدلى على الأرض أسفلنا، تناهى إلى مسامعنا صوت صفير العقبان وهو يصدر من أعلى الأشجار، نظرنا فوق رؤوسنا لأعلى فأصبنا بالذهول الشديد من هول ما رأيناه!

كانت أعشاش العقبان بأعلى الأشجار كثيرة جدًا وحجمها كبير جدًا ويزن كل عش منها لأكثر من طن أو يزيد، كانت الأعشاش معلقة أعلى الأشجار بطريقة ماهرة وكأنها قد رسمها شخص ما بيد خبيرة، كان كل عش يحتوي على بيضتين أو ثلاث بيضات أو أربع، كانت صغار العقبان تحلق فوق الأعشاش وكأنها تتعلم الطيران، فجأة سقط أمامنا من أعلى شجرة كائن غريب!

كان شكل الكائن يشبه شكل البشر إلا أنه يملأ الشعر الأسود كل جسمه حتى وجهه، وكان يمشي على أربع، له يدان وقدمان مثلنا ولكنه يستخدمهم جميعاً في المشي والقفز، بدا لنا وكأنه قرد ولكن شكله يشبه إلى حد قريب شكل البشر لولا الشعر الأسود الكثيف الذي يملأ كل جسمه، كان يلف حول عورته قطعة جلد من جلود النمر، أصبنا جميعاً بالفزع الشديد حين كان الكائن يروح ويعيء من أمامنا ويقفز للأشجار بطريقة سريعة جداً ثم يعود ويسقط أمامنا، كان الكائن يرمقنا بنظراته العدائية وهو يمزجر ويصدر أصواتاً غريبة بدت لنا وكأنها لغة ما يتواصل بها مع أحدهم، بعد هنيهة من الوقت تجمع حولنا الكثير من تلك الكائنات الغريبة والتفوا حولنا وهم يمزجرون ويصدرون أصواتهم الغريبة وكأنهم يتحدثون لبعضهم البعض، نظرت للرفاق من حولي فوجدتهم يحكمون قبضتهم على مقابض سيوفهم ويستعدون للقتال، نظرت إليهم فهزرت لهم رأسي بأن لا يشتبكوا معهم، اقترب أحدهم نحو سراج فصار يشمه بأنفه ثم قام بنزع ملابس سراج الجلدية التي تغطي الجزء العلوي من جسمه وصار سراج عاري الصدر، كان سراج يبتلع ريقه بصعوبة بالغة وهو يقف مكانه كتمثال دون حركة أو نأمة وقد امتقع لون وجهه واحتقن، أغمض سراج عينيه ثم أخذ شهيقاً كبيراً فقال بصوت خافت موجهًا كلامه لي:

- هل سنظل واقفين هكذا ولا نفعل شيئاً؟

أجبت بصوت خافت:

- تحمّل يا سراج، لا نريد أن نقاتلهم، فربما لو اشتبكنا معهم يظهر لنا المزيد منهم وهذا سيوقعنا في مشكلة كبيرة.

زفر سراج وقال بحنق:

- أبعد هذا الكائن عني يا فارس، رائحته مقززة جدًا ولا أحتملها.

فجأة زمجر الكائن بصخب وكأنه يتحدث لمن معه فاقربوا جميعهم نحو سراج وصاروا يتحسسون صدره وشعره بأيديهم ويشمون جسده، فجأة حملوا سراجًا ومشوا به لداخل الغابة وسراج يصرخ بأعلى صوته ويستنجد بنا، أشرت لنيقيا وأبريس وأبيدوس بأننا سنتبعهم دون أن يلاحظوا ذلك، مشينا خلفهم خفية وهم يحملون سراجًا ويصيحون بلغتهم بأعلى صوتهم، وصلوا عند مجموعة أكواخ كثيرة كانت بمحاذاة الشاطئ من الجهة الأخرى، خرج كثير منهم من الأكواخ فاستقبلوهم وهم يحملون سراجًا بالتهليل والصياح بأعلى صوتهم، أدخلوه لأحد الأكواخ ووقف اثنان منهم على باب الكوخ وازدحم الكثير منهم حول الكوخ، كان سراج يصرخ بداخل الكوخ بأعلى صوته، نظرت لنيقيا فقلت لها متعجبًا:

- ما تلك الكائنات؟

رفعت نيقيا حاجبيها فأجابتنني بذهول شديد:

- لا أعرف، تلك أول مرة أراهم على كوكبنا، ولم أسمع عنهم من قبل.

نظرت إليهم فقلت لهم بنبرة قاطعة كالسيف:

- الآن سنشتبك معهم لنحرر سراجًا مهما كانت الأضرار.

أمسكنا بسيوفنا وأوشكنا أن نباغتهم ونشتبك معهم ولكنني
أشرت لهم فجأة بأن يتوقفوا مكانهم!

ظهرت فتاة جميلة الملامح خضراء العينين بشعر أشقر منسدل
على كتفها وعظيمة الشأن، بدت وكأنها حورية من شدة بياض
وجهها ونقائه، كانت مختلفة عنهم وليست من فصيلتهم، وكلما مرت
على أحد منهم جثا على ركبتيه احترامًا وتوقيرًا لها، مشت نحو باب
الكوخ وصارت تتحدث مع الحارسين الواقفين على باب الكوخ بلغتهم
الغريبة، أجفلت فجأة واتسعت حدقتا عينيها دهشة وذهولًا حين
استمعت لصرخات سراج داخل الكوخ وهو يقول بأعلى صوته
مستنجدًا:

- أنجدني يا فارس، الماء ساخن جدًّا.

اقتحمت الفتاة الكوخ وصارت توبخهم على فعلتهم وهي تصرخ
فيهم بلغتهم، بعد هنيهة من الوقت خرج سراج من الكوخ وهو يقفز
كالكنغر وكأن قدميه لا تستطيعان حمله وجسده محمر احمرارًا
شديدًا، هرع إلى بركة ماء صغيرة كانت بجوار الكوخ فقذف نفسه فيها
وصار يصرخ ويئن من شدة الألم، اقتربت إليه الفتاة وهي تكتم
الضحك بداخلها فقالت له بصوت ضاحك:

- من أنت وما أدخلك هنا؟

كان سراج يعرض على شفتيه من شدة الألم، نظر حوله في كل مكان بحثاً عنّا فلم يجد أحداً منا، عاد فنظر للفتاة فقال لها بصوت متألم:

- أنا اسعي سراج، ودخلت هنا مع أوناسيو الأحمق الذي تخلى عني وكدت أموت.

فغرت الفتاة فاها دهشة وذهولاً وقالت له بنبرة متعجبة:

- تقول أوناسيو هنا؟

رفع سراج حاجبيه ممتعضاً فقال لها بازدراء:

- وأنا اسعي سراج، قد أخبرتك باسعي قبل أن أخبرك باسمه، ألم تنبهي إلا لاسمه هو؟

نظرت إليه باحتقار فقالت له:

- وما شأنني بك أنت، أخبرني، أين هو أوناسيو وما سبب دخوله هنا؟

خرجنا جميعاً من مخبئنا ومشينا إليهم، أصدرت الكائنات أصواتها الغريبة وصاروا يزمجرون بغضب شديد، رفعت الفتاة يدها عالياً فتوقفوا عن إصدار أصواتهم وعم السكون المكان، اقتربت إليها وهي تقطب وجهها متعجبة، نظرت للرفاق من خلفي ثم عادت ونظرت إليّ وصارت تقلب النظر لشعري وعيني وملابسي، كانت الفتاة في غاية الجمال، كانت بشرتها كلون الحليب، وعيناها واسعتان كعيون الريم، وشعرها أشقر طويل وأملس، ولوجها نقاء لم أشهد

مثله من قبل، وقامتها طويلة وليست بالسمينة ولا بالنحيفة صرت
أنظر إليها وأنا صامت وساكن في مكاني لا أتحرك قيد أنملة، اقتربت
إليّ نيقيا فقال لي هامسة:

- هل أحضرك ورقة وقلماً يا فارس؟

نظرت إليها وأنا أعقد حاجبيّ مستفسراً فابتسمت نيقيا
ابتسامة مصطنعة وأردفت باحتقار:

- لتقوم برسمها حتى لا تنسى ملامحها تلك التي أذهلتك حين
نغادر!

ارتسمت على ثغر الفتاة ابتسامة لطيفة حين سمعت كلام
نيقيا، نظرت إليّ مبتسمة فقالت:

- إذًا فأنت فارس وليست أوناسيو، وقد ظننتك هو حين رأيت
شعرك الأسود وعينيك السوداوين.

ردت عليها نيقيا بامتعاض فقالت:

- بل هو، اسمه فارس في كوكب الأرض وأوناسيو هنا.

ضحكت الفتاة بسخرية فقالت ساخرة:

- وكيف أصدقك؟

اقتربت إليها فرفعت ملابسي وأظهرت لها الشامة البيضاء أعلى
سُرّتي.

اتسعت حدقتا عينيّ الفتاة فقالت بذهول شديد:

- إنها العلامة.

ابتلعت ريقها فقالت بتأثر شديد:

- ما سبب قدومك إلى هنا؟

- لقد أرسلتنا العقبان إلى جزيرة ريبال، قمت بترويض الأسود وحملناها في السفن ونحن نبحر باتجاه الشرق لخوض المعركة العظمى، وفي طريقنا توقفت السفن هنا لسبب لا نعلمه، فأجزمنا بأن العقبان تريد منا الدخول هنا فدخلنا.

لاحت على وجه الفتاة ابتسامة عابرة، قالت والابتسامة لا تفارق ثغرها:

- شعرت بكم وبقدومكم فجر اليوم، فأرسلت الجواسيس إليكم وإلى سفنكم فجاءوني بخبركم وخبر أسودكم.

فغرت فهي متعجبًا فقلت لها بذهول شديد:

- كيف وصلوا إلينا وإلى السفن ولم نشعر بهم؟

عادت الفتاة لابتسامتها فقالت:

- شعوب البابون لديها القدرة على التخفي، فهي تختفي وقتما تشاء وتظهر وقتما تشاء، وباستطاعتها التعرف على رائحة البشرين من على بعد مسافات طويلة.

كان سراج واقفًا يجفف جسده المبتل ويعض على شفثيه من شدة الألم، اقترب إليها فسألها متعجبًا:

- وكيف لفتاة مثلك تعيش مع تلك الشعوب القاتلة؟ لقد كادوا يقتلونني بوضعي في الماء الساخن، كيف تأمنين على نفسك هنا؟

تهتت الفتاة فقالت له ساخرة:

- لم يريدوا قتلك، بل كانوا يطهونك لتكون وجبة الغداء خاصتهم.

أجفل سراج حين سمع كلامها فهرع إليّ والتصق بي فقال وهو يزدرد ريقه بخوف:

- تقولين وجبة الغداء؟ لقد ظننتهم يغسلون الناس قبل قتلهم.

ضحكت الفتاة ملء شديقها فقالت:

- وكذلك يفعل الجميع قبل طهي اللحم.

هز سراج رأسه برفق فقال باحتقار:

- أمن أجل هذا كانوا يضعون الملح في الماء الساخن الذي كنت فيه؟

أصبنا جميعاً بنوبة ضحك هستيرية، اقترب أبريس نحو سراج فقال له بصوته الغليظ وهو يضحك:

- هذا ذنب النعاج التي كنا نسرقها في مملكة مورিকা يا صديقي وكنا نشويها خفية في مخزن الأسلحة.

ثم عاد أبريس لضحكته وهو رافع رأسه لأعلى، كنا نضحك في كل مرة على ضحكة أبريس نفسها لا على ما يقوله.

اقتربت إليهما نيخيا فسألتهما متعجبة:

- من تكونين أنت؟ كيف تعيشين مع تلك المخلوقات وكيف تفهمين لغتهم؟

أطلقت الفتاة تهيدة كبيرة فأنشأت تقول:

- أنا الأميرة سيلين، حاكمة تلك الجزيرة، تم قتل أبي من قبل بعض القراصنة حين كان عمري ست سنوات، كان أبي يعمل في التجارة وكان يصطحبني معه في كل رحلة لأن أمي ماتت بمرض الطاعون ولم تكن لي عائلة سوى أبي، تعرضت سفينتنا للهجوم من قبل بعض القراصنة فقاموا بقتل كل الطاقم الموجود على السفينة واستولوا على كل ما فيها من بضائع، كان أبي يدافع عن نفسه وعني بكل ما أوتي من قوة، أصيب بجروح بالغة، فحملني وقفز بي في الماء وسبح بي حتى وصل إلى هنا، لفظ أنفاسه الأخيرة هنا فمات وهو يودعني بنظراته الحزينة، التقيت بشعوب البابون هنا فقاموا بإعالتني ومساعدتي حتى كبرت، تعلمت لغتهم وصرت واحدة منهم، كانوا دائماً يختلفون في أمور كثيرة وقد يصل الأمر للقتال فيما بينهم، فكنت أصلح بينهم بالحق، لا أظلم أحداً ولا أنصر إلا المظلوم، فاتفقوا جميعاً على أن أكون أميرتهم والحاكمة هنا في تلك الجزيرة.

صمتت الأميرة سيلين هنيئة ثم نظرت إليّ فقالت:

- لقد توقفت دببة الماء عن دفع السفن لأن الأسود كانت جائعة، هي عرفت ذلك ونحن عرفنا ذلك أيضاً لأن الذكور منهم كانوا يهاجمون أشبالهم على السفن في محاولة منهم لأكلهم لولا حماية الإناث للأشبال ودفاعها عنهم.

عقدت حاجبي متعجباً وأنا أنظر للرفاق من خلفي فقلت لهم بذهول شديد:

- كيف لم ننتبه لهذا الأمر؟

عدت فنظرت للأميرة سيلين فسألتها قائلاً:

- وكيف سنوفر لها الطعام هنا؟

ابتسمت الأميرة سيلين فقالت:

- لا تحملوا هم هذا، سنذهب الآن لكوخي الخاص لتناول الطعام وأنا سأمر شعبي بتزويد الأسود باللحوم لتكفيهم حتى وصلوا للشرق.

سارت الأميرة سيلين أمامنا وهي متجهة لكوخها ونحن نتبعها من خلفها، كان سراج يمثي بجانبها وهو يوجه لها الأسئلة السؤال تلو السؤال، كم عمرك، هل تريد تعلم مهارة القتال بالسيف، هل تريد أن تكوني محاربة، هل أحببت من قبل، ألم تقعي في حب قرد من القرود هنا؟

كانت تلك هي أسئلة يسألها سراج للأميرة سيلين أثناء طريقنا ونحن نكتم الضحك من خلفهما، يبدو أن هذا المجنون قد وقع في حب تلك الأميرة.

توقفت الأميرة سيلين أمام كوخ كبير وبديع الشكل، قبل أن ندخل أمرتُ سراجًا بالذهاب للسنف وجلب العجوز وحفيدته أسمايا، كان سراج يتأفف ويزفر بغضب شديد وكأنه لا يريد ترك الأميرة سيلين ولو للحظة واحدة.

زفر سراج فقال لي بحنق:

- ولماذا لا تذهب أنت؟

ثم نظر لأبريس فتابع قائلاً:

- ولماذا لا ترسل صاحب الرأس الكبير هذا.

اقترب إليه أبريس فصفعه على رأسه فقال له مازحًا:

- نفذ تعليمات الملك أيها الساذج واذهب إلى حيث أمرتُ وإلا ضربتك برأسي الكبير هذا ضربة قوية لا يتوقعها عقلك الصغير.

اقترب إليّ سراج فهمس في أذني قائلاً:

- لو قدّموا لكم الطعام بالداخل أرجوك لا تأمرهم بالأكل إلا حين أعود.

مشى سراج نحو السفن وهو يضرب بقدميه في الأرض بغضب كالطفل الصغير، ضحكنا جميعًا على تصرفات سراج وعلى طرفة

الموقف، أدخلتنا الأميرة سيلين لداخل الكوخ فأجلستنا وجلست بجوارنا وأمرت بعض حراسها بأن يأتوها بالطعام، دخلوا علينا في الكوخ ويحمل كل واحد منهم إناءً كبيراً مليئاً باللحم والأرز، طلبت منّا الأميرة سيلين بالبدء في الأكل، كنا ننظر إليها وعلامات الحيرة والتعجب تملأ وجوهنا ونحن مترددون، لاحظت ذلك الأميرة سيلين فلاحت على وجهها ابتسامة لطيفة فقالت:

- لا عليكم، إنها لحوم أبقار ونعاج.

نظرت إلى زاوية بعيدة في الكوخ وأشارت للطعام المتواجد بها فتابعت قائلة:

- أما هذا الطعام فهو طعام عام لشعبي، هم اعتادوا عليه ويفضلونه عن طعامنا هذا.

بدأنا بالأكل، نهضت الأميرة سيلين من مكانها فجأة وهي تزفر فاتجهت نحو طعام شعبيها في زاوية الكوخ فجلست وهي ترتب طعامهم وهي تردد بحنق:

- حاولت كثيراً تعليمهم ترتيب طعامهم ولكنني لم أفجح، في كل مرة أجدهم يخلطون الطعام ببعضه البعض دون نظام أو ترتيب.

دخل علينا سراج ومعه العجوز وحفيدته، هرولت الطفلة أسمايا إلى نيقيا فجلست بجوارها وجلس العجوز بجواري، طلب أبريس من سراج القدوم إليه والجلوس بجانبه والأكل من نفس

إنائه، تجاهله سراج فمشى نحو الأميرة سيلين في زاوية الكوخ فجلس بجانبها وهي ترتب الطعام وهو ينظر إليها ويقول مبتسمًا:

- يبدو أنك ماهرة في صنع الطعام أيتها الأميرة.

نظرت إليه وهي تعقد حاجبها فقالت له متعجبة:

- وكيف عرفت ذلك؟

- عرفت ذلك من مهارتك في ترتيب الطعام.

ابتسمت الأميرة سيلين فقالت:

وهل ستأكل من هذا الطعام؟

ضحك سراج بسخرية فقال:

- أنا بارع جدًا في اختيار الطعام، وهذا الطعام هو يناسبني، إن لم يكن شهياً بما يكفي فيديك قد جعلته شهياً.

نظرت إليه وهي تكتم الضحك بداخلها فقالت له مبتسمة:

- هيا ابدأ بالأكل إبدأ.

هز سراج رأسه مبتسمًا فغرز يده في اللحم فظهر أمامه رأس حيوان ولسانه يخرج من فمه، عقد سراج حاجبيه فسألها متعجبًا:

- هل هذا رأس غزال؟

ضحكت الأميرة سيلين فأجابته قائلة:

- ألم تقل إنك بارع في تذوق الطعام؟ هيا تذوق وأخبرني.

ابتسم سراج فهز رأسه ونزع قطعة لحم من الرأس فوضعها في فمه وصار يحرك مقلتيه يمنة ويسرة فقال مبتسمًا:

- إنه شهبي جدًا.

لم نستطع حينها كتم ضحكاتنا، خرجت منا الضحكات رغمًا عنا وصرنا نضحك بهستيرية، ابتسمت الأميرة سيلين فمدت يدها لسراج فصافحته وعلامات التعجب بادية على وجهه، قالت له الأميرة سيلين مبتسمة:

- الآن أنت صرت فردًا من شعبي، مبارك لك.

عقد سراج حاجبيه متعجبًا فتابعت الأميرة سيلين كلامها قائلة:

- يؤسفني إخبارك أن ما أكلته للتو هو لحم من رأس ثعلب.

أصيب سراج بالفزع فهض من مكانه وخرج من الكوخ مسرعًا وهو يقذف كل ما وضعه في فمه، بعد هنيهة من الوقت عاد سراج وهو ينظر إلينا نظرات شزراء وهو يقطب وجهه حقدًا وغضبًا، نظر إليه أبريس فقال له ضاحكًا:

- تعال وشاركني في إناء اللحم خاصتي، إنه خليط من لحم القنافذ والقطط.

امتلاً الكوخ بالضحكات، كان سراج يرمقنا بنظراته الغاضبة، اقتربت إليه الأميرة سيلين فجلست بجانبه وهي تحمل إناءً مليئًا باللحم والأرز، قالت له بنبرة خجولة:

- متأسفة على ما حدث للتو، لم أكن أقصد ذلك.

تهمد سراج فهز لها رأسه ولم ينبس بكلمة، لاحت على وجه الأميرة سيلين ابتسامة لطيفة فقالت له:

- ألا تريد أن تشاركني الأكل من نفس إنائي؟ لا تقلق، هو طعام من لحم الضأن، فأنا أحب الأرز ولحم الضأن.

ابتسم سراج ابتسامة عريضة فقال لها مغتبطاً:

- أنا أيضاً طعامي المفضل هو الأرز ولحم الضأن.

بدأ بالأكل وهما ينظران لبعضهما البعض نظرات تنم عن إعجاب متبادل، بعدما انتهيا من الأكل قالت له بسعادة كبيرة:

- شكراً لك على مشاركتك لي في الأكل، لقد أكلت اليوم كما لو أنني كنت جائعة منذ شهر، تلك أول مرة في حياتي يشاركني أحد فيها الأكل وأشعر بسعادة كبيرة وأنا معه.

احمر وجه سراج وأصيب بخجل شديد، كان يهز رأسه لها وهو صامت لا ينطق، أو ربما لا يعرف ما يقوله في موقف كهذا، تغلب على خجله فقال لها بتوتر شديد:

- العفو.

ضحكنا جميعاً على الكلمة التي قالها سراج، قال له أبريس ضاحكاً:

- أبعد كل هذا تقول لها العفو أيها الساذج؟

دخل أحد حراس الأميرة سيلين فحدثها بلغتهم فهزت له رأسها مبتسمة وحدثته أيضاً بلغتهم وهو يهز لها رأسه، خرجنا من الكوخ باتجاه السفن، خرجت العقبان من أعشاشها وهي تصدر صفيرتها المهييب وتشير بأجنحتها نحو الشرق، كانت الأميرة سيلين تنظر للعقبان بالأعلى وهي مبتسمة، عادت فنظرت إليّ وقالت بسعادة:

- العقبان تطلب منا الذهاب معكم.

عقدت حاجبي متعجباً فقلت لها متسائلاً:

- وجزيرتكم، وأكواخكم، وأرضكم، ألا تخشون أن يسطو عليها أحد؟

- العقبان ستحي الجزيرة والأكواخ والأرض.

كان شعب البابون يحملون فؤوسهم ورماحهم التي يستخدمونها في القتال ويتجهون للسفن، طلبت منهم الأميرة سيلين بأن يوزعوا أنفسهم على السفن الأربع وتكون السفينة الخامسة هي خاصة بنا، بدأت السفن بالتحرك نحو الشرق ودبية الماء تدفعها، كان شعب البابون يشيعون جزيرتهم وأكواخهم بنظرات تنم عن شوق شديد، فتلك أول مرة يغادرونها وتطأ أقدامهم أرضاً غير أرض جزيرتهم، كانوا هادئين في السفن ينظرون للماء وللهضاب من حولهم ويسيطر عليهم صمت مطبق.

كنت أنظر إليهم من مؤخرة سفينتنا وأراقب انطباعات
وجوههم وتعايرها، ربتت نيثيا على كتفي من الخلف فالتفتُ إليها
فسألني قائلة:

- أنت قلق عليهم أكثر من أميرتهم يا فارس.

عدت فنظرت إليهم فأطلقت تنهيدة طويلة اختلجت لها
أعضائي فقلت لها بصوت حزين:

- انظري إليهم يا نيثيا، إنهم لم يخرجوا من جزيرتهم من قبل،
في لحظات قليلة أجمعوا رأيهم ووافقوا على الذهاب معنا وخوض
المعركة، إنني رأيت في هذا الكوكب شعوبًا غريبة وعجيبة، شعوب
يحبون الموت في سبيل إعلاء كلمة الحق أكثر من حيم للحياة تحت
مظلة الظلم والعبودية.

ران عليّ صمت خفيف ثم تابعت قائلاً:

- الآن أشعر أنني مسؤول عنهم، ومسؤول عن روح كل شخص
هنا، حتى الذين انضموا لخدم سينيت أنا مسؤول عنهم أيضًا لأنهم
انضموا إليه خوفًا من بطشه عليهم أو على عائلاتهم.

ردت نيثيا قائلة:

- ولكنهم قد انضموا إليه في نهاية المطاف يا فارس ورضخوا له
وهم الآن يعينونه على محاربتنا وظلمنا.

- النصر الحقيقي يا نيثيا هو أن أعيدهم لطريق الحق لا أن
أقتلهم، فلو قتلنا كل شخص اقترف خطأ ما فسيخلو الكوكب من

كثير من الناس، فلو أرسلتنا العقبان إليهم قبل أن يسيطر عليهم هذا
البشري لربما كانوا سينضمون إلينا.

لاحت على وجه نيقيا ابتسامة عابرة، تنهدت بعمق فقالت
بتأثر:

- إن أكثر ما يميزك يا فارس هو قلبك الكبير الذي يتسع
للجميع.

اقترب إليّ سراج وهو يحمل حقيبتني وهي تهتز اهتزازًا شديدًا،
أخذتها منه ففتحتها وأخرجت القناع من داخلها فوضعتة على وجهي
فالتصق القناع بوجهي وأخذني إلى حيث يريد.....

«مختار»

كان مختار يتدرب مع ماسيليا على كيفية المبارزة بالسيف بجانب الشاطئ والسفن، كانت ماسيليا تعلمه طرق الدفاع والهجوم بسيفه، وعلمته أيضًا طريقة القنص بواسطة السهام والرماح، كان مختار على دراية تامة بالسيوف والخناجر وطريقة القتال بهما وعلى دراية تامة أيضًا بالخيول وكيفية امتطائها، فقد كان نبهًا وسريع التعلم، مر يومان تعلم فيهما مختار القتال على يد ماسيليا وصار فارسًا ومقاتلاً لا بأس به في يومين فقط، لأنه كان يقرأ عن كل هذا وكان يشاهد أيضًا بعض أبناء الأثرياء الذين كانوا يتدربون في وادي وان تكوفي الذي كان يعيش فيه.

كانت ماسيليا تمسك بيد مختار لتعلمه طريقة مصارعة عدوه والدفاع عن نفسه دون سيف أو درع أو أي سلاح، في كل مرة كانت ماسيليا تُسقطه أرضًا بكل قوة وبلا رحمة، وفي كل مرة كان مختار ينهض وهو يئن من قوة السقوط، زفرت ماسيليا وقالت له بغضب:

- حاول الدفاع عن نفسك كي لا أُسقطك في كل مرة، ولا تظن أنني سأشفق عليك، فعدوك إن ظفر بك لن تأخذه بك شفقة ولا رحمة، إن كنت ستدافع عن نفسك أمام عدوك كما تدافع عنها الآن أمامي فسيحققك بكل سهولة.

لاحت على وجه مختار ابتسامة لطيفة وهو ينظر لعينيها فقال:

- إن كان عدوي يمتلك عينين جميلتين مثل عينيك هاتين
فبالطبع سيسحقني، لا طاقة لي بالصمود أمام هاتين العينين
الرائقتين.

شعرت ماسيليا بالحرّج واحمرّت وجنتاها خجلاً وأدارت وجهها
بعيداً عنه من شدة الخجل.

وضع مختار يده على ذقنها فأدار وجهها إليه والتقت عيناه
بعينها فابتسم ابتسامته المعهودة فقال لها هامساً:
- أرهيقم.

زفرت ماسيليا بغضب وقالت متأففة:

- ماذا سيحدث إن أخبرني بمعنى تلك الكلمة أيها الأسمر، لماذا
تزيد فضولي وتختبر صبري كل هذا الوقت؟
ضحك مختار فقال:

- قلت إنني سأخبرك بمعنى الكلمة لاحقاً.

- ومتى يحين موعد لاحقاً هذه؟ وإن قُتلت في المعركة، فهل
ستأتيني في قبوري وتخبّرني بمعناها؟

نظر إليها مختار نظرة غاضبة فقال:

- لا تُكرري على مسامعي هذا الكلام مرة أخرى، سأفديك
بنفسي وروحي يا ماسيليا، لقد صرتّ قطعة مني، إن فقدتها فقدت
نفسي، فما طيب العيش من بعدك؟

ابتسمت ماسيليا مسرورة ومغتبطة بما قاله مختار، ودّت لو أنها باستطاعتها معانقته أو احتضانه، لأول مرة في حياتها تشعر أن قلبها بدأ ينبض ويضخ الحب وقد كان قبل اليوم ساكنًا لا يضح سوى الدماء.

واصلت ماسيليا تعليمه واستمرت فترة ليست بالقليلة تعلمه المبارزة والمصارعة والطريقة الصحيحة لامتطاء الخيول والقتال على ظهرها، كان الملك أمغناس يقف قريبًا منهما ويأمر الجميع بسرعة تعبئة السفن بالخيول والسلاح، اقترب إليهما فقال موجّهًا كلامه لماسيليا:

- يكفي هذا يا ماسيليا، هيا تجهزا، سنبحر باتجاه الشرق في صباح الغد.

رجعا للبيت ففتح لهما أمني الباب فدخلا وجلسا بجانب والد ماسيليا، كان أمني يسل سيفه وخناجره ويجهز درعه وسهامه وقوسه ووالده ينظر إليه نظرات تنم عن تعجب شديد، خرجت والدة ماسيليا من الداخل وهي تحمل الطعام فوضعتهم أمامهم على طاولة خشبية، نظرت لأمني وهو يجهز أسلحته فأجفلت وقالت له بنبرة متعجبة:

- وكأنك قد تجهزت للذهاب معهم يا أمني!

أجابها أمني والسعادة تملأ وجهه:

- قد فعلت يا أمني.

شهقت أمه فقالت له بحنق:

- لا تفعل يا أمناي.

غضن أمناي حاجبيه فقال لها متسائلاً:

- ولماذا لا أفعل؟

زفرت أمه وقالت له بغضب شديد:

- لا تفعل فحسب.

اشتاط أمناي غيظاً فقال بغضب شديد:

- أيذهب الجميع هنا للقتال كبيرهم وصغيرهم وأبقى أنا؟
أعدل هذا يا أمي؟

مشى أمناي نحو كرسي خشبي كان بإحدى زوايا غرفة الضيافة
فجلس عليه وهو يضع رأسه بين كفيه فتابع بنبرة حزينة:

- سيذهب للقتال مَنْ هم أصغر مني سنّاً ومن هم أقل مني
كفاءةً وأنا لا أذهب! وكأنني إمعة لا رأي لي ولا قيمة في هذا الكوكب
اللعين.

نهض والده من مكانه فاقترب إليه وقال له محاولاً تهدئته:

- إن أمك تخشى عليك يا بني من أن تصبك نازلة من نوازل
الحروب أو فاجعة من فواجعها أو غائلة من غوائلها، فكما تعلم يا
بني، إن رؤيتك للدماء تثيرك وتبعث الخوف في نفسك، وهم ذاهبون
لقتال وسيكون فيه المزيد من الدماء، وسيكون بحر الغياهب بعيداً

عنكم بمسافة كبيرة، فلن يُشفى لك جُرح إن أصبت ولن تستطيع الذهاب للبحر كعادتك لتروّح عن نفسك وتنسى همومك وأحزانك.

نظر إليه أمناي نظرات شزراء فقال له بحنق شديد:

- أنت تعلم جيدًا يا أبي سبب ذهابي للبحر، وأمي أيضًا تعلم هذا وكذلك ماسيليا.

نظر أمناي صوب مختار فأشار إليه فتابع كلامه قائلاً:

- إلا هذا البشري لا يعلم، وإن لم أذهب للقتال سأفشي بالسر وأخبره بالحقيقة.

نظر إليه مختار بتعجب شديد وهو يعقد حاجبيه في حيرة ودهشة.

حدجته أمه بنظرات غاضبة فقالت له بحنق:

- كفاك عبثًا يا أمناي، قد قلت لك إنك لن تذهب معهم، فلا تحاول استفزازنا بأشياء تظن أننا سنذعن إليك إن ذكرتها أو هددتنا بها، يبدو أنك ما زلت طفلًا صغيرًا ولا تعرف كيف تحفظ الأسرار.

زفر أمناي فخرج من البيت غاضبًا، ساد الصمت وجوه الجميع، اقترب مختار ناحية الباب وأوشك على الخروج منه فأوقفته ماسيليا وهي تسأله عن وجهته فأخبرها بأنه سيذهب إليه عند الشاطئ ليخفف عنه غضبه وأخبرها بأنه سيعود سريعًا.

ذهب مختار إلى حيث يجلس أمناي كعادته على الصخرة الصغيرة بجوار الشاطئ، رآه من مسافة بعيدة وهو يمسك ببعض الحصى الصغيرة ويقذفها في الماء بكل قوته ويصرخ صراخاً شديداً وكأنه وحش كاسر قد تم حبسه ويريد التحرر، اقترب إليه مختار وصار بمسافة قريبة منه، حين رآه أمناي وهو قادم نحوه قذف نفسه في الماء بكل قوته، هرع إليه مختار مسرعاً ظناً منه أنه يحاول الانتحار، حين وصل إليه وجده يسبح في الماء على ظهره والماء يرفعه، نظر إليه أمناي فقال له بغضب شديد:

- ما جاء بك؟

- ألا خرجت إليّ لأحدثك؟

- لا أريد.

- لكنني أريد، ولن أعود لبيتكم إلا بعدما أتحدث إليك وإلا سأظن أنني غير مرحب بي في بيتكم ولن أبيت تلك الليلة ببيتكم.
تهند أمناي ثم هز رأسه برفق فخرج من الماء وجلس بجوار مختار على الصخرة.

نظر إليه مختار فسأله بفضول شديد:

- ما سبب غضبك؟

نظر أمناي باتجاه البحر ثم أطلق تهيدة كبيرة اختلجت لها أعضاؤه فأنشأ يقول:

- منذ صغري وأنا ممنوع من الخروج من البيت وممنوع من اللعب مع الأطفال الصغار، كان أبي وأمي يحبساني في البيت ولا يسمحان لي بالخروج لأنني كما ترى، شكلي مختلف عن الجميع هنا، أمتلك شعرًا أسود وعينين سوداوين، فأنا في نظر الجميع هنا مجرد شبخ، كان أبي وأمي يمنعانني من الخروج كي لا أتعرض للنبذ من قبل الأطفال هنا على تلك الجزيرة، كانت أختي ماسيليا تنعم بطفولة مثالية، فهي كانت تخرج من البيت وقتما تشاء وتعود وقتما تشاء وتلعب مع الأطفال وقتما تشاء وتتوقف عن اللعب متى أردت، هذا لأنها كانت تشبه الجميع هنا في الشكل، كنت أكره شكلي وحياتي وكرهت كل الناس هنا، بعدما كبرت لم تتغير معاملة أبي وأمي لي، فهما ما زالا يريانني طفلًا صغيرًا، التحقت أختي ماسيليا بالجيش وبعد ثلاث سنوات قام الحاكم أمغناس بتعيينها قائدة للجيش نظرًا لكفاءتها وبراعتها في القتال، التحقت أنا أيضًا بالجيش وقامت أختي ماسيليا بتدريبي وتعليمي فنون القتال وقام الحاكم أمغناس بتعيني مساعدًا لها بعد سنة واحدة من التحاقني بالجيش.

صمتَ أمناي فأطرق رأسه إطرًا طويلًا لا يتخلله حركة أو نامة، بعد هنيئة من الوقت رفع رأسه باتجاه مختار فأردف بنبرة حزينة:

- واليوم، يخرج الجميع ويبحرون باتجاه الشرق وأنا أبقى هنا وكأني طفل صغير لا يفقه ولا يعقل شيئًا.

ربت مختار على كتفه فقال له والابتسامة تملأ وجهه:

- إنهما يمنعانك يا أمناي ضمناً بك وخوفاً عليك من أن تصيبك
غائلة من غوائل الحروب التي نعرفها بسبب ما فيك من رهبة شديدة
عند رؤيتك للدماء وشعورك بالحزن حيال ذلك، وكما قال لك
والدك، سنذهب لمكان بعيد عن بحر الغياهب، سينقطع عنك ونس
البحر فتصبح كالذي ضل طريقه في صحراء قاحلة وقد انقطعت عنه
كل سبل الحياة.

قاطعه أمناي وقال له بنبرة مليئة بالحزن وخيبة الأمل:

- حتى أنت أيها الأسمر توافقهما على ذلك! ظننتك ستعارضهما
وتقنعهما بأن أذهب معكم.

لاحت على وجه مختار ابتسامة لطيفة فقال مبتسماً:

- إن عارضتهما على هذا فهذا يعني أنني آخذك بيدي إلى
هلاكك، ولكني أرجو لك ما أرجوه لنفسني، وأضن عليك كما لو كنت
أخي، ولو كنت أخي لمنعتك، ليس تقليلاً منك، ولكن ضمناً عليك وعلى
نفسي من أن تخسر نفسك أو أخسرك.

ابتسم أمناي ابتسامة كبيرة فقال والابتسامة مرتسمة على
وجهه:

- لكم تمنيت أن يكون لديّ أخ مثلك أكبر مني، يقويني إذا
ضعفت ويقميني إذا سقطت وينصحني إذا أخطأت.

- وأنا منذ اليوم يا أمناي سأكون لك السند والداعم، سأكون
لك بمنزلة الأخ، وأي شيء تطلبه مني سأنفذه.

عقد أمناي حاجبيه فقال له متسائلاً:

- تقول أي شيء؟

- نعم أي شيء.

- إذا فإنني أطلب منك الذهاب معكم نحو الشرق.

ضحك مختار فقال:

- أما هذا فلا، هذا أمر قُضي الحكم فيه، فلا تحاول مراوغتي أيها الذكي.

صمت مختار هنيئة ثم قال:

- ولكنني سأعطيك أغلى ما أملك، سأترك معك شيئاً حتى أعود إليك يكون علامة صدقي.

غضن أمناي حاجبيه متعجباً فوضع مختار يده داخل جيبه فأخرج منه القلادة التي ورثها من أمه، فمدها إلى أمناي فأخذها منه فقال له بنبرة حازمة:

- حافظ على تلك القلادة يا أمناي، فإنها والله أغلى ما أملك، ولم يحدث أن فرطت فيها منذ أن حصلت عليها.

كان أمناي يقلب النظر في القلادة ومنهراً بها وبجمالها ومغبتاً بحملها، نظر صوب مختار فقال له بسعادة كبيرة:

- تترك معي القلادة التي ورثتها من أمك؟

- نعم، لأثبت لك أنني سأعود إليك، لأقص عليك نبأ الحرب وما أحدثنا فيها، لتشعر وكأنك كنت معنا جنبًا بجنب.

كان أمني ينظر إليه تارة وإلى القلادة التي يحملها في يده تارة أخرى، امتلأ وجهه بسعادة عارمة، اقترب لمختار ففتح ذراعيه وعانقه عناقًا طويلًا، قال له بسرور شديد:

- منذ اليوم قد صار لديّ أخ أكبر مني.

نظر إليه مختار نظرة تنم عن تعجب شديد، تهدم مختار فقال له متسائلًا:

- ما هذا السريا أمني الذي كنت تهدد به والدك ووالدتك.

أطلق أمني تهيدة طويلة فقال بصوت خافت:

- هو سر، كنت أهدهما به فقط، لست أحمقَ لتلك الدرجة حتى أفشي به.

- أنا لا أطلب منك أن تخبرني بذلك السريا أمني، ولكنني أسألك لحاجة في نفسي، هل هذا السريخص العجوز التي تسكن في الكوخ بجوار الشاطئ؟

- لا، هذا السريخص عائلتي.

نظر إليه أمني وعيناه تبرقان فقال له متلهفًا:

- أخبرني عن بعض الأشياء في كوكبكم أيها الأسمر، صف لي الطائرة والقطار والسيارات والهواتف، أخبرني كيف تعمل تلك

الأشياء، لقد قرأت عنها كثيرًا في الكتب، يبدو كوكبكم غنيًا بالتكنولوجيا ومتطور جدًا، حدثني عن ليبيا ومدنها وشعبها وأرضها وصحرائها بما أنك قدمت من ليبيا.

صمت أمني هنيئة ثم لمعت عيناه وأردف بفضول شديد:

- حدثني عن الشهيد البطل عمر المختار.

نهض مختار من مكانه فقال له:

- سأجيبك على كل أسئلتك هذه في طريق عودتنا للبيت، هيا نعود للبيت لأتجهز للإبحار نحو الشرق صباح الغد.....

«فارس»

أول خطوات النجاح هو الصبر، وليس بعد الصبر إلا الفرج.

سنة أيام متواصلة والسفن تجري بنا وتشق عباب الماء دون توقف، ستة أيام انقطعت عني ففهم أخبار أصحاب المهمات ولم يعد القناع يهتز ليأتيني بأخبارهم، توقفت معارك العقبان في جو السماء وساد الهدوء كل الأرجاء، وكأن العقبان تخبرنا بأنها قد أنهت مهمتها والأمر الآن قد صار بأيدينا، معركة واحدة فاصلة سنخوضها، إن انتصرنا فيها سنحيا الكوكب كله، وإن خسرتها فقد خسرتنا كل شيء، الآن لا ندافع عن قبيلة أو عن عرق أو عن مملكة بعينها، الآن ندافع عن كوكب بأكمله بكل شعوبه ومخلوقاته وكائناته.

خفضت السفن من سرعتها وتراءت إلينا مملكة الغوائل بأسوارها الشاهقة، فرحة عارمة انتابت كل من كانوا في السفن، كنا جميعاً نهل فرحين ومغتربين بوصولنا لمملكة الغوائل وهي أول محطة لنا نحو مملكة مورिका، كانت أسوار مملكة الغوائل ممتلئة بالناس وهم يرفعون الرايات وسعف النخيل ويلوحون لنا من بعيد، ظهرت طيور روزا وهن يحلقن باتجاهنا في سعادة وانثناء، وصلن إلينا وصرن يظفن حول السفينة التي كنا نتواجد بها، كانت توتو تردد بعض الألحان الشجية بواسطة حلقها وفمها، اقتربت إليّ توتو

وصارت تمعن النظر إليّ فرفعت حاجبيها الرفيعين وقالت بذهول شديد:

- أنت لا تشبه شقيقتك إيمان البتة!

ضحكت وقلت لها:

- أنا أشبهك أنتِ يا توتو وكأنكِ توأمي.

فغرت توتو فاها وقالت متعجبة:

- أتعرف اسمي!

- وكيف لا أعرفه وأنا صاحب الدم النبيل، بالمناسبة، اسمك

جميل جدًا.

نظرت توتو صوب كريستال وجوهرة فقالت بسعادة كبيرة:

- ألا تسمعان؟ لطالما سخرتما من اسمي كثيرًا فحُقَّ لكما اليوم

أن تغارا مني ومن اسمي.

عادت توتو فنظرت إليّ وقالت:

- أنا سأشارك معك في معركتك، أمتلك قوى خاصة لا يمتلكها

أحد على هذا الكوكب سوانا، هل أريك الآن تلك القوى؟

حدجتها كريستال بنظرات غاضبة وقالت لها بصوت صارخ:

- توتو، ماذا قلت لك من قبل؟

نظرت لتوتو مبتسمًا فقلت لها:

- لا تستخدمى تلك القوى يا توتو إلا في وقتها، إن العقبان لم تأمرن بعدم استخدام قوتكن عبثاً.

اتسعت حدقة عين توتو ذهولاً فقالت موجهة كلامها لكريستال وجوهرة:

- انظرا، إنه يعرف عنا كل شيء، إنه بالفعل خارق.

توقفت السفن قرب أسوار مملكة الغوائل، نزلت من السفينة فوجدت إيمان تهرول نحوي مسرعة، هرعت إليها وحين وصلت إليها قمت باحتضانها وصارت تبكي بكاءً شديداً، كانت تنشج كالأطفال، مسحتُ دموعها بيدي وقلت لها بصوت واهن:

- اشتقت لك كثيراً يا كل قلبي.

لم تستطع إيمان التحدث، كانت العبرات تمنعها، شعرت بقشعريرة مهيبة تملأ كل جسدي، ما أقى الفراق وما أجمل اللقاء، اقتربت لبيهي فعانقته طويلاً وقلت له:

- لقد أنقذت حياة إيمان مرتين، فيتوجب علي الآن أن أشكر لك معروفك هذا وأحيي فيك شجاعتك وإقدامك.

دخلنا لمملكة الغوائل وقد كانت ممتلئة بالجيوش، مراد وشقيقه مازن والسيد شهاب وشعبه، ومختار وماسيليا والحاكم أمغناس وشعبه، وبهي ومن معه في قلعة الفرسان والحاكم أوزيس حاكم مملكة العمالقة وشعبه، لقد وصلوا لمملكة الغوائل في أيام متفرقة واتخذوها معسكراً لهم حتى نصل إليهم، حتى الحكيم أتوم

وشعب مملكة الجواسيس كانوا في انتظارنا أيضًا في مملكة الغوائل،
 التم الشمل واتحدت قوتنا وصرنا كلنا بقلب رجل واحد، طلبت من
 كل حاكم أن يتولى أمر شعبه وتكون له الكلمة العليا والسلطة عليهم،
 أخبرني أبيدوس وهو أعلم الناس بالطرق بأن ثمة طريقًا مختصرًا
 يوصلنا لمملكة مورिका في ظرف ثلاثة أيام فقط، ولكنه طريق وعر
 ومليء بالجبال والمنحدرات بالإضافة لانقطاع القوت عنّا من طعام
 ومشرب، لم أتردد في اختيار هذا الطريق رغم صعوبته ووعورته لأنه
 سيوفر علينا أربعة أيام كاملة في سيرنا نحو مملكة مورिका، أما الماء
 والطعام فنستطيع حملهما، وطعام الأسود سيتكفل به شعب البابون
 بأمر من سيلين حاكمتهم.

لم نسترح، بدأنا بالمسير نحو مملكة مورिका بقلوب مليئة
 بالإصرار والقوة والعزيمة، كل شخص يحمل على عاتقه مهمة صعبة
 وثقيلة، كانت إيمان تمتطي حصانها وتمشي بجواري أنا ونيقيا، كانت
 إيمان تنظر إليّ تارة وإلى نيقيا تارة أخرى وهي تبتسم، كنت أكتفم
 الضحك بداخلي، فأنا أعرف نظرات أختي جيدًا، لاحظت نيقيا
 نظرات إيمان فغضنت حاجبيها وقالت لها مبتسمة:

- ما الأمر؟

لاحظت على وجه إيمان ابتسامة لطيفة وقالت لها:

- لا شيء، أنا أنظر إليك ومنيرة بجمالك الساحر، لقد وصفك
 لي فارس حين كنا بكوكبنا، والآن أيقنت أن فارسًا لا يجيد الوصف
 بدقة، فأنت أجمل مما وصف، وأعظم مما مدح.

شعرت نيخيا بالخجل الشديد، كانت تبتلع ريقها ولم تنبس بكلمة، تابعت إيمان كلامها متسائلة:

- ألا تعرفين فتاة هنا بكوكبكم تكون بنفس جمالك وقوتك وبأسك، فأنا أبحث عن زوجة لأخي فارس.

ضحكت نيخيا فقالت متعجبة:

- للأسف لا أعرف، ولكني أعرف خاطبة ربما يجد عندها فارس مراده.

نظرت إليّ إيمان فقالت بسخرية:

- ماذا قلت يا فارس؟

عقدت حاجبيّ بتعجب فقلت:

- ألا تتوقفين عن مزاحك هذا أيها الساذجة؟

رفعت إيمان حاجبها وقالت ممتعضة:

- أنا أردت فقط المساعدة، أراك لا تبالي فأحببت أن أوقظك لتتحرك أو ربما أنت تشعر بالخجل حيال ذلك فأردت أن تتحرر من خجلك.

لاحت على وجهي ابتسامة هادئة فقلت لها:

- كُِّلّ في وقته يا إيمان، لا نفكر الآن في أي شيء سوى تلك المعركة التي سنخوضها، فهي المعضلة وهي الميزان الذي سيترتب عليه مصيرنا ومصير كل شيء بالكوكب هنا.

حلفت توتو باتجاه إيمان فاستقرت على كتفها، أشارت توتو للحقيبة خلف ظهر إيمان فقالت لي متسائلة:

هل تعرف ما يقبع داخل حقيبة إيمان؟

ابتسمت ابتسامة عريضة فقلت لها:

-نعم أعرف، إنها تحمل في حقيبتها حلوى الشكولاتة.

نظرت توتو لإيمان وهي تضيّق عينها فقالت لها متعجبة:

- كيف يعرف كل شيء هكذا وهو لم يكن معنا؟

نزعت حقيبي من خلف ظهري فوضعتها أمامي على صهوة الحصان فقلت موجّهًا كلامي لتوتو:

- هل تعرفين ما يقبع داخل حقيبي؟

- لا، لا أعرف.

ففتحت الحقيبة وأخرجت منها القناع الذهبي، أجفلت توتو حين رآته فقالت متسائلة:

- ما هذا القناع الجميل؟

- هذا القناع حين كنت أضعه على وجهي كنت أراكم في جزيرتكم رأي العين، وبواسطته عرفت كل شيء عنكم.

حلفت توتو باتجاهي فاستقرت على حقيبي فنظرت داخلها ورفعت حاجبيها الرفيعين فقالت:

- هل تحمل داخلها الشكولاتة مثل إيمان؟

ضحكت فقلت:

- لا، الشكولاتة تحملها الفتيات فقط وتحبها أيضًا الفتيات فقط.

- أنا أحبها ولست فتاة، أنا طائر.

- ولكنك أنثى يا توتو.

أخرجت إيمان من حقيبتها ثلاث قطع من الشكولاتة، أعطت واحدة لتوتو وقالت لها:

- تلك آخر قطعة شكولاتة ستحصلين عليها يا توتو، ويؤسفني إخبارك بهذا، فلقد نفدت مني كلها.

أطبقت توتو شفيتها في حزن وكمد فقالت بنبرة حزينة:

- هذا أسوأ خبر سمعته منك منذ أن التقيت بك، لن أكلها الآن، سأحاول الاحتفاظ بها لأطول مدة أستطيع.

أعطت إيمان قطعة شكولاتة لنيقيا فأخذتها منها وشرعت بأكلها، كانت نيقيا تأكلها بنهم وهي مبتسمة، قضت عليها في ثوانٍ معدودة، نظرت لإيمان فقالت مغتيبة:

- ما هذا الشيء؟ إنه لذيذ جدًا.

ضحكتُ بهستيرية فقلت:

- كنت أعلم أنها ستعجبك، من النادر جدًا أن لا تحب فتاة حلوى الشكولاتة.

كان بهي يسير خلفنا ويسير بجواره سراج وهما يتابعان الموقف الحاصل أمامهما ويبتسمان، التفتت إيمان نحو بهي فأعطته قطعة الشكولاتة الثالثة، فتحها وأمسكها بيده وصار ينظر إليها بتعجب وذهول شديد، اقترب إليه سراج وهو يسلط ناظريه على قطعة الشكولاتة في يده ويرفع حاجبيه ويطبق شفتيه، قال له سراج متسائلًا:

- ما هذا الطعام يا صاح؟ أيشبه اللحم في مذاقه؟

قام بهي بقطعها لنصفين، أعطى لسراج نصفها ووضع في فمه النصف الآخر، غضن بهي حاجبيه وهو يأكلها فقال:

- طعمها مثير وجذاب ولكنه لا يروقني.

أما سراج فقال بعد أن ابتلعها في لمح البصر:

- يلزمني المزيد منها لأحکم، أو لتنتظروا يومًا كاملًا حتى تصل لمعدتي.

أصبنا جميعًا بنوبة ضحك هستيرية، لقد أنسانا المزاح همومنا وتعبنا وصرنا وكأننا نسير في نزهة وهذا ما كنت أرجوه لأخفف عنهم ما هم فيه من البؤس والشقاء والتفكير المتواصل في المعركة.

كانت السماء تمتلئ فوقنا بالسحب، الطقس هنا دافئ نوعًا ما عن الطقس الذي لقيناه في جزر بحر الغياهب، الأمطار هنا لا تهطل باستمرار، كان قرص الشمس يتوارى خلف السحب ويظهر كل فينة وأخرى، كان كلما ظهر يُشعرنا بالدفء ويمدنا بالنشاط والطاقة، كنا نسير طول النهار وهدأة من الليل، لا نستريح إلا في الهزيل الأخير من الليل ثم نعود ونواصل السير حين تنشر الشمس أشعتها وتملأ الصحراء القاحلة التي كنا نسير فيها، مرّت ثلاثة أيام من السير المتواصل في تلك الصحراء القاحلة والممرات الضيقة وسط الجبال التي تحفى فيها النعال وتدمى الأقدام، كنا نسير بخيولنا والأسود وشعب البابون يتبعوننا من خلفنا، أصيب الجميع بالتعب والإرهاق، إننا نسير في صحراء قفراء لا زاد فيها ولا متاع، أو شك الماء أن ينفد، ونحن نسير الآن في تلك الصحراء الجذباء الكأداء التي لا ماء فيها ولا ثمر، ولا نجد فيها ما يتبلغ به المتبلغ أو يتعلل به الظامئ، نهار ثم ليل ثم نهار ثم ليل ثم نهار ونحن لا نزال سائرين لا نترث ولا نتئد أملين بأن نصل لوجهتنا في أقصى سرعة ممكنة.

مال ميزان النهار، وشارفت الشمس على المغيب، لقد أخذ العطش مأخذه منّا وصرنا نسير ببطء شديد، حتى الأحصنة هي الأخرى قد شعرت بالعطش وبطؤت حركتها، نظرت لأبيدوس نظرات تنم عن خيبة أمل كبيرة فوجدته يبادلني بعض النظرات الحزينة وكأنه يخفي عنا شيئاً ما، مرت هدأة من الليل فأمرت الجميع بالتوقف للراحة، أشرت برأسي لأبيدوس بأن يتبعني خلف جبل كان

متواجدًا بمسافة قريبة منا، مشيت نحو الجبل وتبعني أبيدوس، حين وصلنا أسفل الجبل تنهدت بعمق وقلت له:

- نظراتك لا تبشر بخير يا أبيدوس، هل ما زلنا بعيدين عن مورिका؟

- لا أعرف يا فارس، كل ما أعرفه أن المسافة من مملكة الغوائل إلى مملكة مورिका في هذا الطريق تستغرق ثلاثة أيام.

- تقول لا تعرف؟ ألم تقطع تلك المسافة من قبل؟

- لا، لم أقطعها من قبل، ولكنّ صديقًا لي قد قطعها من قبل وأخبرني أنه قطعها في ثلاثة أيام.

- هل تمزح يا أبيدوس؟ ربما هذا الصديق قد كذب عليك وأراد أن يهلكك.

- ليس الرجل بالذي يكذبني أو يخونني، لقد كان صديقًا صادقًا، لم أعهد منه كذبًا من قبل.

أطلقت تهيدة طويلة فقلت بصوت واهن:

- على كلّ سنواصل السير صباح الغد، إن لم نبلغ مملكة مورिका في نهار الغد فسوف نتوقف، سأعمل على حفر بئر أولًا لنروي عطشنا ثم نقرر بعدها هل نواصل السير أم نعود من حيث جئنا.

أرسلت الشمس أشعتها الفاتنة على أجسادنا المنهكة، وغردت طيور روزا في المكان بسعادة وانتشاء وهي تطلق ألحانها الشجية وكأنها

تنبعث من آلة موسيقية، كانت طيور روزا يحلقن ويرفرفن بأجنحتهن فوق رؤوسنا وهن يرددن بصوت واحد:

- العقبان قريبة، العقبان قريبة.

نهضت إيمان من مكانها مسرعة واتجهت إليهن، اقتربت إليهما توتو فقالت لها بسعادة:

- العقبان قريبة منّا يا إيمان.

عقدت إيمان حاجبيها مستفسرة فتابعت توتو كلامها قائلة:

- نحن نستمع لأصوات العقبان، لا أحد باستطاعته سماعها إلا نحن، إن صوتها قريب وهذا يدل على أننا قد اقتربنا من مملكة مورिका.

سعادة كبيرة ملأت وجوه الجميع، نهض كل شخص من مكانه ليجهز أسلحته وخيوله لنواصل السير نحو مورिका، كان مراد يقف بجوار شقيقه مازن وقد امتقع لون وجه مازن واحتقن، كان مازن ينظر للسماء من فوقه وهو مرتاع ويرتعش جسده بشدة، كان مراد يقوم بتهديته وطمأنته بأن الأمور تسير بخير، نظرت إليّ إيمان نظرات متعجبة حين رأت مازن على حاله تلك، أخبرتها بما حدث معه منذ دخوله الكوكب وما لقيه في مورिका من أسر وسوء معاملة وحمله بواسطة أحد الصقور وإرساله إلى مملكة الحصن إلى شقيقه مراد ومهاجمة العقبان له طول رحلته نحو مملكة الحصن.

تجهز الجميع، وحمل كل شخص متاعه وأسلحته وواصلنا السير باتجاه موريسكا، انتصف النهار فظهرت العقبان فوقنا بأعداد كبيرة، هوت العقبان على مازن وصارت تهاجمه وهو يصرخ مستنجدًا بأعلى صوته، هرعت إليه وأبعدت عنه العقبان فصار يبكي بكاءً شديدًا ونظر لمراد فقال له بنبرة غاضبة:

- ألم أقل لك أيها الأحمق، إن تلك المعركة ستبيدنا جميعًا، لو رأيتم ما رأيته أنا داخل مملكة موريسكا لفكرتم في الأمر كثيرًا قبل أن تخوضوا تلك المعركة المستحيلة.

أخرج مراد سيفه من غمده وأوشك على أن ينقض عليه ويقتله لولا أن لحقت به وأوقفته، حدجه مراد بنظرات غاضبة وقال له بتهديد:

- إن كررت كلامك هذا مرة أخرى يا مازن فسأقتلك، أتريد أن تُخزّن الناس عن خوض المعركة.

ألقى مازن سيفه على الأرض فقال له بحنق:

- لن أذهب معكم، ولن أشارك في تلك المعركة الخاسرة، سأعود من حيث جئت لأنجو بنفسي قبل أن أهلك.

نظرت لمازن نظرات شزراء، تهتدت فقلت له بغضب شديد:

- وما حملك على القدوم معنا إن كان هذا قرارك؟

- لقد أخطأت، والآن أتحمل عواقب خطئي، وما حملي على المجيء معكم سوى هذا الأحمق وأشار بيده إلى مراد.

اشتات مراد غضبًا وقال له بغيظ شديد:

- لم أجبرك على المسير معنا، لقد كنت سيد قرارك، وقد طلبت منك أن تبقى في مملكة الحصن ولا ترافقنا ولكنك أبيت.

قمت بتهدة مراد وطلبت منه بأن لا يرد على كلامه المستفز، فأنا أعرف الحوار الذي دار بينهما في مملكة الحصن حين كنت ألبس القناع، نظرت لمازن فقلت له بغضب شديد:

- اذهب يا مازن إلى حيث تريد، لا حكم لنا عليك بعد اليوم، وبعد انتهاء المعركة سأعيدك لكوكبنا وأنا أعدك بهذا.

بدأنا بالسير نحو مملكة مورिका، كان مازن يقف مكانه ويشيئنا بنظراته الحزينة، كان ينظر لشقيقه مراد ويهزله رأسه باكياً وكأنه يطلب منه عدم الذهاب معنا، واصلنا السير حتى اختفى مازن عن أنظارنا وكأن الصحراء قد ابتلعتة، كان مراد يشعر بالحزن الشديد جراء ما حدث، كان يمني النفس بأن يكون أخوه شجاعاً ومقدماً لا يخشى الموت.....

ترأت إلى أنظارنا مملكة مورिका بأسوارها العالية والمزخرفة، كانت أسوارها مليئة بالصقور والنسور وطيور الأبيس، حلقت كل الطيور حين رأتنا وصارت تطوف حول المملكة وتصدر أصواتها المهيبة، توقفنا عن السير قرب المملكة، كانت الأسود تطلق زئيرها بصوت عالٍ وكأنها تنتظر إشارتي ببدء الهجوم، طلب مني بهي وماسيليا بالتريث وعدم التسرع، وأن نخوض المعركة بصفوف منتظمة وتخطيط وتنظيم محكم، عسكرنا في مكاننا وكل شخص

منّا ينتظر بدء المعركة بشجاعة وحماس شديدين، تراءى إلى أنظارنا شخص يخرج من مملكة مورिका ومعه رهط من الحراس يتبعونه من خلفه، كان يسير باتجاهنا والحراس يتبعونه من خلفه، اقترب إلينا بمسافة قريبة نوعًا ما فهتف بصوت صارخ:

- ألا جئتني يا فارس لأحدثك، رجل لرجل.

اندهشت حين سمعت صوته، هذا الصوت قد سمعته من قبل، دققت النظر لأتبين الرجل ولكن بُعد المسافة بيني وبينه حال دون ذلك.

تقدمت خطوة إليه فأوقفتني ماسيليا قائلة:

- انتظري يا فارس، لا تذهب بمفردك فربما يضمرون لك بعض الخبث، فإنني أعلم منك بخفايا الحروب وغوائلها.

اقترب إلي بهي ومختار ومراد وسراج وأبريس والملك أمغناس والحاكم أوزيس حاكم مملكة العمالقة وسرنا باتجاه الرجل، فغرت في دهشة وذهولًا حين وصلت إليه، لقد كان الرجل هو السيد ناصر!

لاحت على وجهي ابتسامة ساخرة فقلت له بازدرأ:

- أنت؟ لقد وفرت عليّ عناء البحث عنك لأقتلك بما فعلت بأبي وأمي وأنا وأختي من بعدهما.

ضحك السيد ناصر ساخرًا فقال:

- اليوم لسنا في ضعف يا فارس، ولسنا أيضًا في قلة، لقد انضممت أنا والسيد سليمان وبعض الحكام هنا لرجل بشري قوي قد يعادلك في قوتك وربما يفوقك فيها.

- هه، خادم سينيت؟ هكذا تطلقون عليه؟

- نعم، هو يطلق على نفسه خادم سينيت، هذا لأنه يمتلك كتاب خاتمة سينيت، وهو الكتاب الأخير من سلسلة كتب التعاويذ الفرعونية، ولكن هذا الكتاب يفوق كل التخيلات، هو كتاب يتيح لحامله السيطرة على كل شيء بالكوكب.

- ولكنه لم يستطع السيطرة إلا على الضعفاء فقط، الأقوياء كالعقبان والأسود ودببة الماء لم يستطع السيطرة عليهم أو ضمهم إليه.

- ولكنه استطاع السيطرة على أشياء عدة، ولو دخلت مورिका لذهلت مما ستراه، إن المملكة مليئة بالجيوش من الناس والحيوانات والطيور والزواحف ووحوش الجبال.

- من هذا الرجل البشري الذي تطلقون عليه لقب خادم سينيت؟

- هه، بالطبع لن أخبرك، فلو أخبرتك ستنتهي المعركة قبل أن تبدأ، ولكنك تعرفه جيدًا وربما تحدثت معه من قبل.

نظر للرفاق من خلفي فأردف بسخرية:

- وربما يكون واحدًا من رفاقك هؤلاء، فخادم سينيت -إن كنت لا تعلم- ذكي جدًا وبارع في المراوغة جدًا جدًا.

أطلقت تهيدة طويلة فقلت له متسائلًا:

- والآن، ما سبب طلبك لمقابلتي؟ هل تود أن تعرض الصلح عليّ أم تريد تقسيم الكوكب لنصفين نصفه لنا والنصف الآخر لکم؟

ضحك بسخرية فقال:

- لا لا، نصف الكوكب بالطبع لن يرضينا، نحن نطمع في الكوكب كله، دونكم، ودون أي شخص تابع لکم، وإن انتصرنا عليكم هنا فسنبحر باتجاه الغرب ونبيد كل سكان جزر بحر الغياهب ليكون الكوكب كله لنا دون خائن أو معارض.

صمت السيد ناصر هنيئة ثم أكمل قائلاً:

- لقد أرسلني خادم سينيت إليك لأقول لك هل تمضي إلينا أم نمضي إليك لبدء المعركة؟

نظرت لماسيليا وبهي من خلفي فقالت لي ماسيليا بصوت خافت:

- بل يسيرون هم إلينا، إنهم -حسب قولهم- أعدادهم كبيرة، فلو دخلنا نحن إليهم في مملكتهم سيحتاطون بنا من كل جانب وسيتفوقون علينا بكل سهولة.

نطق بي فقال:

- نعم، الرأى كما قالت ماسيليا، إنهم يحاولون استفزازك بطلبهم هذا لتذهب أنت إليهم لتثبت لهم أنك تمتلك شجاعة لا مثيل لها وأنت لا تخشاهم، فنقع في فخهم ويتفوقوا علينا بكل سهولة، فالرأى أن يسيروا هم إلينا في أرض واسعة نقاتل فيها بحريتنا وبسهولة ويسر.

ضحك السيد ناصر ضحكة ساخرة فقال:

- هل انتهيت من اجتماعكم وتشاوركم؟

تهددت بعمق فقلت له:

- لنخض المعركة خارج مملكتكم، هنا في تلك الأرض الواسعة، نحن لا نضمن مكركم.

ازدادت ضحكاته الساخرة فقال بخبث شديد:

- كنت أعرف أنك ستقرر هذا، أنت ما زلت صغيرًا في السن يا فارس ولا تستطيع اتخاذ قرارًا من تلقاء نفسك.

- وما الضير إن شاورت أصدقائي واقتنعت برأيهم إن وجدته رأيًا مناسبًا؟ وهل كانت المشورة قبل اليوم أمرًا يضام عليه المرء أو يُعاب؟

زفر السيد ناصر فقال بحنق شديد:

- أنت ملك الكوكب، تمتلك قوى خارقة وتمتلك الدم النبيل،
أنت أقوى من أي شيء على الكوكب هنا، لا يليق بك أن تتخذ الأوامر
من أشخاص لا قيمة لهم كهؤلاء الذين من خلفك.

اشتاط الحاكم أوزيس غضبًا وقبض بيده على المطرقة التي
كان يحملها وقال موجهًا كلامه للسيد ناصر بغضب شديد:

- بضربة واحدة من مطرقتي هذه أيها الأحمق سأدق رأسك
اللعين هذا وأدفنك في باطن الكوكب ولن أحفل لعواقب هذا وإن
كان موتي.

رد عليه السيد ناصر بسخرية:

- غدًا سنرى من يدق رأس الآخر أيها العملاق.

نظر إليّ السيد ناصر فأردف:

- لقد أنفقت أموالًا طائلة لاكتشاف هذا الكوكب، كان غرضي
حينها هو الشهرة، أن أسير في الشارع فيشير إلي الجميع مرددين: هذا
هو السيد ناصر مكتشف الكوكب الجديد، ولكني بعدما دخلت هنا
وعرفت أن التكنولوجيا لا تعمل بالكوكب ولن أستطيع إثبات
اكتشاف الكوكب بالصور والمرئيات تبدد حُلِّي وأصبت بخيبة أمل
كبيرة جدًّا.

ران عليه صمت خفيف فتابع بنبرة يشوبها حزن شديد:

- كان والدك صديقي يا فارس.

تجمعت الدموع في عيني وهي تتبادر للسقوط فقلت بتأثر:

- مات أبي بسببك.

- بل مات بسبب خيانته لي ومخالفة تعليماتي.

- ليس أبي بخائن، وأنت تعرف هذا جيدًا.

احتقن وجهه وقال بصوت صارخ:

- بل خائن، طلبت منه أن يدخل الكوكب ويمدنا بالصور لنعلن اكتشاف الكوكب، وحين دخل هنا نسي مهمته المكلف بها ووقع في حب الملكة أسمايا وتزوج بها وأنجبك أنت وأختك، لو عاد وأخبرنا بأن التكنولوجيا هنا لا تعمل وأنه لم يستطع تصوير الصور التي تثبت اكتشاف الكوكب لعذرته.

قلت له بغضب شديد:

- أبي لم يخُنك، لقد تزوج بأمي ليحميها وشعبها من بطش ناتون وابنيه، فقد كانوا ينوون خيانتها وخيانة شعبها.

هتف السيد ناصر بنبرة صارخة:

- مالنا نحن ومشاكلهم؟

- كان أبي دمث الخلق ورقيق الحاشية وذا مروءة، وليس أبي بالذي يرى ظلمًا بيننا أمامه فينصرف عنه دون أن يفعل شيئًا لوقف ذلك الظلم.

- إذًا فقد استحق الموت.

- وأنت أيضًا تستحقه، وسيكون موتك على يدي.

تهمد السيد ناصر فقال بصوت خافت:

- موعدنا غدًا يا فارس، لنرى من يستحق الموت.

غادر السيد ناصر ومن معه وساروا باتجاه المملكة، أطلقت تنهيدة طويلة اختلجت لها أعضائي وأنا أراقبهم بنظرات تنم عن ضيق شديد فقلت بصوت جهوري:

- كان يعيش في كوكبنا حياة هائلة، وهو من أغنى رجال الأعمال ببلدنا، تُرى ما سبب دخوله هنا في كوكب ناءٍ لا ينعم فيه برفاهية أو يجد فيه ما كان يجده بكوكبنا؟

ربت بهي على كتفي فقال وهو يبتسم بسخرية:

- يريد السلطة والنفوذ يا فارس.

ضحكت نيقيا بسخرية فقالت:

- اعذرنى يا فارس على صراحتي، إن البشريين هم أسوأ المخلوقات في هذا الكون، كنا نعيش من قبل في أمن وسلام حتى دخل الملك أوناس لكوكبنا، فتعلم منه الناس هنا الخيانة والغدر والقتل.

صمتت نيقيا هنيئة ثم تهمدت وقالت بنبرة متأثرة:

- إذا حلَّ البشر بمكان أفسدوه وجعلوه خرابًا يبابًا.....

«المعركة العظمى»

بزغ الفجر ومشت أشعته في جلدة الظلام فندسخت غياهب الليل المهيمن وشارفت الشمس على الخروج من خلف حجابها، بعينين دامعتين، وبقلب يتألم من عمق الجرح الذي أصابه، هذا كان حال مراد طوال الليل وهو نائم بجواري حتى ظننت أنه سيملاً موضع نومي بدموعه فيغرقني، لقد خاب أمله في أخيه، حزن عميق حُط على قلبه جراء ما حدث من مازن، كان يود أن يكون أخوه شجاعاً وقويًا لا يهاب الموت ولا يستكين.

نظرت إليه فقلت له:

- هون عليك يا صديقي، فلقد قام السيد سليمان بتربيته أنا وإيمان من بعد وفاة أبي، وكان طيب القلب وحنونًا، لم يضرنا يومًا ولم يصرخ فينا ولو مرة واحدة، واليوم هو في جيش العدو، هكذا هي الحياة يا صديقي، لن تترك خالي الوفاض وهادئ البال، ستطعنك وتؤلمك بشتى الطرق وسيأتيك الخذلان من أقرب الناس إليك.

هز مراد رأسه برفق ولم ينبس ببنت شفة، تناهى إلى أسمعنا صوت خطوات الأقدام وهو يزداد بكثرة ما يُنبئ على استيقاظ بعض الناس وبدء استعدادهم للمعركة، بعد هزيمة من الوقت ظهر قرص الشمس بحمرته الفاتنة ونشر أشعته في كل الأرجاء، غردت العقبان

في جو السماء غادية ورائحة، كانت السماء صافية، والطقس بارد قليلاً والرياح شديدة جداً.

كانت إيمان تغطي أجسام طيورا روزا بقطع من جلد الحيوانات لتحمين من شدة الرياح والبرد الشديد الذي يلف المكان، اصطف الناس جميعاً بتنظيم متفق عليه بين ماسيليا وببي، العمالقة بمطارقهم الحديدية الكبيرة كانوا في ميمنة الجيش، وشعب البابون بفؤوسهم كانوا في ميسرة الجيش، وكان قلب الجيش من نصيب شعب مملكة الحصن وشعب الحاكم أمغناس، وقف كل شخص في موقعه وكانت الأسود وطيور روزا المتمثلة في كريستال وجوهرة وتوتو في مقدمة الجيش، كانت الرياح شديدة جداً وحببات الرمل تنقر وجوهنا نقرًا، كان مختار يقف بجوار ماسيليا وهو يحكم قبضته على السيف الذي يحمله وينتظر خروج جيش مورिका بحماس وشغف شديدين، فُتحت أبواب مملكة مورिका فخرجوا وهم مصطفون ويحملون السيوف والدروع وبعض منهم يحمل السهام والأقواس، ظهر إيتسن حاكم مملكة الغوائل وبجانبه راع وموراس ابني ناتون، كانوا في مقدمة الجيش ويصرخون في الجنود بأعلى صوتهم لتشجيعهم وبث الحماس فيهم، دوى صوت رنين الأجراس في مملكة مورिका فتحركوا إلينا، التقى الجيشان وتشابكت الأيدي والسيوف والدروع وحي الوطيس، كانت الأسود في المقدمة وهي تنهش بأنيابها كل من تقابله في طريقها، كانت الأسود لديها مهارة عالية في تمييز الجنود من جيشنا عن الجنود الآخرين من جيش مورिका، كانت طيور روزا يحلقن في الأجواء وهن يرحن ويجنّ هنا وهناك دون

أن يفعلن شيئاً ودون أن يستخدمن قوتهن وقد أدهشني عدم استخدامهن لقوتهن، كانت ماسيليا تقاتل بجانب مختار بكل حماس وفدائية، لقد كانت بارعة جداً وقد تفاجأت ببراعتها في القتال، بينما كان مختار يقاتل قدر استطاعته ويبلي بلاءً حسناً، كانت ماسيليا تراقبه طول الوقت وكأنه بعض ولدها، كانت تقاتل بعين والعين الأخرى تراقب بها مختاراً، بينما كان بهي وسراج لا يستطيع أحد إيقافهما، إنهما بارعان جداً في استخدام السيف، وقويان جداً في الاشتباكات، لم يبعد بهي طرفيه عن إيمان، كان يراقبها بعينيه الخضراوين باستمرار، كانت طيور روزا يحلقن من فوق إيمان ويظفن حولها وكأنهن يحمينها.

مرّ اليوم الأول من المعركة دون تفوق لأحد على الآخر، لقد أبلى جيشنا بلاءً حسناً وجيشهم لم يكن يميزه سوى إيتسن وراع وموراس وصراخهم المتواصل في الجنود ليحفزوهم ويبثوا فيهم الحماس.

توارى قرص الشمس خلف الأفق وأسدل الليل ستائره على المكان، امتلأت صفحة السماء بالنجوم البديعة، هدوء تام كان يسيطر على معسكر الجيش، تجمعتنا في خيمة ماسيليا لنتشاور فيما حدث اليوم بالمعركة وما سيحدث في الغد، نظرت إلينا ماسيليا فقالت:

- لم يخوضوا المعركة بصفوف مكتملة، لقد فعلوا ذلك متعمدين، دخلوا للمعركة وكأنها مناورة بالنسبة لهم ليعرفوا نقاط القوة والضعف في جيشنا، ولكني فطنت لخطتهم وقمت بسحب

أعداد كبيرة من جيشنا خفية وطلبت منهم الاختباء خلف الجبل القريب منّا.

نظرت لماسيليا مبتسمًا فقلت:

- لقد انتهت لما فعلته يا ماسيليا وعرفت سبب فعلك لهذا، بالطبع هم قاتلونا اليوم وكأنه اختبار منهم ليعرفوا مدى قوتنا، وأكد أجزم بأنهم سيقاتلون في الغد بصفوف مكتملة.

ران عليّ صمت خفيف وأنا أبتسم، نظر إليّ سراج متعجبًا فهز رأسه مستفسرًا فأردفت مبتسمًا:

- ألم ينتبه أحد منكم بأنهم خاضوا المعركة بالجنود فقط؟ ألم تنتهوا بأنهم لم يشاركوا بوحوش الجبال والحيوانات والطيور التي يمتلكونها؟

كانت الأميرة سيلين تجلس بجوار سراج، فغرت فاهًا متعجبة فسألني بذهول شديد:

- لماذا لم يشاركوا في المعركة بوحوش الجبال والحيوانات والطيور التي سخرها خادم سينيت؟
أجبتها قائلًا:

- سيشاركون بكل هذا غدًا.

- ولماذا غدًا بالتحديد؟

- ربما يريدون أن تكون معركة فاصلة.

نظرت من حولي بحثاً عن طيور روزا، نهضت من مكاني وخرجت من الخيمة، كان أبيدوس يقف خارج الخيمة، طلبت منه أن يأتيني بكريستال، بعد هزيمة من الوقت دخلت علينا كريستال لداخل الخيمة، سألتها عن سبب عدم استخدام قوتهن التي يمتزن بها في المعركة، أجابت كريستال قائلة:

- نحن نقذف من أفواهنا اللهب، فتحرق كل شيء يقف أمامنا وتحوله لرماد في الحال، في المعركة كان يختلط الحابل بالنابل فلم نستطع استخدام قوتنا لأننا كنا سنحرق الصديق والعدو في آن واحد.

لاحت على وجهي ابتسامة عابرة، نظرت للجميع من حولي والابتسامة لا تفارق ثغري فقلت مغتبطاً:
- لن نقاتل في الغد.

نظر إليّ الجميع بتعجب وذهول شديدين، فأردفت قائلاً:

- سننهي تلك المعركة في الغد، حين يصطف الجيشان وتبدأ المعركة سننسحب جميعاً للخلف ولن نقاتل، سنترك الأمر لطيور روزا، مهمتنا نحن ستكون داخل مملكة مورिका، حين يلوذون بالفرار إلى مملكتهم سنلاحقهم وندخل عليهم مملكتهم عنوة فنقضي عليهم وننهي المعركة.....

«يوم النصر»

دبت جذوة الفجر في فحمة الليل فشاب غراب الليل وطار نسر الصباح، كانت الشمس تستعد للخروج من خلف حجابها، بأجساد متضعضة وبآمال كبيرة استيقظ الجميع وبدأوا يروحون ويجيئون في كل مكان وهم يجهزون أسلحتهم استعدادًا لبدء يوم جديد من أيام المعركة العظيمة، أُلقت الشمس أشعتها الدافئة على أجسادنا المنهكة فأمدتنا بالدفع والنشاط، استعد الجميع واصطف الجيش بنفس اصطفافه في البارحة، كانت أصوات الهرج والمرج تصدر من داخل مملكة موريكافا، فتحت أبواب المملكة فكان أول من خرج هو إيتسن ثم تبعه راع وموراس من خلفهما ولم يظهر السيد ناصر، وقف الثلاثة بجانب بعضهم البعض أمام باب المملكة وهم يرفعون سيوفهم إلى أعلى والابتسامة لا تفارق وجوههم، ضربوا الأرض بسيوفهم في وقت واحد فبدأت الوحوش والفيلة والنمور والضباع وكثير من الحيوانات الأخرى تخرج من المملكة بأعداد كبيرة ومهولة، كان إيتسن وراع وموراس يضحكون بسخرية وهم يرون جيشهم يقترب إلينا ونحن لم نبرح أماكننا ولم نفعل شيئاً سوى أننا نفغر أفواهنا دهشة وذهولاً من هول ما نراه، اقترب إلينا جيشهم وقبل أن يصلوا إلينا رفعت سيف الميأس عاليًا وأشرت للجميع بالتراجع للخلف فتراجع الجميع وتراجعت الأسود معنا حين رأني أشير لها بسيف الميأس، تقدمت طيور روزا وبدأن في قذف اللهب من أفواههن

فكن يحرقن كل من يعترضهن، ذهول شديد وخيبة أمل كبيرة أصابت إيتسن وراع وموراس، لم يصدقوا ما يحدث أمامهم، كانت طيور روزا يقذفن اللهب من فمهن فينتشر ويحرق كل شيء يقابلهن في طريقهن، فرّت كل الحيوانات مبتعدة من أمامهن واحترق عدد كبير منهم، فرّ إيتسن وراع وموراس باتجاه المملكة فدخلوها وأغلقوا أبوابها ولم يحفلوا للحيوانات التي تحترق خارج المملكة، أشرت للجميع نحو مملكة مورिका لنقتحمها، سرنا نحوها فقذفت توتو شرارة من اللهب على بوابة المملكة فأحرقتها على الفور، دخلنا عليهم المملكة واحتدم القتال داخل المملكة وحمي الوطيس، كنا نفوقهم عددًا وقوة، استسلم كثير من شعب المملكة وفرّ من تبقى منهم نحو القصر واحتاطوا به، كان القصر مليئًا بالحراس من حوله والرماة من فوقه والجنود بداخله، كان الرماة أعلى القصر بأعداد مهولة وهم يقتلون كل من يقترب للقصر بسهامهم التي كانت تمطر كل من يقترب إليهم، أمرت الجميع بالتوقف وعدم الاقتراب من القصر، بينما كانت طيور روزا تستمر في حرق الحيوانات بالخارج، كانت الحيوانات تتوافد إليهن دون توقف، وهت قوتهن وشعرن بالتعب وهن كلما ظلنّ أنهن قد انتهين من حرق الحيوانات التي كانت أمامهن يتوافد إليهن غيرهم!

اقترب إليّ الحكيم أتوم فقال لي بنبرة متسرعة:

- الحيوانات ما زالت تتوافد بكثرة يا فارس، خادم سينيت يفعل ذلك بواسطة كتابه، يجب أن نقتحم القصر بأقصى سرعة

ممكنة لنتعرف على هوية هذا البشري وحرق الكتاب اللعين الذي يحمله.

نظرت باتجاه القصر نظرات حائرة، كان سطح القصر مليئاً بالرماء وهم يقفون متأهبين بأعداد كبيرة، والحراس أسفل القصر يحتاطون به من كل جانب.

عدت فنظرت للحكيم أتوم فقلت له بخيبة أمل كبيرة:

- إن حاولنا اقتحام القصر فسيكون من بيننا ضحايا.

نزع الحكيم أتوم عمامته البيضاء من على رأسه فألقاها على الأرض وقال بحماس شديد:

- وها أنا ذا أول الضحايا.

انحنيت إلى الأرض فالتقطت العمامة فقلت له بصوت هادئ:

- سنفكر في طريقة أيها الحكيم يمكننا اقتحام القصر من خلالها دون خسائر.

نظر الحكيم أتوم لطيور روزا خارج المملكة نظرات تنم عن تعاطف شديد فقال لي بنبرة حزينة:

- إنهن يفقدن كثيراً من قوتهن، لو طال الأمر سنخسرهن.

انسحبت توتو من المعركة ودخلت المملكة وهي تحلق ببطء شديد وتسعل بقوة، حلقت باتجاه إيمان فاستقرت على كتفها وأغلقت عينيها وفقدت الوعي، أجفلت إيمان حين رأتها على حالها

تلك فظلت تصرخ بأعلى صوتها، هرعت إليها فحملت توتو وتحسست أنفاسها فوجدتها تتنفس ببطء شديد، اختلج قلبي ونظرت للحكيم أتوم فقال:

- لا تقلق، لقد فقدت وعيها فحسب، طيور روزا لو استخدمن قوتهن فوق طاقتهن يصبهن بالإعياء الشديد ويفقدن الوعي.

تركت توتو مع إيمان لتعتني بها، حملت سيفي وصحت في الجميع بأعلى صوتي بأن نتسلم زمام المعركة من طيور روزا وأمرت بهيئاً بأن يراقب القصر والمملكة من الداخل هو وفرسانه، خرجنا من المملكة بأعداد كبيرة باتجاه الحيوانات، كان شعب البابون يضربون الحيوانات بفؤوسهم الحادة ضربة واحدة فيشقون بطونها وظهورها ويقطعون رؤوسها، أما العمالقة فكانوا يضربون الحيوانات بمطارقهم الضخمة فيصيبوها بفقدان الوعي فتترنج وتسقط من قوة ضرباتهم.

كانت الأرض مخضبة بدماء الحيوانات، لقد قتلنا منها أعداد كبيرة ولكن!

الحيوانات ما زالت تتوافد من كل مكان بكثرة ولو استمر توافدها هذا لهلكنا، ثمة شخص يستدعيها، ولن تتوقف إلا لو ظرفنا بهذا اللعين الذي يطلقون عليه لقب خادم سينيت فقتلناه أو أحرقنا كتابه.

فجأة دوى صوت صليل السيوف من القصر، انسحبت من المعركة أنا ونيشيا وسراج والأميرة سيلين ومختار وماسيليا والحاكم أمغناس ودخلنا المملكة، نظرت لسطح القصر فلم أجد الرماة،

والحراس الذين كانوا يحتاطون بالقصر قد دخلوا للقصر ونشبت
بينهم معارك طاحنة، اقترب إليّ الحكيم أتوم فقال بسرور:

- يبدو أنهم قد اختلفوا يا فارس.

قلت له متسائلاً:

- نذهب الآن ونقتحم القصر؟

- لا، نتركهم حتى يقضوا على بعضهم البعض، كجادع أنفه

بيده.

بعد وقت قليل توقف القتال بالقصر وخرجت من القصر
أعداد مهولة من الصقور وكانت رؤوسها مليئة بالدماء، صمت مهيب
كان يسيطر على القصر، وكأن كل من فيه قد ماتوا، سرنا بخطوات
مختلصة باتجاه القصر، دخلنا القصر فوجدنا عددًا كبيرًا من الجثث
ملقاة على الأرض بين من قُتل بطعنة من سيف أو رمية برمح وبقية
الجثث كانت رؤوسها مهشمة بفعل الصقور، تفرقنا في كل أنحاء
القصر بحثًا عن خادم سينيت أو كتابه، دخلت لغرفة مظلمة كان
بإمها مفتوحًا على مصراعيه، وجدت شخصًا يجلس ويدير لي ظهره
ويمسك في يده كتابًا عتيقًا ويتطلع فيه، اقتربت إليه بخطوات هادئة،
وضعت السيف على عنقه وقلت له بنبرة صارمة:

- ألقى كتابك جانبًا أيها اللعين وارفع يديك إلى أعلى.

أجفل فنهض من مكانه وهو يدير لي ظهره فقال بتوتر شديد:

- أنا مراد يا فارس، لقد أرعبتني.

أبعدت السيف عن عنقه فقلت له بنبرة متعجبة:

- ماذا تفعل هنا يا مراد؟ وما هذا الكتاب الذي كنت تحمله؟

- إنه كتاب ترجمة الهيروغليفية.

عقدت حاجبي فسألته:

- وما سبب تواجذك به هنا في تلك الغرفة المظلمة؟

التقط مراد ورقة عتيقة من ورق البردي كانت موضوعة على طاولة خشبية، كانت الورقة مليئة بالرموز الفرعونية المكتوبة باللغة المصرية القديمة، مد إليّ مراد الورقة فقال:

- كنت أفك تلك الرموز.

- ما تلك الورقة وما سبب وجودها هنا؟

- يبدو أن تلك الغرفة كانت خاصة بخادم سينيت، ويبدو أيضًا أن تلك الورقة قد سقطت من كتابه دون أن ينتبه لها أثناء هربه.

- تعني أنه قد هرب من القصر؟

- بالطبع هذا ما حدث، وربما هو يتجول الآن في شوارع المملكة، أو ربما قد اتخذ من أحد البيوت ملجأ له.

زفرت بغضب وقلت بغيظ شديد:

- يا له من مراوغ، يبدو أننا سنعاني حتى نكتشف هويته.

صدر صوت جلبة من إحدى غرف القصر، خرجت من الغرفة
ومراد يتبعني من خلفي وسرنا باتجاه الصوت، كانت إيمان تقف أمام
إحدى الغرف وتبكي بكاءً شديدًا، سألتها بقلق:

- ما الأمر يا إيمان؟

أشارت إلي برأسها لداخل الغرفة وازداد بكاءها، نظرت لداخل
الغرفة حيث تشير فذهلت مما رأيته!

لقد كان السيد سيلمان ممدًا على سرير خشبي وهو متخشب
وكأنه تمثال حجري، لا يتحرك ولا ينطق، يفتح عينيه فقط وتهمر
منهما الدموع بغزارة، لقد آلمني حاله هذه رغم ما فعله بأبي وأختي،
نظرت للحكيم أتوم نظرات متعجبة فنطق قائلاً:

- لقد أطلق عليه اللعين تعويذة فرعونية بواسطة كتابه، لن
يعود لسابقه إلا لو احترق الكتاب أو أن يوضع الكتاب في قرابه
وتلتهي تعاويذه.

غضنت حاجبي متعجبًا فسألته بفضول شديد:

- يوضع الكتاب في قرابه! ما هذا القراب؟

- هو بيت الكتاب كما يطلق عليه، قراب خاص مصنوع من
الجلد، إذا وضع الكتاب داخله وأغلق يتوقف الكتاب عن العمل،
وكأنه لا وجود له.

- تعني أن الكتاب لا يعمل إلا خارج قرابه.

- نعم، هذا ما أقصده.

اقتربت إليّ نيثيا فقالت بخيبة أمل:

- لا وجود للسيد ناصر ولا إيتسن ولا راع أو موراس بين القتلى،
لقد فروا مع خادم سينيت.

مشى إليّ الحكيم أتوم فاقترّب بفمه قريبًا من أذني فهمس لي
قائلًا:

- خذ حذرِك يا فارس، فربما هذا اللعين هو واحد من
أصدقائك.

اتسعت حدقة عيني ذهولًا حين سمعت كلامه، نظرت لمراد من
خلفي ثم نظرت لمختار، قلت للحكيم أتوم هامسًا:

- تعني أنه ربما يكون واحدًا منهما؟

زم الحكيم أتوم شفّتيه وهز كتفيه فقال:

- أسلوب المراوغة الذي يتبعه يجعلك تشك في كل بشري
موجود على الكوكب هنا.

نظر الحكيم أتوم صوب مختار فأكمل بنفس نبرته الهامسة:

- لقد اختارتكم العقبان للمهمات وكل واحد منكم مرتبط
بالكوكب، أنت وإيمان تمتلكان الدم النبيل، ومراد تم اختياره نظرًا
لوجود شقيقه مازن هنا بالكوكب.

ران على الحكيم صمت خفيف، تهد وأردف قائلًا:

- إلا هذا الفتى الذي يُدعى الأسمر، لا نعرف سبب اختياره من قبل العقبان لوقتنا هذا، وأيضًا لم تحمله العقبان مثلما حملتكم!

سحابة من التساؤلات ارتسمت على جبيني، ازدحم رأسي بالحيرة والدهشة بعدما سمعت كلمات الحكيم أتوم وصرت أردد في سريرة نفسي قائلاً: خادم سينيت واحد من أصدقائي؟ أيعقل هذا؟ وإن كان كذلك، فكيف سنأمن على أنفسنا منذ اليوم؟

قطع عليّ الحكيم أتوم شرودي فقال لي هامسًا:

- انظر لمراد! لقد انفتل من بيننا وخرج من الغرفة خفية دون أن يراه أحد، ولكنني كنت أراقبه بعينيّ وفطنت له.

خرجت من الغرفة مسرعًا ومشيت خلف مراد وأنا أراقبه، كان ينظر خلفه وبجانبه كل فينة وأخرى وقد بدا عليه التوتر الشديد، دخل لنفس الغرفة المظلمة، التقطت قنديلًا زيتيًا كان معلقًا في أحد جدران القصر وحملته باتجاه الغرفة، وضعت القنديل الزيتي خلف ظهري وأنا أقف على باب الغرفة من الخارج وأراقب مرادًا، كان يقلب في كل ركن بالغرفة وكأنه يبحث عن شيء ما، بعد بحث كثير أمسك الورقة العتيقة التي سقطت من كتاب خاتمة سينيت وبدأ يحاول قراءة الرموز الفرعونية فاقتحمت عليه الغرفة، أجفل حين رأيته وبدأ عليه التوتر الشديد وصار يبتلع ريقه بصعوبة شديدة، عقدت حاجبي متعجبًا فسألته بذهول شديد:

- ماذا كنت تفعل يا مراد؟ ما سرتلك الغرفة معك ولماذا هذه الغرفة بالتحديد تتردد عليها كل فينة وأخرى؟

أصيب مراد بتوتر شديد، قال بنبرة مترددة:

- لا شيء... فقط تلك الورقة تثير فضولي.

حاولت التعامل معه بهدوء، أمسكت بيده وخرجت من الغرفة وعدنا للغرفة التي يتواجد بها السيد سليمان، وجدت إيمان تمسك في يدها قطعة من القطن وتجفف دموعه، كانت شفتا السيد سليمان ترتجفان والدموع تهطل من عينيه بغزارة، ودموع إيمان لا تتوقف عن الهطول أيضاً، جعلت مراداً يقف أمامي لثلا يخرج مرة أخرى، اقتربت للسيد سليمان فقلت له برجاء:

- لا أحد يعرف هوية هذا البشري إلا أنت والسيد ناصر، إن ظل متخفياً فسيقتل المزيد من الناس ويتسبب أيضاً في قتل المزيد من الحيوانات، أرجوك أخبرنا مَنْ هو وأعدك بأن أعفو عنك.

توقفت دموع السيد سليمان، كان ممدداً على سريه دون حركة، لا يستطيع تحريك يديه أو ساقيه أو حتى رأسه، بدأ يحرك عينيه قليلاً، اقتربت إليه فقلت له:

- إن كان هذا البشري معنا بالغرفة فأشر إليه بعينيك هاتين.

- فجأة حرك السيد سليمان مقلتيه وثبتهما على مراد، حدثه وكأن ما حدث للتو كان مجرد صدفة، أعدت عليه نفس السؤال فحرك مقلتيه مرة أخرى وثبتهما على مراد أيضاً!

كان الحكيم أتوم ينظر إليّ بتعجب وذهول شديدين، بينما كان مراد يقف صامتاً مشدوهاً ولا يتحرك.

كررت نفس السؤال على مسامع السيد سليمان لأتأكد أكثر، مرة ثالثة ثبت مقلتيه على مراد، اقتربت لمراد فجردته من أسلحته بطريقة مهينة، أجفل الجميع حين رأوني أفعل هذا، اقترب إليّ أبريس فقال بنبرة متعجبة:

- ما هذا الذي تفعله يا فارس؟

نظرت للجميع من حولي فقلت بصوت جهوري:

- ألا تعلمون أن خادم سينيت هو نفسه مراد؟

شهق الجميع من هول ما سمعوا، قال أبريس بصوت حزين:

- هذا مستحيل، ليس مراد بالذي يفعل هذا.

امتقع لون وجه مراد واحتقن، صار يبكي والدموع تهطل من عينيه، نظرت إليه نظرات شزراء فأنشأت أقول:

- حين ذهبت لقريتنا لمقابلة السيد ناصر والسيد سليمان كنت أراقب المكان جيداً، لم يكن أحد موجوداً بالشارع، كان الشارع هادئاً لا حركة فيه ولا نأمة إلا صوت قدمي، وحين ابتعدت عن البيت تفاجأت بك تقف أمامي وقد لبست ثيابك وجهزت حقيبتك وحملت أغراضك كلها بالحقيبة، فعلت كل هذا في وقت قصير جداً! حتى الأوراق التي تثبت ملكيتك للبيت لم تندسها وجلبتها معك، وأخذتنا لقرية تونا الجبل وأقنعتنا بالذهاب وكأنك تعرف حل كل لغز يقف أمامنا دون تفكير، وحين علمنا بأمر وجود سراديب الجبل بجوار

مقبرة إيزادورا أقنعتنا أيضًا بأن تلك السراديب هي بوابتنا لدخول أوناسيو وقد كانت.

قاطعني مراد ببكائه وهو يهز رأسه نافيًا، فتابعت كلامي قائلاً:

- داخل سراديب الجبل توجد آلاف الشوارع والممرات، بواسطتك استطعنا دخول السرداب الوحيد الذي يوصلنا لوادي الكواكب بليبيا! وبأمر منك حملنا كثيرًا من المصابيح في حقائبنا وكأنك تعلم أننا سنسير داخل ذلك السرداب الموحش مدة ثلاثين يومًا، وأيضًا استعرت كتاب ترجمة الهيروغليفية من الشيخ مسعود، هل كل هذا قد حدث عن طريق الصدفة يا مراد؟

كان مراد يبكي بكاءً شديدًا، هز رأسه نافيًا فقال بصوت متقطع:

- لست أنا من يفعل هذا يا فارس، صدقني لم أفعل.

ضحكت بسخرية فسألته:

- وتلك الغرفة المظلمة التي تقول لي إنها كانت الغرفة الخاصة لخدام سينيت، ما سبب تواجدك الدائم فيها وأنت تحمل كتاب ترجمة الهيروغليفية؟ وكلما دخلت عليك أجدك تقلب في الغرفة وكأنك تبحث عن شيء ما بداخلها، هل فقدت كتابك داخلها؟

توقف مراد عن البكاء قليلًا، قال بصوت واهن:

- كنت أدخل الغرفة لأن....

- لأن ماذا؟

عاد مراد لبكائه فقال بصوت بالك:

- لا أستطيع إخبارك يا فارس، حقًا لا أستطيع.

اقترب مختار صوب مراد فقال له بازدراء:

- الآن قد عرفت سبب بكاء أخيك مازن وعدم خوضه المعركة معنا، يبدو أنه قد منعك مرارًا بأن تتوقف عن ما تفعله ولكنك لم تستجب له.

أطرق مراد رأسه إطرًا طويلاً وظل على حاله تلك من البكاء والنفي، دخل علينا أحد العمالقة وهو يهيج فقال مسرورًا:

- لقد توقفت الحيوانات عن التوافد وانتهت المعركة.

صمت مهيب سيطر علينا جميعًا، إن تلك الفاجعة التي أصابتنا من مراد قد أفسدت علينا لذة النصر، هدوء تام كان يلف الغرفة، قطع الحكيم أتوم صمتنا فقال:

- الآن قد اتضحت الحقيقة، إن الحيوانات لا تتوافد إلا بأمر من حامل الكتاب، وها هو ذا حامل الكتاب الآن أماننا.

صمت الحكيم أتوم هنيئة فنظر لمراد فقال له:

- والآن، سلمنا الكتاب يا بني وكفك إراقة للدماء.

قال مراد بصوت متحشرج:

- صدقوني، لا أحمل كتبًا ولست الشخص الذي تظنون.

طلبت من أبريس وسراج وأبيدوس تكبيله بالسلاسل ووضعه داخل السجن وتشديد الحراسة عليه.

تفرقنا بالقصر بحثًا عن الكتاب، كنا نقلب في كل ركن بالقصر بحثًا عنه، دخلت أنا ونيقيا للغرفة المظلمة التي كان يتردد عليها مراد، بدأنا بالبحث داخلها بدقة وتركيز شديدين، بعد البحث طويلاً لم نستطع العثور على أي شيء.

كنت أنظر لنيقيا بخيبة أمل كبيرة، تهتدت نيقيا فقالت:

- إن كان خادم سينيت هو مرادًا فربما قد سلم الكتاب لشخص آخر ليحمله، وربما هذا الشخص ليس بالقصر الآن.

عقدت حاجبيّ فقلت:

- أكادم أجزم أن هذا الشخص الذي سلمه الكتاب هو السيد ناصر، لم يظهر اليوم في المعركة ولم يره أحد، فربما سلمه الكتاب وأخرجه من القصر لئلا يظفر به أحد.

انقضى النهار وحلّ الليل، كانت شوارع مملكة مورिका هادئة جدًا، لم يبرح سكانها بيوتهم وظلوا مختبئين بداخلها، في غرفة الضيافة بالقصر كنا متجمعين ونجلس على المصاطب الصخرية الموجودة بالغرفة ونقلب الرأي فيما بيننا، اقتربت إليّ الأميرة سيلين فقالت:

- لقد قمنا بوضع حراسة مشددة على كل مداخل ومخارج المملكة، لم يخرج من المملكة أحد، ولم تحمل الطيور أحدًا، إن كان

ثمة كتاب وشخص يحمل الكتاب فبالطبع هو لم يخرج من المملكة
وباستطاعتنا العثور عليه بكل سهولة خاصة لو كان من البشر.

نظرت إليها فعقدت حاجبي متعجبًا فسألتها بفضول شديد:

- وكيف سنستطيع العثور عليه بكل سهولة؟

لاحت على وجه الأميرة سيلين ابتسامة لطيفة فقالت:

- أنسيت أن شعبي باستطاعتهم التعرف على البشريين من
بعد؟ حتى لو كانوا مختبئين في باطن الأرض، بواسطة حاسة الشم
القوية التي يمتلكها شعبي سيتعرفون عليهم بكل سهولة؟

فغرت فهي باندهاش فقلت مغتبطًا:

- يا إلهي، كيف نسيت هذا؟

ابتسمت الأميرة سيلين فقالت:

- ولكن شعبي لا يستطيع التعرف إلا على البشريين فقط،
باستطاعتهم شم رائحتهم من مسافة بعيدة.

اقتربت إليها ماسيليا فقالت بسرور شديد:

سنجمع الجيش في صباح الغد ونتجول في كل شوارع المملكة
بحثًا عنهم و...

قاطعتها الأميرة سيلين وقالت بنبرة متسرعة:

- بل نخرج الآن في غياهب الليل وسكونه، بالطبع هم لن
يتوقعوا تجولنا في شوارع المملكة بالليل، لذلك ربما لا يراقبون

أنفسهم حتى، فالرأي أن يخرج واحد فقط من شعب مملكتي للبحث عنهم، ولا يرافقه إلا عدد قليل منّا لئلا نحدث جلبة بالمملكة فتسمعنا الأذان وتنتبه لنا الأعين.

ابتسمت فرحًا على خطة الأميرة سيلين، أراها خطة مثالية للظفر بهذا اللعين الذي يحمل الكتاب ومن معه، طلبت من نيقيا أن ترافقني هي وبهي وسراج وماسيليا وأبريس والحاكم أمغناس والحاكم أوزيس حاكم مملكة العمالقة والأميرة سيلين لأنها الوحيدة التي تعرف لغة شعبيها.

خرجنا من القصر وصرنا نجوب شوارع المملكة بخطوات هادئة ومختلصة، كانت الشوارع خاوية، ولا نستمتع فيها إلا لصوت بكاء الأطفال في البيوت وهي تنشج ويعلو نشيجها، صمت مهيب كان يسيطر على المملكة وصوت صرصور الحقل كان عاليًا وفوضويًا، كنا نسير ببطء وأنظارنا متسلطة على كائن البابون الذي كان يتقدمنا وهو يمد رأسه للأمام ويحركه في كل الاتجاهات، مرّ الهزيل الأول من الليل وبحثنا في جُل شوارع المملكة ولم نعثر على أحد، توقفنا لتريح أقدامنا عند مصطبة صخرية كانت أمام أحد البيوت، جلسنا عليها واران علينا صمت مطبق، قطع سراج صمتنا فقال بصوت خافت:

- ربما نبحث في المكان الخطأ يا فارس.

هززت له رأسي مستفسرًا فتابع قائلاً:

- إن كان السيد ناصر هو من يحمل الكتاب ومعه إيتسن وراع وموراس فهم لن يتواجدوا هنا في المنطقة السكنية، سيحاولون الاختباء بعيدًا عن أنظار الناس وأنظارتنا.

زمت شفتي فقلت له:

- بحكم أنك كنت تعيش هنا يا سراج من قبل، ما هو المكان الذي تظن أنهم يختبئون فيه ويأمنون داخله؟

- إن أكثر مكان آمن هي المنطقة الزراعية، لا وجود لأحد فيها، وسيطر عليها ظلام حالك لأنها المنطقة الوحيدة غير مزودة بالقناديل الزيتية، وأيضًا هي بعيدة نوعًا ما عن المنطقة السكنية، ولا بيوت فيها سوى بضعة بيوت قديمة مهجورة تم بناؤها خصيصًا لوالدك.

عقدت حاجبي متعجبًا فأردف سراج قائلاً:

- لقد كان والدك في فترة حكم الملكة أسمايا هو المسؤول عن الزراعة والصناعة في كل أرجاء المملكة، فأمر ببناء بعض البيوت وسط المنطقة الزراعية ليستريح فيها المزارعون وقت القيلولة، وبعد قتل والدك وسلب الحكم من الملكة أسمايا منع ناتون المزارعين بأن يدخلوا تلك البيوت.

نهضت من مكاني فقلت للجميع:

- فلنذهب الآن للمنطقة الزراعية، وإن لم نجد أحدًا فيها فسنعود للقصر ونكمل بحثنا في الغد.

سرنا باتجاه المنطقة الزراعية بأجساد متضعضة وأقدام متألّمة، بعدما خرجنا من المنطقة السكنية كنا نسير في ظلام دامس، انتصف الليل واشتد الظلام وكان الطريق موحشًا بظلمته القائمة، لقد كنا نمشي ولا يكاد يرى أحدنا موضع قدميه من شدة الظلام، وما أعاننا على مواصلة السير إلا ضوء بعض النجوم البراقة، فأوناسيو معروف بليله الهيم لأنه لا يمتلك أقمارًا تُضيء ليله وتزين سماءه، صار كائن البابون يشهق ويزفر بصوت عالٍ، لم أستطع رؤيته في هذا الظلام لأتّين ملامح وجهه إن كان مبتسمًا أو عابسًا، ازداد شهيقه وزفيره وصار يضحك بصوت خافت، نطق أخيرًا وقال بعض الكلمات بلغته، ردت عليه الأميرة سيلين بلغته بصوت مسرور ومغتبط، قالت الأميرة سيلين موجهة كلامها لنا:

- يقول إنه يشم رائحة بشري قادمة من المنطقة الزراعية وهو قريب.

شعرت بسعادة عارمة، واصلنا السير خلف كائن البابون حتى وصلنا للمنطقة الزراعية، توقف كائن البابون عن السير وتحدث مع الأميرة سيلين فقالت لي:

- يقول إن رائحة البشري قادمة من هذا البيت المضيء هناك.

نظرت باتجاه البيت الذي يقصده، كان البيت الوحيد المضيء بين كل البيوت، ظلام دامس يسيطر على كل بقعة في المنطقة الزراعية إلا هذا البيت!

مشينا باتجاه البيت بخطوات حذرة، كان البيت مكوّنًا من الطابق الأرضي فقط وسقفه مصنوع من جذوع الأشجار وبابه مخلوع ولا نوافذ فيه، بحذر شديد اقتربنا للبيت، استرقنا السمع فسمعنا أصوات أناس يتكلمون بصوت غير واضح، كنت أنظر من حولي لأتأكد من عدم وجود الجنود أو الحراس حول البيت، أشرت للجميع باقتحام البيت فاقتحمناه فوجدنا السيد ناصر وإيتسن وراع وموراس يتألبون حول الطعام ويأكلون، أجفلوا حين دخلنا عليهم فنهضوا من أماكنهم واشتبكوا معنا، تم قتل إيتسن وراع وموراس وطلبت منهم ترك السيد ناصر، أمسكته من ثيابه وضغطت عليها بكل قوة فصار يخنق ويتنفس بصعوبة بالغة، قلت له بغضب شديد:

- لقد ظفرت بك أيها الأحمق، واليوم وقت الحساب، أين الكتاب أيها اللعين؟

توقفت عن الضغط على ملابسه ليتحدث، صار يسعل بقوة وقد احتقن وجهه وامتعق، صرخت فيه قائلاً:

- هيا تحدث وأخبرنا أين الكتاب وإلا قتلتك.

ابتسم السيد ناصر ابتسامة تنم عن خبث شديد، قال ساخراً:

- أنا أعرف يا فارس أنك ستقتلني إن لم أخبرك بهوية خادم سينيت وأنت ستقتلني أيضاً لو أخبرتك.

- لا أريد معرفة هوية هذا اللعين لأننا قد ظفرنا به، أنا أريد الآن الكتاب لنوقف كل هذا.

ضحك السيد ناصر ساخرًا فقال:

- تقول إنك قد ظفرت به؟

عاد السيد ناصر لضحكاته الساخرة فتابع قائلاً:

- لا أحد يعرف هويته إلا أنا والسيد سليمان.

- لقد أطلق تعويذة على السيد سليمان أصيب بسببها بشلل كلي أفقدته القدرة على التحرك، هو الآن يموت ببطء ويكاد يتوقف قلبه.

بدا التعجب يظهر على ملامح السيد ناصر، قال بتعجب شديد:

- تقول إنه أطلق تعويذة على السيد سليمان؟

- نعم، هذا ما حدث، وقد تركناه بالقصر وهو يصارع الموت.

زفر السيد ناصر فقال بغيظ شديد:

- أيها اللعين، لقد أقسمنا من قبل بأن لا يخون أحدنا الآخر، لقد خاس بعهدة وخاننا.

عقدت حاجبيّ فقلت له:

- خادم سينيت هو مراد، أليس كذلك؟

فغر السيد ناصر فاه مندهشًا فقال:

- بالطبع ليس هو.

- فمَن يكون إذًا؟

أطلق السيد ناصر تهيدة طويلة فقال:

- خادم سينيت هو.....

فجأة اخترقت حربة عنق السيد ناصر فسقط على الأرض وصارت الدماء تتناثر من عنقه بغزارة وفارق الحياة في الحال، أجبنا جميعًا ونظرنا للجهة التي انطلقت منها الحربة، كانت غرفة صغيرة حالكة الظلام، حاولنا دخول الغرفة فلم نستطع، كان شيء مجهول يمنعنا، خرجت من البيت مسرعًا لأدخل للغرفة عبر النافذة فلم أجد للبيت أية نوافذ، عدت للبيت مرة أخرى فوجدت الجميع يقفون خارج الغرفة مذهولين ومشدوهين من هول ما يحدث، بعد هنية من الوقت تناهى إلى أسمعنا صوت شخص يردد بعض التعاويذ الفرعونية بصوت عالٍ ومتأثر، صرنا نرمق بعضنا البعض بنظرات متعجبة، خشينا أن يسقط البيت على رؤوسنا فتموت جميعًا، توقف صوته عن ترديد التعاويذ، اخترق صقر ضخم البيت فدخل للغرفة، لم يمكث الصقر في الغرفة طويلًا حتى خرج وهو يحمل الكتاب وهو موضوع في قرابه وخرج من البيت وحلق به بعيدًا عن البيت.

مررت سيفي لداخل الغرفة فوجدته قد اخترقها، أحضر لي سراج قنديلًا زيتيًا فأخذته منه ودخلت الغرفة فوجدت شخصًا ممددًا على الأرض ووجهه ملتصق بالأرض وفاقدًا لوعيه، جثوت على ركبتَيّ فحركت جسده وسلطت ضوء القنديل الزيتي على وجهه فشهقنا جميعًا بصوت واحد من هول ما رأيناها!

لقد كان الشخص هو مازنًا!

اتسعت حدقة عيني من فرط الدهول فقلت بتعجب:

- خادم سينيت هو مازن شقيق مراد! لقد كان الشخص الوحيد الذي لم أشك فيه ولولمة واحدة.

نطقت نيقيًا قائلة:

- لقد كنت أشك أنه هو، طريقة انتقاله من مورिका إلى مملكة الحصن بواسطة الصقر كانت محيرة جدًا، أيعقل أن يرسله خادم سينيت إلى شقيقه مراد بكل تلك السهولة! أيعقل أن يكون شخصًا قاسي القلب مثله يتعاطف معه ويرسله إلى شقيقه؟

صمتت نيقيًا هنيئة ثم تابعت قائلة:

- وأيضًا هجوم العقبان المتكرر عليه أمر يثير الدهشة، فالعقبان تعلم ما لا نعلمه نحن، وترى ما لا نراه، ولن تهاجم العقبان إلا عدوًا أو خائنًا.

هزرت رأسي فتمهدت بعمق فقلت:

- لقد كان ذكيًا جدًا لدرجة أننا صدقناه، الآن عرفت سبب عدم دفاع مراد عن نفسه بعد حبسه، يبدو أنه كان يشك في أمره أو ربما كان متأكدًا من ذلك.

وضعت يدي على أنفه فوجدته يتنفس، قمنا بحمله واستطعنا الحصول على بعض الخيول وعدنا به إلى القصر.

دخلنا القصر فهرعت إليّ إيمان فقالت لي بصوت متسرع:

- لقد عاد السيد سليمان لوعيه يا فارس وصار يتحدث، يقول إن خادم سينيت هو مازن شقيق مراد.

هززت لها رأسي وربت على كتفها وقلت لها بنبرة هادئة:

- لقد عرفنا ذلك يا إيمان وجئنا به، اذهبي أنتِ إلى توتو وابقِ بجانبها في غرفتها حتى تستفيق ولا تخرجي من الغرفة مهما حدث.

عقدت إيمان حاجبها متعجبة وهزت لي رأسها ولم تنبس ببنت شفة وذهبت نحو توتو في غرفتها.

دخلت لمراد في حبسه فوجدته يجلس في زاوية الغرفة ويطرق رأسه للأرض دون حركة أو نأمة، اقتربت إليه فجلست بجانبه ونزعت السلاسل المقيد بها، رفع رأسه باتجاهي فقال بنبرة يشوبها حزن شديد:

- لقد اكتشفت أمره، أليس كذلك؟

تمهدت وهززت له رأسي حزنًا وكمدًا.

اغرورقت عيناه بالدموع فقال متسائلاً:

- هل قتلتموه؟

- لا، لقد ظفرنا به وجلبناه للقصر.

- والكتاب؟

- لقد ردد بعض التعاويذ ووضع الكتاب في قرابه فحمله صقر
ضخم وحلق بالكتاب بعيداً.

- إلى أين حلق الصقر؟

- لا نعرف، هذا ما سنعرفه منه.

نظرت لمراد فسألته بفضول شديد:

- قبل حبسك كنت تود التحدث بشيء ما ولكنك كنت تكتم
هذا في نفسك ولم تبدِه لنا، ما الذي اكتشفته ورفضت إخبارنا به؟

أطلق مراد تنهيدة كبيرة اختلجت لها أعضاؤه فقال بنبرة
حزينة:

- حين دخلت لتلك الغرفة المظلمة وجدت حقيبة مازن
الجلدية وبداخلها ملبسه، فأجذمت أن ربما أحدهم قد جلبها للغرفة
لنشك في مازن، ولكني تأكدت من ارتباط مازن بالأمر حين رأيت
أعقاب السجائر المتناثرة على أرضية الغرفة وكانت من نفس نوع
السجائر التي يدخنها مازن، وكعادته، كان يُلقي بأعقاب السجائر على

الأرض بطريقة مزرية وحقيرة وكانت أمي توبخه مرارًا على فعله هذا وكان دائمًا ينشب بينهما خلاف كبير بسبب ما يفعله.

قلت له معاتبًا:

- لماذا لم تخبرني بهذا يا مراد؟

- لقد ظننت أن خادم سينيت الحقيقي يفعل ذلك متعمدًا ليجعلنا نشك في مازن، فأثرت الصمت وإخفاء الأمر ضئًا بأخي إن كان مظلومًا.

قمت بمساعدة مراد على النهوض، خرجنا من الغرفة باتجاه غرفة السيد سليمان، كان مراد حزينًا ومكتئبًا ويمشي ببطء كرجل عجوز قد نيف على الثمانين من عمره، لقد تغير مراد كثيرًا ولم يعد مرادًا الذي أعرفه من قبل، كان حزينًا ومهمومًا وكأن كل هموم الحياة قد استقرت على رأسه، إنه الخذلان!

إن الخذلان هو أكثر ما يميت القلوب ويسرق السعادة من الوجوه ويبث الحزن في النفوس، وأشد أنواع الخذلان هو ذلك الذي يأتيك من أقرب الناس إليك.

دخلنا لغرفة السيد سليمان وكان لا يزال ممددًا على ظهره في سريره، جلست أنا ومراد بجانبه، نظر إليّ السيد سليمان نظرات حزينة، انهمرت الدموع من عينيه فقال باكيًا:

- سامحني يا فارس، لقد كانوا يهددوني بابنتي.

فغرت في مندهشًا فقلت له مذهولًا:

- ابنتك؟ ألدك ابنة؟

- نعم، هي تعيش بالقاهرة وتعمل طبيبة في إحدى المستشفيات، كان السيد ناصر يسمح لي برؤيتها مرة واحدة كل شهر، لقد كان لي ابن وابنة، قُتل ابني في ظروف غامضة ولم تستدل الشرطة على القاتل، أدركت أنها لعبة قدرة يلعبها السيد ناصر لأرضخ له وأبقى معكما بالقرية وأتخلى عن عائلتي لينفذ مخططه وتدخل الكوكب ويقوم بتصوير الكوكب بواسطة الكاميرا السرية التي ثبتها على حقيبتك، كان يطمح بأن يبث الصور على الجميع ويعلن اكتشافه العظيم لهذا الكوكب النائي عن الأرض.

ران على السيد سليمان صمت ثقيل والدموع تهطل من عينيه بغزارة، في تلك اللحظة دخلت علينا إيمان، اقتربت إلينا وهي تنظر للسيد سليمان وظلت واقفة شاخصة ببصرها عليه، أطلق السيد سليمان تهيدة كبيرة فأردف قائلاً:

- لقد تخليت عن ابنتي حفاظاً على حياتها وضناً عليها من أن تُقتل كأخيها، كان عمرها عشر سنوات حين تركتها، كان السيد ناصر يهددني دائماً بأنه سيقتلها ويفجعني فيها إن أخبرتكما بحقيقة الأمر أو إن خالفت أوامره.

اقتربت إليه إيمان فجلست بجواره على سريره وصارت تجفف دموعه بيدها، أمسك السيد سليمان بيدها فلثمها وقال باكياً:

- لقد ذرفت الدمع الغزير من أجلك يا إيمان حين دخلت الكوكب، لقد كنت لي بمنزلة ابنتي، لم أظن يوماً أنك ابنة صديقي، كنت ابنتي وقلدة كبدي.

صمت السيد سليمان هنيهة ثم نظر إليّ وتابع قائلاً:

- وكذلك كنت أنت يا فارس، لقد عوضتني عن ابني الذي فقدته، لقد كنت أشعر بغصبة تعتلج في صدري كلما رأيتك تكبر أمامي ويشتد عودك، لأن خطة السيد ناصر كانت بقائي معكما حتى تكبرا وتدخلوا الكوكب، كان يخطط لدخول إيمان أولاً، فهو يعرف مدى حبك لها وتعلقك بها ويعلم أنك لن تتركها وتتخلى عنها وأنك ستدخل خلفها لتتقدها لو ابتلعها الكهف، فلو أخبرك بالحقيقة فربما كنت سترفض دخول الكوكب، فتعمد أن تدخله بواسطة إيمان.

كانت إيمان تجلس بجواره وتبكي لبكائه وتنشج لنشيجه، نظرت إليه فقلت له متسائلاً:

- ولماذا دخلت مع السيد ناصر ومازن؟

- دخلت لأننيكما وأحاول إنقاذكما، حين عدتما للأرض عرفت أنكما ستعودان مرة أخرى للكوكب، فتقربت للسيد ناصر ولمازن حين دخلت هنا وخذعتكما بأني أطمع فيما يطمعان من السلطة والنفوذ والحكم هنا على الكوكب، وحين اكتشف مازن خيانتني له أطلق عليّ تعويذة وأصابني بشلل كلي.

- وكيف اكتشف خيانتك؟

- في فجر اليوم الأول من المعركة العظمى حاولت الخروج إليكم خفية لأخبركم بنقاط قوتهم ونقاط ضعفهم، فتم القبض عليّ وكاد يقتلني لولا أن السيد ناصر وقف ضده ورفض فكرة قتلي، فقام مازن بإطلاق تعويذة عليّ دون معرفة السيد ناصر ووضعي في تلك الغرفة وأغلقها ووضع على بابها حراسة مشددة.

قاطعه مراد وسأله بفضول شديد:

- كيف صار مازن هو المتحكم في الكتاب؟ وما علاقته بالسيد ناصر والكتب والتعاويد الفرعونية؟ لم أجد مازناً من قبل يهتم بتلك الأشياء!

تمهد السيد سليمان بعمق فأنشأ يقول:

- حين اختطفك الكهف يا مراد حزنت أمك عليك كثيراً وحزن عليك شقيقك مازن أيضاً، أراد مازن معرفة حقيقة الكهف وما يقبع داخله، فلم يجد لذلك سبيلاً سوى أن يراقبني ويراقب السيد ناصر، فكان يصعد لسطح منزلكم ويراقب البيت الذي نطقن فيه، كان يعلم أنني والسيد ناصر نعرف عن الجبل والكهف ما لا يعرفه الجميع بالقرية، وفي أحد الأيام وحين كان يراقب البيت لمح السيد ناصرًا يجلس معي داخل غرفتي وهو يمسك بقراب جلدي وبداخل القراب كتاب عتيق مصنوعة أوراقه من ورق البردي، فدخل البيت خفية في منتصف الليل وقام بسرقة الكتاب، حاول فك طلاسمه وتعاويذه ولكنه لم يستطع، استعان بكتاب لتعليم اللغة المصرية القديمة

وقام بتريديد الرمز الموجود في أول صفحة من صفحات الكتاب، وكان الرمز هو رمز الملكية!

قاطعه مراد متعجبًا:

- الملكية!

- نعم، من يقرأ الرمز يصبح هو المتحكم في الكتاب ويصبح الكتاب ملكه، ولا يعمل الكتاب مع أي شخص غيره.

ابتلع السيد سليمان ريقه فأكمل قائلًا:

- حمل مازن الكتاب ودخل به هنا وكل ما يشغله هو إنقاذك، قام السيد ناصر بمراجعة قَمرات المراقبة المثبتة على المنزل فاندesh حين رأى مازنًا يقتحم المنزل ويخرج منه بعد وقت قصير وهو يحمل في يده الكتاب، أدرك السيد ناصر أنه قد فعل ذلك لينقذك، وأدرك أيضًا أنه ربما قد دخل الكوكب ليبدأ مهمة إنقاذك، كان السيد ناصر قد اطلع على بعض وريقات الكتاب وعرف بمدخل الكوكب الآخر وهو في وان تكوفي بليبيا، وحين عدت أنت وانفجر الجبل أدرك السيد ناصر بأنك لن تخبره بأي شيء قد حدث بالكوكب، فلم يخبرك هو بدوره عن دخول مازن للكوكب أملًا في إنقاذك، لقد أراد معاقبتك بكتمان هذا الأمر عنك، وفي اليوم التالي بعد عودتكم من أوناسيو قام السيد ناصر ببيع منزل فارس عقابًا لفارس وأخته بعدما اختفيا عن أنظاره ولم يستطع العثور عليهما.

احتبست الدموع في عين مراد فسأله بنبرة حزينة:

- إن كان مازن قد دخل لينقذني فما سبب تغيّره.

- حين دخل هنا واكتشف أنه قد دخل لكوكب آخر أدرك أن الكتاب الذي يحمله هو كنز ثمين وأنه يرتبط بالكوكب، فسولت له نفسه حب السلطة والنفوذ والسيطرة على الكوكب، فنسيك ونسي المهمة التي دخل من أجلها.

توقف السيد سليمان عن الحديث وصار يسعل بقوة ويضع يده على قلبه وكأنه يحبسه من الفرار، كان يئن من شدة الألم ويتنفس بصعوبة بالغة، نظر إليّ بعينيه الدامعتين فقال لي برجاء:

- إن عدت للأرض يا فارس فابحث عن ابنتي وأخبرها أنني أحبها كثيراً، اطلب منها أن تسامحني هي أيضاً عن انقطاعي عنها وهجرها، أخبرها أنني فعلت كل هذا من أجلها، فهي تظن أنني غليظ القلب وقد هجرتها لأني أب سيئ.

وضعت إيمان رأسها على صدره وصارت تبكي بكاءً شديداً، قالت له باكية:

- سامحنا أنت أيضاً يا سيد سليمان، لقد ظلمناك وظننا بك ظناً سيئاً، ستعيش وتعود لابنتك كي تفر عينها فرحاً وسروراً بعودتك إلينا.

كان السيد سليمان يتنفس بصعوبة بالغة، قال لها بصوت متحشرج:

- لقد أخذت نصيبي من الحياة يا ابنتي، رغم أنني عشت طول حياتي حزينًا مهمومًا إلا أنني راضي بما كُتِب لي من البؤس والشقاء، فلعل ما عشته يشفع لي حين ألقى الله فيغفر لي ذنبي.

نظر إليّ السيد سليمان فقال بصوت متقطع:

- ستجد في حقيقتي بعض الأوراق التي تثبت تنازلي عن بعض أملاكي لابنتي هدير، ستجد عنوان المستشفى الذي تعمل فيه مكتوبًا في ورقة مع بقية الأوراق.

توقف عن الكلام هنيئة ثم سقطت من عينيه بعض الدمعات فقال بصوت حزين:

- أخبرها أنني أحبها كثيرًا يا فارس، واطلب منها أن تسامحني، ربما لم ترني الأب المثالي الذي كانت ترجوه، لكنها كانت ابنتي المثالية طوال الوقت.

فسقط رأسه جانبًا وانقطعت أنفاسه وفارق الحياة.

حزن عميق قد حط على قلوبنا جميعًا، كانت إيمان تبكي بكاءً شديدًا، لقد كانت تحبه كثيرًا ومتعلقة به كثيرًا، فهو من قام بتربيتها وكان ينصفها دائمًا كلما نشب خلاف بيني وبينها، لقد كان لها العون والسند، كان يمدّها بعطفه وحنانه ويسهر بجانبها إذا مرضت ولن يتركها إلا وقت شفائها.

خرجت مع مراد وسرنا باتجاه الغرفة التي يتواجد بها مازن،
دخلنا عليه الغرفة فقابلنا بضحكاته الساخرة، نظر لمراد نظرات
غاضبة فقال له بغضب شديد:

- لو انضممت لي ولن معي أيها الأحمق لصرنا ملوك هذا
الكوكب، لم أستطع إخبارك بحقيقة الأمر حين التقيت بك، فأنا
أعرفك جيدًا وأعرف أنك ستعارضني ولن تنضم إليّ.

كان مراد ينظر إليه نظرات غاضبة وصار يرمقه بنظراته
الشذراء ولم ينبس بكلمة.

زفرت بغضب وقلت لمأزن:

- إلى أين أرسلت الكتاب؟

ضحك بسخرية فقال:

- أنا أيضًا لا أعرف.

عقدت حاجبي متعجبًا فتابع قائلاً:

- حين اقتحمتم علينا البيت في المنطقة الزراعية قمت
باستدعاء صقر ليحمل الكتاب وطلبت منه أن يلقي الكتاب في بحر
الغياهب.

- وما سبب فعلك لهذا؟

- لأنني أدركت أن نهايتي باتت وشيكة، فربما يظفر أحد
بالكتاب ويفك رموزه ويستخدمه ضدكم.

- كيف يستخدمه شخص غيرك؟ لقد قال لي السيد سليمان إنك بسبب ترديدك لتعويذة ملكية الكتاب صار الكتاب يعمل بواسطتك أنت فقط، ولا يستطيع أحد غيرك استخدام تعاويذه.

- هذا صحيح، ولكن ماء بحر الغياهب مثلما يُشفي الجروح هو أيضًا يُسقط ملكيتي للكتاب.

كان مراد يقف ساكنًا ويستمع للحوار الذي يدور بيني وبين مازن وهو لا يبعد طرفيه عن مازن، كان ينظر إليه بغضب شديد وهو يطبق على شفثيه ويزفر بحنق شديد.

تمهدت بعمق فسألت مازنًا قائلًا:

- هل أنت نادم على ما فعلته من إراقتك لدماء الأبرياء وتسببك في مجازر دامية لحيوانات الكوكب وتعذيبك للسيد سليمان وتسببك أيضًا في موته؟

ابتسم مازن بسخرية فقال بخبث:

- لست نادمًا على شيء، ولو تكرر عليّ الاختيار مرة أخرى لاخترت نفس الأمر، الشيء الوحيد الذي ندمت عليه هو أنني لم أبرع في خوضي للمعركة العظمى، لقد ظننت أنني سأربح تلك المعركة بسهولة ويسر، وقد خاب ظني.

نطق مراد أخيرًا فقال لمازن بصوت متأثر:

- والآن، كيف ترى عاقبتك.

ضحك مازن بسخرية فقال:

- السجن المشدد والأبدي؟ أم أنك ستحضر مراسم إعدامي وتهتف مع الجميع هنا مطالبًا بسرعة إعدام شقيقك؟

لاحت على وجه مراد ابتسامة ساخرة، وضع يده في جيبه فأخرج خنجره وغرزه في عنق مازن، أردت إيقاف مراد ولكنه قد فات الأوان وقد اخترق الخنجر عنق مازن فسقط على الأرض قتيلاً وامتلأت الأرض بدمائه، أطلق مراد تهيدة طويلة فقال مخاطبًا مازن:

- بيدي أغسل عارك، إن قتلك لشرف لي ولو كنت أخي.

هزرت رأسي بيأس فقلت له معاتبًا:

- ما حملك على فعل هذا يا مراد؟ ألا كنت تنتظر حتى نحكم فيه؟

- لا حكم إلا حكم الله، من قتل يُقتل.

نزع مراد خنجره من جثة أخيه فنظر للدماء الملتصقة بالخنجر فقال:

- أن أقتله بيدي أهون عندي من أن أرى شخصًا ذات يوم وأقول هذا قاتل أخي وهذا من أعدم أخي، فحينها سأنظر لقاتل أخي بعين الثأر لا بعين العدل، وأنا مستعد الآن يا فارس لأية عقوبة تصدرها عليّ.

هزرت له كتفي وقلت له:

- لا توجد عقوبة تستحقها يا مراد، لقد فعلت بأخيك ما كنا سنفعله نحن، فوالله، لو فعلت إيمان ما فعله مازن لقتلتها كما قتلت أنت أخاك، فنحن نحارب بسيف العدل لا بسيف العواطف.

دبت الحياة مرة أخرى في مملكة مورिका وأشرق على أرضها شمس العدالة، خرج العاملون لعملهم والتجار لتجارهم والمزارعون لأرضهم والبائعون لأسواقهم، كان سراج يرافق الأميرة سيلين ويجوب معها كل ركن بالمملكة، كان يحدثها كثيرًا عن طفولته فيها وحياته البائسة تحت حكم ناتون وابنيه وعن بطولاته حين كان أمهر شاب في المملكة في المبارزة بالسيف، كان سراج يمني النفس أن تبقى الأميرة سيلين وشعبها هنا بالمملكة ولا يعودون لجزيرتهم، أصيب بخيبة أمل كبيرة حين وجد الأميرة سيلين تصر على العودة للجزيرة، فشعب البابون لا يستطيعون العيش خارج جزيرتهم التي اعتادوا العيش على أرضها ووسط أشجارها وداخل أكواخها، والأميرة سيلين لا تستطيع أيضًا ترك شعبها، فهم لهم فضل كبير عليها منذ كانت طفلة صغيرة.

كانت الأميرة سيلين وشعب البابون هم أول المودعين بعد انتهاء المعركة، سيذهبون مع العجوز وحفيدته أسمايا صوب السفن الموجودة على شاطئ بحر الغياهب بجوار مملكة الغوائل ومعهم الأسود، قمت بتسليم سيف الميأس للعجوز وطلبت منه الاعتناء بالأسود والاعتناء أيضًا بالطفلة أسمايا.

لا نقول وداعًا، بل نقول دائمًا إلى اللقاء، كانت تلك هي كلمات
السيد شهاب وهو يستعد للمغادرة هو وشعبه، قام بمعانقة مراد
عناقًا طويلًا وطالبه بالصمود وبدء حياة جديدة وأن يدير ظهره
لماضيه ويتعلم الدروس منه.....

«السر الأخير»

دارت الأيام دورتها، وغادر الجميع المملكة، لم يتبق سوى الحاكم أمغناس وشعبه وماسيليا وهم يستعدون للرحيل ويقومون بتجهيز أنفسهم للسير نحو شاطئ بحر الغياهب، كنت أجلس بغرفة الضيافة بالقصر، دلف إليّ الحكيم أتوم فجاء وجلس بجانبي، نظر إليّ نظرات تنم عن حيرة شديدة، عقدت حاجبي متعجباً فهزرت له رأسي مستفسراً، تهمد الحكيم أتوم بعمق فقال:

- كلكم دخلتم هنا وحملتكم العقبان من أجل المهمات، وكلكم مرتبطون بما يجري هنا.

صمت الحكيم أتوم هنيئة ثم تابع بنبرة متسائلة:

- إلا هذا الذي تطلقون عليه لقب الأسمر! وحتى تلك اللحظة لا نعرف سبب دخوله الكوكب وظهوره في حلمك، لطالما ظهر في حلمك يا فارس فإنه لمرتبط بالكوكب.

هزرت له رأسي برفق وقلت له:

- يقول إنه فقد والديه حين كان طفلاً صغيراً، هو يعيش بوان تكوفي بليبيا أو كما يطلق عليه الآن وادي الكواكب، كان يراقب السرداب الذي يُفتح مرة واحدة بالشهر وقت اكتمال القمر، وفي إحدى المرات سقطت منه القلادة التي ورثها من أمه داخل السرداب

فقذف نفسه لداخل السرداب ولم يبالي لعواقب ما فعله فأصيب في قدمه إصابة بالغة.

- ولكنه قد ظهر لك في حلمك قبل هذا، وكنت تعرف اسمه أيضًا!

- نعم، هذا ما حدث.

- إذًا، فهذا الأسمر له علاقة بالكوكب، وسقوط قلادته لم يكن عن طريق الصدفة.

غضنت حاجبيّ فقلت له متعجبًا:

- ماذا تقصد؟

تهد الحكيم أتوم فقال:

- ربما والداه قد دخلا للكوكب وهما متواجدان الآن هنا، مثلما حدث معك أنت يا فارس من قبل.

رفعت حاجبيّ مندهشًا فقلت له:

- حين لبست القناع وذهب بي إليه في الجزيرة التي كان يتواجد بها كانت ثمة عجوز بشرية تعيش في كوخ صغير بجوار الشاطئ، كانت فاقدة للذاكرة ولا تتذكر شيئًا على الإطلاق، فذهب إليها مختار فتحدث معها وأخرج لها القلادة التي يحملها ولكنها لم تتعرف عليه ولم تتذكر القلادة وصرخت في وجهه بأن يبتعد عنها.

عقد الحكيم أتوم حاجبيه متعجبًا فقال لي مندهشًا:

- مختار! من هو مختار؟
- مختار هو الاسم الحقيقي للأسمر.
- ومن أطلق عليه لقب الأسمر؟
- حين دخل للجزيرة كان الجميع مندهشين منه وكانوا يشيرون إليه ويرددون: من هذا الأسمر، انظروا لهذا الأسمر، فأطلقت عليه ماسيليا لقب الأسمر.
- هز الحكيم رأسه ولم ينبس ببنت شفة.
- خرجت من القصر فوجدت الحاكم أمغناس وشعبه يستعدون للرحيل، كان مختار يقف مع ماسيليا ويتحدث معها ويتبادلان الابتسامات لبعضهما البعض، تهتد مختار فقال لها:
- انتبهي لنفسك جيداً أيتها الجميلة، سأنجز بعض الأشياء هنا مع فارس ثم سألحق بكم.
- هزت ماسيليا رأسها مبتسمة فنظر إليها مختار نظرة لطيفة فقال لها هامساً:
- أرهيقم.
- ضحكت ماسيليا فقالت:
- لن أسألك اليوم عن معنى تلك الكلمة.
- عقد مختار حاجبيه فقال متعجباً:
- لماذا؟

رفعت ماسيليا حاجبها فقالت بسخرية:

- سأخبرك لاحقًا.

صعد الحاكم أمغناس على صهوة جواده ونظر لماسيليا فقال لها متعجبًا:

- هيا يا ماسيليا، لنغادر الآن.

بنظرات حاملة وبقلب يتألم من الفراق قامت ماسيليا بتوديع مختار ومشت نحو جوادها فصعدت على صهوته ولوحت للجميع بيدها لتودعنا، قبل أن تتحرك ماسيليا قلت لها ممازحًا وبصوت عالٍ:

- أخبري أمناي بأن يعتني بقلادة مختار جيدًا يا ماسيليا، لا يطمع فيها وإلا أرسلت إليه العقبان لتأخذها منه رغمًا عنه.

ضحك الجميع بهستيرية، وضحك الحاكم أمغناس أيضًا، إلا ماسيليا!

تغيرت ملامح وجه ماسيليا وبدا على وجهها التعجب والاندھاش، أشار الحاكم أمغناس للجميع ببدء التحرك، فتحركوا جميعًا وظلت ماسيليا واقفة في مكانها وهي تنظر لمختار نظرات تنم عن ذهول شديد، نظر الحاكم أمغناس خلفه فوجد ماسيليا واقفة بجوادها ولم تتحرك، أشار للجميع بيده بأن يتوقفوا، مشى بجواده نحو ماسيليا فقال لها متعجبًا:

- ما الأمر يا ماسيليا؟

لم ترد عليه، ظلت صامته تفغر فاهها بذهول وتنظر لمختار بتعجب شديد، كرر الحاكم أمغناس على مسامعها نفس السؤال ولكنها ظلت صامته ولم ترد على سؤاله أيضًا، تعجب الجميع وظن الجميع بأن مزحتي قد أغضبتهما أو ربما لم يعجبها مزاحي، مشت بجوادها نحو مختار وهو يقف بجانبه، نظرت إليّ فعدت حاجبها وسألته بذهول شديد:

- من هو مختار؟

نظرت لمختار بجانبه فغضنت حاجبي وعدت فنظرت إليها فقلت لها مبتسمًا:

- هذا الذي يقف بجواري هو مختار.

نظرت ماسيليا لمختار فضيقت عينها وقالت له متسائلة:

- لم تخبرني من قبل أن اسمك مختار؟

هز مختار كتفيه فقال بارتياح:

- حين سألتيني عن اسمي كنت سأخبرك به، لكنك لم تعطيني الفرصة لأخبرك واخترت لي اسم الأسمر، ولم تسأليني بعدها عن اسمي.

قلت لماسيليا متسائلًا:

- ما المشكلة في اسمه يا ماسيليا؟ هل ذكرته عجوز الشاطئ أو زوجها من قبل؟

تهتدت ماسيليا فقالت بصوت خافت:

- لا، لم تذكر عجوز الشاطئ هذا الاسم من قبل.

صمتت ماسيليا هنيهة فنظرت لمختار فأردفت قائلة:

- ولكن شخصان آخران قد ذكرا هذا الاسم من قبل.

غضن مختار حاجبيه فقال لها بنبرة متسرعة:

- من هذا الشخصان يا ماسيليا؟ وأين هما؟ وفي أية جزيرة

يعيشان؟

ران على ماسيليا صمت ثقيل ولم تنبس بأية بكلمة، كرر مختار نفس السؤال على مسامعها ولكنها ظلت صامتة ولم تُجبه على سؤاله، فجأة تراءى إلى أنظارنا عربية خشبية يجرها حصان كانت قادمة من مسافة بعيدة، كان فتى يقود العربية ويجلس في مقعد العربية من الخلف رجل وامرأة، تسلطت أنظار الجميع على العربية وصرنا نراقبها بنظرات متعجبة وهي تقترب إلينا شيئاً فشيئاً، اقتربت العربية وصارت قريبة مّا بمسافة قريبة جداً، كان الفتى الذي يقود العربية هو أمني شقيق ماسيليا، والرجل والمرأة هما والدا أمني وماسيليا!

ذهول شديد أصابنا جميعاً، وقلق كبير حط على قلبي، لوهلة ظننت أن الكتاب قد وقع في يد شخص ما وقد ردد بعض تعاويذه ويستعد لمحاربتنا وربما قد بدأ بالاستيلاء على جزيرة الحاكم أمغناس وقد جاء أمني وقطع كل تلك المسافة ليخبرنا بذلك، اقتربت إليّ

نيقيا فوقفت بجاني ونظرت إليّ نظرات تنم عن تعجب وذهول
شديدين، اختلج قلبي وشعرت بأنه سيخرج من بين أضلعي من شدة
القلق والتوتر، توقفت العربية أمامنا فنزل منها أمناي وهو يمسك في
يده قلادة مختار الزرقاء وتهطل الدموع من عينيه بغزارة!

فغرت في مندهشاً حين رأيت دموعه! نظرت لماسيليا فقلت
لها متعجباً:

- أمناي يذرف الدموع! أهو بشري؟

هزّت ماسيليا رأسها فقالت:

- نعم، وأبي وأمي أيضاً بشريان.

نزل والد ماسيليا ووالدتها من العربية، اقتريا إلى مختار وظلا
ينظران إليه نظرات حزينة، اندفع أمناي نحو مختار فاحتضنه وصار
يبكي بكاءً شديداً، كان مختار يطبق شفّتيه ويعقد حاجبيه وهو
مذهول ومشدوه ولا يعرف تفسير ما يحدث الآن، نظر إليه أمناي
فقال له بصوت باكٍ:

- بعدما غادر الجيش جزيرتنا كنت أجلس مع أبي وأمي
فأخرجت القلادة وصرت أتفحصها وأمعن النظر فيها أمامهما، فرأتها
أمي فأجفلت وخرت باكية وسألّتي عن صاحب القلادة فأخبرتها بأنك
أنت صاحبها، فبكت بكاءً شديداً وكذلك فعل أبي، فجئنا إليك الآن
لنخبرك بالحقيقة.

صار مختار يبتلع ريقه بصعوبة بالغة وقد بدا على وجهه
التعجب فقال له بشغف:

- وما تلك الحقيقة؟

- الحقيقة هي أنك أنت مختار أخي.

قالها أمناي فشعر مختار بقشعريرة مهيبة تسري في جسده،
فغراه مندهشًا فقال بصوت متقطع:

- أنت أخي، وهذان أبي وأمي؟

هز أمناي رأسه والدموع تنهمر من عينيه بغزارة، هرول مختار
نحو أبيه وأمه فاحتضنهما وصاروا يذرفون الدمع والعبرات، كانت أمه
تلثم رأسه وعينيه وخديه وتضمه إليها بقوة وهي تشهق وتبكي بشدة،
أصيب الجميع بالدهشة من الموقف الحاصل أمامنا، كان والد مختار
يبكي وهو يحتضنه ويقول له بصوت متقطع:

- سامحنا يا بني، لقد فرطنا فيك واتبعنا أهواءنا.

اقتربت لوالد مختار فقلت له متسائلًا:

- وماسيليا؟ أي شقيقة مختار أيضًا؟

ابتلع ريقه فأنشأ يقول:

ماسيليا هي بمنزلة ابنتي، حين دخلنا للجزيرة كان أول من
التقينا به هو الحاكم أمغناس، فرق قلبه لحالنا وأخبرنا بأنه سيسمح
لنا بالعيش في جزيرته ولكنه لن يخبر أحدًا من شعبه بأننا بشريان،

لقد دلف للجزيرة قبلنا بعام واحد رجل عجوز وزوجته، وحين عرف سكان الجزيرة بأنهما بشريان قاموا ببندهما وأساءوا معاملتهما فلم يستطيعا التكيف بمناخ كوكبنا، وبسبب المعاملة القاسية التي وجداها من سكان الجزيرة أصيبا بحالة هلع وفقدا ذاكرتهما، فأراد الحاكم أمغناس مساعدتنا وخشي أن يتكرر نفس الأمر معنا، فطلب منّا بأن نخبر سكان الجزيرة بأننا من سكان الكوكب ولسنا دخيلين على الكوكب، وأن ملامحنا البشرية تلك هي طفرة تحدث في كثير من سكان الجزر الأخرى، ولتنجح الخطة أكثر قام الحاكم أمغناس بتسليمنا ماسيليا لتربيتها وكأنها ابنتنا، كانت يتيمة الأب والأم حينها، كان عمرها عشرة أشهر حينذاك، قُتل أبوها وأُمها في إحدى المعارك وليست لديها عائلة.

نظر مختار لأمنائي فقال له والدموع تترقق في عينيه:

- الآن قد عرفت لم كنت تذهب للبحر وقت حزنك يا أمنائي ووقت إصابتك، فحين تصاب تذهب لتداوي جرحك بماء البحر لأنك بشري وفقدانك للدم يخنقك، وأما ذهابك وقت حزنك فهو لأنك تريد البكاء ولا تريد أن يكتشف أحد أنك تذرف الدمع من عينيك فيعرف أنك بشري.

هز أمنائي رأسه مبتسمًا فقال:

- حين جئتني عند الشاطئ كنت أبكي، وحين رأيتك قادمًا نحوي قذفت نفسي في البحر لتختلط دموعي بمياه البحر ولا تنتبه لبكائي ولا لدموعي، وهذا هو السر الذي هددت به أمي وأبي أمامك

بأن أخبرك به إن لم يوافقا على ذهابي معكم حينها، فهما كانا يمنعانني من الذهاب معكم خشية أن أصاب فأفقد بعض دمائي فأختنق حتى الموت.

نظر مختار صوب أبيه فتمهد وقال له بنبرة حزينة:

- لقد عانيت في طفولتي كثيرًا، كان الأطفال يطلقون عليّ في المدرسة لقب مختار اليتيم، فتركت المدرسة واعتزلت الناس وخرجت للصحراء هائمًا على وجهي لا أريد رؤية أحد ولا أطيع مجالسة أحد، كل هذا قد نسيتَه الآن بمجرد رؤيتكم، ولكن أخبرني عن السبب الذي دفعكما لتركي وحيدًا.

تمهد والد مختار حزنًا وكمدًا فقال:

- كنا نراقب السرداب في وان تكوفي وهو يُفتح مرة واحدة في كل شهر وقت اكتمال القمر، ظننا أن ثمة كنزًا ثمينًا بداخل السرداب، فعزمنا أمرنا على الدخول والبقاء بداخله شهرًا كاملًا لنحصل على الكنز ونخرج وقتما يُفتح في الشهر الذي يليه فنعود إليك، فنفتد منّا المياه وأصبنا بعبطش شديد كاد يودي بحياتنا، استمعنا لصوت أمواج البحر وقد كان الصوت قريبًا منّا، فمشينا باتجاه الصوت فهوت أقدامنا وسقطنا في بحر الغياهب واكتشفنا بعد ذلك أننا قد دخلنا لكوكب آخر.

سأله مختار قائلًا:

- ولماذا لم تحاولا العودة إليّ؟

- لقد حاولنا كثيرًا، في كل مرة كنا نبخر فيها باتجاه الشرق كنا نتعرض لمأساة، فإما كنا نتعرض للغرق ويتم إنقاذنا في آخر لحظة أو نتعرض للسطو من قبل بعض القراصنة، أو لمرض يصيب أمك أو يصيبني، لقد حاولنا كثيرًا يا بني ولكن كل محاولتنا قد باءت بالفشل، سمعنا عن والد فارس وأردنا الذهاب إليه ليعيدنا، وسمعنا عن فارس نفسه أيضًا ولكننا لم نستطع القدوم إلى هنا، لقد كان بحر الغياهب من قبل هائجًا وموحشًا، تستطيع الإبحار فيه نحو الغرب بسهولة، ولكن الإبحار نحو الشرق كان شديد الصعوبة والخطورة.

بقي جيش الحاكم أمغناس مدة خمسة أيام بمملكة مورिका ليستريح أماناي ووالداه من عناء ومشقة السفر، وفي اليوم السادس طالب الحاكم أمغناس الجميع بالتحرك باتجاه بحر الغياهب ليعودوا لجزيرتهم، كنت سعيدًا بعودة مختار لوالديه وشقيقه أماناي، كانت الفرحة لا تسعني، لقد انحلت آخر عقدة من حلبي، بدأوا بالتحرك وقاموا بتوديعنا، كان مختار يمشي بجوار أماناي ويجر كل شخص منهما جواده، كانا يتبادلان أطراف الحديث ويمزحان ويضحكان والسعادة تملأ وجهيهما، قال مختار لأماناي ضاحكًا:

- هيا أعد لي القلادة.

رد عليه أماناي بسخرية:

- من الآن فصاعدًا لا تقل قلادتي، بل قل قلادتنا.

- هي ملكي أمها الساذج.

- بل ملكنا، لقد امتلكتها أنت لمدة عشرين سنة، والآن جاء دوري لأمتلكها لعشرين سنة قادمة.

كانت والديهما تتابع مزاحهما بسعادة، قاطعتهما قائلة:

- ويلي منكما، يبدو أننا سنعاني من مزاحكما هذا مستقبلاً.

صرنا واقفين نراقبهم ونشيعهم بنظرات الوداع حتى اختفوا عن أنظارنا.

«بعد مرور ثلاثة شهور»

في مملكة الغوائل وبجانب بحر الغياهب، علا صوت الزغاريد في المملكة، سعادة عارمة كانت تملأ كل أرجاء المملكة، قمت باستقبال الحكيم أتوم ونيشيا وأبيدوس وقد جاءوا من مملكة الجواسيس ليحضرُوا حفل الزفاف، واستقبلت في نفس اليوم سراجًا وأبريس ومرادًا وقد جاءوا من مملكة مورिका، والحاكم أمغناس وماسيليا وأمناي ومعهم مختار، سعدت كثيرًا لتلبية دعوتي لحضور حفل زفاف أختي إيمان وبهي، كانت كل شوارع المملكة تضح بالسعادة، كانت طيور روزا يحلقن في الأجواء ويرددن ألحانهن الشجية، اقتربت إليّ توتو وقالت لي متسائلة:

- متى ستعود للأرض أيها الملك؟

عقدت حاجبي فابتسمت وقلت لها مستفسرًا:

- ولماذا تسألين يا توتو؟

- لأنني أريد منك أن تجلب لي حين تعود إلينا المزيد من الشكولاتة.

ضحكت بنبرة عالية، قلت لها ضاحكًا:

- سأقوم ببناء مصنع هنا يا توتو لنصنع فيه الشكولاتة.

رفعت توتو حاجبها بسعادة فحلقت مبتعدة عني وهي تردد
بسرور:

- سيمتلئ كوكبنا بالشكولاتة، سيمتلئ كوكبنا بالشكولاتة.

تمت كتابة عقد الزواج، وتم إعلان بهي وإيمان زوجين، صارا
يرقصان معًا تلك الرقصة الشهيرة بالكوكب هنا وهما يضعان أيديهما
أسفل ذقنهما ويقفزان بطريقة ما زلت أراها مضحكة، نظرت إليّ نيقيا
فضحكت، لقد تذكرت ذلك الزفاف الذي حضرناه من قبل وشعرت
بالخجل الشديد حين رأيتني أضحك على رقصتها، اقتربت إليها ووقفت
بجانبيها، نظرت لإيمان وهي ترقص مع بهي فقلت لنيقيا متسائلًا:

- وأنتِ أيتها الجميلة، ألا تفكرين في الرقص، أقصد الزواج؟

رفعت نيقيا حاجبها فلاحت على وجهها ابتسامة لطيفة فقالت:

- هل طلب منك أحد خطبتي؟

- نعم، شخص أراه مناسبًا لك، حدثني عنك وعن نيته بالزواج
منك، يقول إنه سيعود للأرض لينجز وعد أحد أصدقائه ثم يعود
ويعلن الزواج بك.

ابتسمت نيقيا فقالت:

- سأفكر في الأمر حتى يعود.

جلس الجميع على موائد الطعام وبدأوا بالأكل، صرت أقلب النظر في الجميع بحثًا عن سراج، بحثت عنه كثيرًا ولم أجده، سألت أبريس عنه فقال إنه ذهب للشاطئ ليروح عن نفسه.

حملت بعض الأرز واللحم وذهبت إليه، تحت ضوء النجوم وعلى صخرة صغيرة وجدته جالسًا وينظر للبحر ومستمتعًا بالهدوء المحيط به من حوله، ربتُ على كتفه من الخلف فقلت له:

- أيمكنني الجلوس بجانبك يا صاح؟

التفت إليّ فوجدت فمه مليئًا بالطعام فهزلي رأسه بأن أجلس، نظرت أمامه فوجدت إناءً كبيرًا مليئًا بالأرز واللحم، ضحكت فقلت له:

- ظننت أن الطعام سيفوتك فجلبت لك طعامك، ولكنني نسيت أنك سراج، وتلك الأشياء لا تفوتك.

ابتسم سراج ولم ينبس ببنت شفة، واصل الأكل وهو ينظر للبحر شاردًا.

تهددت بعمق فقلت له:

- أهو الحب يفعل ذلك؟

عقد سراج حاجبيه ولم ينبس بكلمة، تهددت فقلت له متعجبًا:

- لا والله، ليس هذا بسراج الذي أعرفه من قبل.

ران علينا صمت ثقيل ونحن ننظر للبحر ولأمواجه المضطربة
التي تصطدم بالصخور كل فينة وأخرى، نظرت إليه فقطعت ذلك
الصمت فقلت له:

- إن كنت تحبها فاذهب إليها.

نظر إليّ سراج متعجبًا فقال بصوت خافت:

- أذهب إليها في جزيرة نائية لا يعيش فيها أحد سواها وشعبها؟

لاحت على وجهي ابتسامة ساخرة فقلت له:

- إذًا فأنت لا تحبها يا صديقي.

- لماذا؟

- لأن من يحب يعيش مع نصفه الآخر في أي مكان وتحت أية
ظروف.

أغمض سراج عينيه فتهد بعرق فقال:

- لا أعلم من أين ظهرت لي سيلين هذه، منذ أن رأيتها وأنا طول
الوقت شارد ومغيب.

- هي أيضًا تحبك يا صديقي.

عقد سراج حاجبيه فسألني متلهفًا:

- كيف عرفت ذلك؟ هل حدثتك عني؟

- لا، لم تحدثني، ولكنني أعرف نظرات الحب في عيون النساء.

- وما رأيك؟

- رأيي أنني سأعود للأرض لأنفذ وصية السيد سليمان، وحين أعود أريد أن أحمل طفلك، وإن لم يحدث فسأحملك أنا إلى الأميرة سيلين.

ضحك سراج ضحكة هادئة، نظر إليّ فقال بجديّة:

- مداخل الكوكب تتغير في كل مرة تخرج فيها، ألا تخشى أن لا تجد مدخلاً للكوكب لتعود إلينا مرة أخرى؟

- أنسيت أنني أملك الدم النبيل وتأتيني الأحلام لتساعدني؟

- وإيمان؟ ومراد؟ هل ستتركهما هنا؟

- إيمان تركتها مع مَنْ يستحقها وتستحقه، لو كنت أعلم أن بهيئاً لا يناسبها ما كنت لأوافق على زواجهما، أنا أعلم يقيناً أنه يحبها حباً معقوداً بحبل متين، وأعلم أنه سيعتني بها أكثر مما كنت أفعل أنا، أما مراد فما زال الجرح الذي خلّفه في قلبه أخوه مازن لم يندمل، هو من طلب مني البقاء هنا.

- ونيقيا؟

أطلقت تهيدة طويلة فأجبتة بنبرة يشوبها تأثر شديد:

- لو كان سكان هذا الكوكب باستطاعتهم العيش على الأرض لكانت نيقيا أول من فكرت في أن ترافقني، ما زالت نيقيا حزينّة على موت والدها الملك محب، ليست تلك هي نيقيا التي عهدتها من قبل،

فهي طوال الوقت شاردة ومهمومة، فما أن يراها الرائي حتى يُخيل إليه أنها فتاة بئسة شقية قد أخذ الحزن والههم مأخذهما منها، أو يُخيل إليه أنها فتاة طريفة تهيم على وجهها في كل مكان ترجو الخلاص ولكنها لا تجده ولا تستطيع إليه سبيلاً.

صمتُ هنيئة فنظرت لسراج فقلت له متسائلاً:

- أهكذا يفعل فراق الأُحبة؟

هز سراج رأسه فتهد بعرق وقال:

- بل يفعل أكثر من ذلك يا صديقي، إن الفراق آفة تنهش الأجساد وتقتلها ببطء.

نهضت من مكاني فقلت لسراج:

- هيا نذهب لحفل الزفاف، أريد الرقص معك.

سرنا سويًا لداخل المملكة ودخلنا وسط الناس في ساحة الرقص وصرنا نرقص بطريقة غريبة ومضحكة، نوبة ضحك هستيرية أصابت جميع الحضور وهم ينظرون إلينا ونحن نرقص رقصتهم، لقد كنت أرقص بطريقة خاطئة ومثيرة للضحك، كانت نيقيًا تجلس بين الحضور وتنظر لرقصي الغريب وتضحك بشدة، اقتربت إليّ توتو وصارت تدور من حولي وترقص في الهواء الطلق، تحولت ساحت الرقص لمسرح كوميدي وهو يعج بالراقصين والراقصات وهم يرقصون رقصتهم الشهيرة هنا بالكوكب، كان مختار يرقص مع

ماسيليا وتضحك هي على الطريقة التي كان يرقص بها، ابتسم مختار
فصاح وهو يرقص قائلاً:

- أريد أن أعترف لك بشيء يا ماسيليا بمناسبة هذا الزفاف.

امتلاً وجه ماسيليا بالخجل فقالت:

- ماذا هذا الشيء؟

توقف مختار عن الرقص فابتسم ابتسامة عابرة فقال لها
بسعادة:

- أرهيقم ماسيليا.

لاح على وجه ماسيليا طيف ابتسامة لطيفة فقالت مسرورة
ومغتبطة:

- أرهريقي أيها الأسمر.

فغر مختار فاهُ فقال مندهشاً:

- ماذا قلتِ للتو؟ أتعرفين معنى الكلمة؟

- نعم أعرف.

- منذ متى تعرفين؟

ابتسمت ماسيليا فقالت:

- منذ أول مرة قلتها لي، أنسيت أن والدك يعيش معي في نفس
البيت وهو يجيد التحدث بلغة الطوارق؟ لقد كان يقولها لي مراراً.

ابتسم مختار بسعادة فحملها وصار يدور بها حول نفسه وهو
يردد بصوت صارخ:
أرهيقم ماسيليا، أرهيقم ماسيليا....

«بعد مرور خمسة شهور»

كانت الشمس تتوسط كبد السماء في وقت الظهيرة، كنت أقف على الصخرة الطائرة الموجودة بجبل الزرقاء القريب من مملكة الجواسيس وأستعد لترديد تعويذة الخروج من الكوكب والعودة إلى الأرض، كنت أظن أنني سأعود إلى قرية بني حميل مثلما حدث معي في المرة السابقة، ولكن الحكيم أتوم أخبرني بأن مداخل الكوكب قد تتعدد ولكن المخرج لا يتغير، أخبرني بأن تلك الصخرة الطائرة هي المخرج الوحيد من الكوكب وهي ستنقلني إلى حيث دخلت من وادي الكواكب بليبيا، كان كثير من سكان مملكة الجواسيس واقفين بأسفل الجبل وقد حضروا لتوديعي، وكان من بينهم الحكيم أتوم ونيشيا وأبيدوس، وحضرت أختي إيمان أيضاً وحضر معها زوجها بهي، كانت إيمان تبكي وهي حزينة لفراقي، كان بطنها قد بدأ يكبر وتحمل

بداخله جنينها، صعد إليّ الحكيم أتوم وأنا أقف على الصخرة الطائرة واستعد لترديد تعويذة الخروج، نظرت إليه فقلت له ممازحًا:

- لقد صعدت الجبل بكل سلاسة أيها العجوز، حين أعود سأبحث لك عن زوجة.

ضحك الحكيم أتوم فقال:

- لقد مللنا من الشقراوات هنا على كوكبنا ولن أوافق على مقترحك، لكن إن جلبتها لي معك بعينين سوداوين وشعر أسود من كوكبكم فأنا موافق منذ الآن.

ضحكت حين سمعت كلامه، نظرت عاليًا لقمة الجبل فرأيت بعض الكائنات من شعب البايون، عدت فنظرت للحكيم أتوم فقلت له متسائلًا:

- هل جاءوا لتوديعي؟

لاحت على وجهه ابتسامة هادئة فقال:

- ردد التعويذة أولًا وحين تبدأ الصخرة الطائرة بالدلوف بك لداخل الجبل سأجيبك.

قمت بتريديد التعويذة وحين انتهيت قال لي الحكيم أتوم:

- لم يحضروا لتوديعك يا فارس، بل جاءوا من أجل إيمان.

عقدت حاجبيّ وسألته متعجبًا:

- وما علاقتهم بإيمان؟

- ينتظرون ولادتها.

- ولماذا ينتظرون ولادتها؟

تنهد فقال:

- إن تزوج بشري بفتاة من كوكبنا فإنهما سينجبان ذكوراً
وإنثاً يمتلكون الدم النبيل ويمتلكون قوى خارقة حين يكبرون، لكن
لو تزوج رجل من كوكبنا بفتاة بشرية فإنهما سينجبان.....

صمت الحكيم أتوم ولم يكمل كلامه، بدأت الصخرة الطائرة
بالتحرك والدلوف لداخل الجبل، قلت له بنبرة متسرفة:

- ماذا سينجبان أيها الحكيم؟ هيا أخبرني بسرعة.

هز الحكيم أتوم رأسه فقال:

- المتحولون.....

«تمت بحمد الله»